

MUHSIN AL-RAMLI

محسن الرملي

حدائق الرئيس

رواية

الطبعة الثانية

حدائق الرئيس

رواية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م
الطبعة الثانية 1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-9948-446-27-9

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإهداء

.. إلى أرواح أقاربي التسعة الذين ذُبِحوا في الثالث من رمضان 2006م.

.. إلى كل المظلومين في العراق:

أيها الأموات.. اعذروا حزننا المُر عليكم.. وارقدوا بسلام.

أيها الأحياء.. افعلوا كل ما بوسعكم من أجل التسامح والسلام.

- 1 -

أبناء شَق الأرض

فـي بلـد لا مـوز فيه، اسـتيقظت القريـة على تسـعة صناديق موز، فـي كل واحـد منهـا رأس مقطـوع لأحـد أبنائها، ومـع كل رأس بطاقته الشخصية التي تدل عليه لأن بعض الوجوه تشوهت تماماً بفعل تعذيب سـابق لقطعهـا أو بسـبب تمثيـل بهـا بعد الذبح. فلم تعـد ملامحها التي عُرفت بها، على مدى أعوام حياتها المنتهية، كافية للدلالة عليها.

أول من رأى هذه الصناديق مرمية على رصيف الشـارع الرئيسـي، هو الراعي الأبله إسماعيل، فدنا منها بفضول دون أن ينزل عن حمارته، التي لطول ركوبه لها، ارتبطت صورته في أذهان الناس بها، مدلياً ساقيه على أحد جانبيها، كأنهما جسد واحد. ما أن رأى الرؤوس المدماة في الصناديـق حتـى انزلـق واقفـاً، دنـا منحنياً، جسـها بطـرف عصاه، عرف بعضهـا، طـارت بقايـا النعاس من عينيه ففركهمـا ليتأكد من صحوه، ثم تلفت حوله.. ليتيقن من وجوده في قريته وليس في مكان آخر.

كان الفجـر فـي أواخـر ضبابه الفضـي. الدكاكيـن موصـدة علـى الجانبيـن. القريـة هاجعة هادئة سـوى من صيـاح ديكة ونباح كلب بعيد يرد عليه كلب آخر في طرف أبعد. في تلك اللحظة أحس إسماعيل بأنه قد تخلص من شـعوره القديم بالذنب، الذي ظل يلاحقه في الكوابيس منـذ صبـاه، بسـبب قطعه للسـان عنـزة أزعجته بثغائها حيـن كان يحيك لحميدة حزاماً صوفياً وسـط عزلة وصمت (وادي الضِباع). كما تجاوز فـي اللحظـة ذاتهـا حالـة الخـرس التـي أصابته أول رؤيتـه للرؤوس في صناديـق المـوز، فراح يصـرخ بأعلى صوته حتى جفلت حمارته، توقف

قطيع أغنامه وطارت الحمائم والعصافير من على الأشجار والسطوح. ظل يصيح دون أن يدرك تحديداً ما الذي كان يقوله في صرخاته التي بدت شبيهة بثغاء تلك العنزة التي قطع لسانها وشواه.. حتى أبصر بعض الناس يهرعون إليه من بعض البيوت القريبة، ثم كل الناس من كل البيوت بعد أن رفع أحدهم النداء عبر مكبرات صوت المسجد.

ولو تكلم عبدالله كافكا عن هذا الحادث لقال:

كان ذلك في اليوم الثالث من شهر رمضان سنة 2006 حيث يتحدث التاريخ القديم عن شيء هلامي غريب، جسده كبير ورأسه صغير، كان اسمه أمريكا، جاء من وراء المحيطات واحتل بلداً كان اسمه العراق، وتُوضح بعض هوامش المؤرخين، أن البشر آنذاك قد كانت لهم قلوب بدائية في قسوتها ووحشية كقلوب البهائم الضارية، لذا كان من بين علاقاتهم الشائكة ببعضهم، سلوكيات مشينة كالهجوم والإرهاب والحروب والغزو والاحتلال. في تلك العصور السحيقة كانت البشرية غارقة بظلام القلوب وليس ظلام العقول أو الأبصار، بحيث أن الإنسان كان يفكر بقتل أخيه الإنسان.. بل والأدهى من ذلك أنه قد يقتله فعلاً.

على هذا النحو يرى ويروي عبدالله كافكا كل ما يحدث، يصف كل شيء بأنه تاريخ قديم، ميت، ميؤوس منه، ولا وجود لشيء اسمه حاضر أو مستقبل، وإنما ثمة ماض فقط.. وكله أسود، بعضه يموت نهائياً بلا عودة والبعض الآخر يكرر نفسه لاحقاً، في الزمن الذي يسميه الناس مستقبلاً، لذا فإن شيخ المتشائمين عبدالله كافكا يكتفي، منذ أعوام عودته من الأسر في إيران، بالجلوس على المقعد ذاته في ركن مقهى القرية حال ما يفتح بابه صباحاً وحتى إغلاقه فيما بعد منتصف الليل، يحتسي فناجين القهوة المرة وأقداح الشاي الأسود كالحبر ويدخن النارجيلة شارد الذهن أو يستمع بصمت. يرد التحيات بهزة رأس أو بإشارة من يده الممسكة بخرطوم الدخان، وإن تكلم، أو

بالأحرى إن اضطروه إلى الكلام، فإما أن يستطرد بلا توقف أو يكتفي بتعليق لا يتعدى بضع كلمات. ومن ذلك حين أخبروه، ذات ربيع، أن النهر قد فاض، طفحت ضفتاه فغطى الحقول والبساتين، جَرَف بيوت الطين والأكواخ القريبة منه وحَفر سيله سفح تل المقبرة آخذاً معه بعض جماجم وعظام الموتى الأعزاء. لم يقل شيئاً وظل يسحب أنفاس الدخان أمام تراكض الناس وهلع الواصفين، حتى دخل إسماعيل الراعي مرعوباً مولولاً لأن الفيضان قد أطاح بزريبة حيواناته وأخذ عشرة رؤوس من أغنامه وإحدى عنزاته. كان يتحسب وهو يصف لهم كيف طفت عنزته على سطح الماء الأحمر بسبب الطين والقفو وهي تثغو وتنظر إليه كأنها تتوسل، دون أن يستطيع فعل شيء لإنقاذها، لأنه لا يعرف السباحة. تعالى صوت إسماعيل هلعاً وسط المقهى: الماء يرتفع ويزحف نحو بقية القرية، إنها نهايتنا.. انه يوم القيامة ونهاية العالم. عندها تنحنح عبدالله كافكا وسأله بهدوء: وهل ارتفع الماء بحيث لامس ظهر عنزتك سقف السماء؟ فقال إسماعيل: لا. فقال له: إذاً فهذا لاشيء، ولكن ليته يحدث وتنطبق السماوات على الأرض. ثم واصل تدخينه بروية.

أما حين اخبروه، هذا الصباح، بأن رأس رفيق عمره إبراهيم بين الرؤوس التسعة، فقد أجاب: خلاص، لقد ارتاح، لأنه مات فعلاً هذه المرة، تاركاً إيانا لفوضى الأقدار وعبث انتظارنا لموتنا، نحن الأموات في الحياة. ثم صَمَت، بلا أي حراك سوى ارتفاع وانخفاض صدره بفعل التنفس، جَمد للحظات، ثم راح يدخن ويدخن... ورأى الناس لأول مرة دمعاً ينزل من عينيه، دون أن ترمشان، دون أن يمسحهما ودون أن يكف عن التدخين.

حين وصل الخبر إلى ثالثهما في صداقة العمر، الشيخ طارق، كاد أن يُغمى عليه ويسقط، لذا سارع بالجلوس مستنداً في دعم روحه، كي لا تنهار، على الكثير من الجاهز مما يحفظ من الأقوال الدينية.

بكى واستغفر الله، بكى ولعن الشيطان كي لا يحرضه على الجزع، بكى وبكى حتى سربل الدمع أطراف لحيته المُحَنَاة، ثم أنقذه تساؤل المحيطين به من استسلامه لنوبة أطول من النحيب، قالوا: ماذا نفعل يا شيخ.. أندفن الرؤوس لوحدها أم ننتظر حتى نعثر على أجسادها وندفنها سوية؟. لقد قُتلوا في بغداد، أو في الطريق إليها، وبغداد الآن فوضى تغص بالجثث المجهولة والمفخخات والأجانب والكذب، وربما من الاستحالة العثور على جثثهم. قال: الأفضل دفن الرؤوس، وإن تم العثور على الأبدان لاحقاً، فلا بأس أن تُدفن مع الرؤوس أو منفصلة أو في محل العثور عليها.. إن أولادنا وأخوتنا ليسوا بأعز أو أفضل من سيد الشهداء الحسين وحفيد رسول الله الذي دفنوا رأسه في مصر أو الشام وجثته في العراق. عَجلوا بدفن الرؤوس فإن إكرام الميت دفنه.

وحدها قِسمة، الأرملة التي صارت يتيمة الأبوين منذ هذا الفجر، اعترضت وأرادت الإبقاء على رأس والدها إبراهيم إلى أن يتم العثور على جثته، لكن اعتراضها ذهب سُدى حين واجهها الرجال بالرفض وزجروها: اخرسي يا امرأة ودعك من هذا الخَبل.. ما أدراك أنت وهذه الأمور!؟. ثم أبعدوها دفعاً إلى حيث تجمع النساء اللاتي استغربن موقفها، لأنهن يعلمن بأنها لم تكن على توافق دائم مع أبيها، لكنها، كعادتها، عزمت على عدم الانصياع وسترى ما الذي ستفعله. وحدها جارتها أميرة السمينة أيدتها وأرادت أن تفعل مثلها، أن تحتفظ برأس زوجها في الثلاجة، إلى أن تعثر على جثته.

لكل رأس حكايته. لكل واحد من هذه الرؤوس التسعة عائلة وأحلام وفجيعة نهايته ذبحاً مثل مئات الآلاف من قتلى هذا البلد الملطخ بالدم منذ انوجاده وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولو كان لكل قتيل كتاب لصار العراق بمجمله مكتبة كبيرة يستحيل حتى فهرستها.

قال الشيخ طارق: لا تغسلوا الرؤوس، إنهم شهداء والشهيد لا يُغسل قبل دفنه لأنه طاهر بما فيه وستفوح جراحه عطور مسك يوم القيامة.

وفي مراسم تشييع الرؤوس، اقترب من رأس إبراهيم، وقع عليه احتضاناً وتقبيلاً حتى لطخت الدماء صدر دشداشته البيضاء وكفيه ولحيته، لأن القشور التي تكونت من امتزاج التراب والدم المتخثر وسدت الجروح وعروق الرقبة قد انقشطت بفعل شدة احتضان الشيخ وتقبيله للرأس فنزف الدم منها مجدداً. أبعدوه برفق ولفوا الرأس بقطعة كفن بيضاء مثل بقية الرؤوس، ودفنوها في قبور متجاورة جاعلين منها في النهاية قبوراً كاملة بطول قامة الرجل العادي وليس بحجم قبور الأطفال على الرغم من أنها لا تضم في جوفها غير الرؤوس.

لم يحضر عبدالله كافكا الدفن وظل في المقهى يتنفس الدخان. لم يعاتبه أحد على ذلك، على الرغم من أن جميع أهل القرية يعرفون مدى ارتباط هؤلاء الثلاثة ببعضهم منذ الطفولة، بحيث كانوا يطلقون عليهم تسميات مختلفة، كلها تحتوي على مفردة (الثلاثي) دائماً، مثل: (الثلاثي الأبدي)، (الثلاثي المرِح) أو حتى (الثلاث مؤخرات في لباس واحد) أو (الثلاث خصيات) وغيرها من ثلاثيات، لأنهم لم يكونوا يرونهم منفصلين تقريباً، إلى أن فرقتهم المصائر أيام الحرب العراقية ـ الإيرانية، لكن التسمية الأشهر تداولاً كانت: (أبناء شق الأرض) ولهذه التسمية حكاية، هي بحد ذاتها تؤكد على مدى تلاحمهم المبكر مع بعضهم.

كان ذلك أول أعوام صباهم، حين السباحة في نهر دجلة أوقات قيظ الظهائر التموزية الحارقة، ومشاكسة الفتيات الغاسلات المغتسلات على الشاطئ، وصيد القطا النائم ليلاً في البراري القريبة أو استخراج اليرابيع والحيّات من جحورها، وكسر أسنانها ومطاردة الذئاب وبنات

أوى. حين رآهم البدوي جَدعان قرب خيمته ولم يعرفهم، على الرغم من أنه يكاد يعرف كل أهالي القرية لأنه يقيم مع عائلته وقطيع أغنامه شهراً من كل عام بعد موسم الحصاد. سأل جَدعان عبدالله: ابن من أنت؟ ولأن عبدالله لم يكن يعرف أباه الحقيقي، صمت قليلاً ثم قال: أنا ابن شق الأرض. ثم توجه إلى إبراهيم وطارق بالسؤال نفسه، فأجاباه الإجابة نفسها تضامناً مع عبدالله. عندها صمت البدوي برهة، مسد لحيته كأنه يفكر، ثم قال: نعم، كلنا أبناء شق الأرض.. الأرض أمنا جميعاً منها خُلقنا وإليها نعود.

مَسح على رؤوسهم برفق ودعاهم إلى خيمته ليتذوقوا أطيب زبدة في الدنيا، كما قال، زبدة زوجته أم فهدة، ويشربوا من لبن قربتها. أسعدتهم الدعوة كثيراً بقدر ما أثارت في نفوسهم من ارتياب ومخاوف، فهذه فرصة فارهة لأن يرى طارق فهدة داخل خيمتها بدل التواعد معها سراً وسط أكداس القمح والشعير المحصود أو بين قطيع النعاج الغافية. أيكون والدها على معرفة بالأمر وما هذه الدعوة إلا كمين نصبه لهم كي يصطادهم ويفعل بهم ما لا يعلمه إلا الله؟! فحكايات قسوة البدو وغدرهم كثيرة في الذاكرة وخاصة تلك التي تتعلق بمسائل.. الشَرف.

روى جَدعان الحكاية لشيوخ القرية في مجلس قهوتهم الصباحية فقهقهوا ثم أشادوا بموقف الأولاد المتضامن والمخلص لمفهوم الصداقة الحقة، وتسربت الحكاية إلى الجميع مثلما يتسرب كل قول في القرية إلى كل الآذان حتى لو كان همساً بين اثنين، فشاعت من حينها تسمية (أبناء شق الأرض).

لم يكن عبدالله كاذباً حين قال بأنه ابن شق الأرض، فهذا ما كان يعرفه آنذاك، وهذا ما يعرفه الجميع. أما الآن، وهو يقترب من الخمسين من عمره، فهو الوحيد الذي يعرف أصل الحكاية. أعلمته بحقيقته زوجة المختار التي كانت تؤجل موتها حتى عودته من أعوام

الأسر الطويلة في إيران.

وحده الآن يعرف بأنها جدته، وبأن الراعي إسماعيل الأبله هو خاله. حكايته تشبه قصص الأفلام الهندية القديمة، لذا لا غرابة أن تكون إحدى تعريفاته الشهيرة للحياة بأنها (فيلم هندي).

وهو القائل عن نفسه: أنا الضحية ابن الضحايا، أنا ابن القتلى حتى هابيل، لذا أستغرب كوني لم أُقتل حتى الآن!. ثم يعقب: إن منطق تاريخ أجدادي يشترط أن يكون موتي مرتبطاً بحب، ولعل فشلي بالارتباط بمن أحببت هو الذي حال دون مقتلي، أو أن ذلك هو مصرعي الحقيقي... لعلي أكون النقطة الأخيرة في مجلد أسماء سلالة القتلى هذه.

لم يكن عبدالله يصرح بدوافع تلميحاته وبسرها الحقيقي لأحد. ولم يطالبه أحد بتفسير ما، فقد اعتادوا على أقواله التي يصفونها بـ (المُتفلسِفة)، وهي غالباً ما تعجبهم بغموضها ويؤولها كل منهم على هواه أو يناها. لم يبح بالسر حتىَ لصديقيْ عمره على الرغم من تعاهدهم الضمني على الكتمان، وبالمقابل هما أيضاً يحملان في صدريهما أسراراً قررا أن تبقى محبوسة حتى الموت، فلكل إنسان سر ما، أو أكثر، قرر مع نفسه ألا يبوح به أبداً. أحياناً لأنه مُخجِل أو مُحرِج أو مُوجِع.. أو لم يجد الظرف واللحظة الأنسب لإطلاقه، أو لأن أوانه لم يحن، أو قد فات ولم تعد لمسألة البوح به أهمية أو معنى.

تربى عبدالله بين يدي أبوين طيبين، أحباه كأنه وُلد من صلبيهما، ولو كان أنثى لأسمياه (هدية) لأنهما يعتبرانه (هدية من السماء)، وكررا هذا القول طوال حياتهما.

كان البيت الطيني الصغير لصالح ومريم آخر البيوت في القرية، على سفح التل القريب من النهر، وذات فجر ربيعي، حيث بياض أول النور القادم يُفتت آخر بقايا الظلمة المُنسحبة. استيقظت مريم، كعادتها، واتجهت إلى المرحاض، حائط طيني مربع يصل ارتفاعه حد كتفي

الواقف جواره، مُقام في أقصى فناء الدار على شق عميق في سفح التل، شق أحدثه مطر هادر منذ أعوام بعيدة، فاستثمره صالح ليكون مرحاضاً، ويسمونه (الخلاء)، على بعد ستين خطوة من باب البيت، بعد أن كانا، مثل كل الساكنين في الأطراف، يقضون حاجاتهم في الوادي، الدغل أو العراء ليلاً. لم يكلفه الأمر شيئاً لذا اعتبره عبقرية منه، فلم يقم بأكثر من تشييد الحائط المربع كصندوق، وما على الداخل لقضاء حاجته سوى أن يفتح ساقيه على جانبي الشق ويقرفص ثم يدفع بفضلاته في فم الشق المظلم حيث سيتأخر سماعه لسقوطها مكتوماً في العمق البعيد. البعض فسر هذا الشق بأنه بئر قديم وأعاد فتحه المطر، آخرون قالوا: ربما أن هذا التل ينطوي على مكان أثري. فما أكثر ما وجد الحافرون لبئر أو الجابلين لطين الأرض لبناً لبيوتهم أو لصنع تنور، جِراراً وأساورَ وأقراطاً وألواحاً وأحزمة وسيوفاً ودروعا من نحاس وذهب وفضة، يهدون ما هو نسائي لنسائهم، ويحتفظون بالرجالي زينة في واجهات صالات الضيوف، فيما يستخدمون الجرار لتبريد الماء أو تخليل الخضراوات بعد تفريغها من العظام وغسلها، أما الألواح المفخورة التي عليها رسوم وكتابات مسمارية فيستخدمونها عتبة، أو لتثبيت فتح الأبواب، أو أركاناً لمواقد النار، أو جزءً من نافذة، أو تحت قوائم الأسِرة وخزانات الملابس لضبط توازنها.

قبل أن تدخل مريم إلى (الخلاء) رأت صُرّة قماش، قرب فتحة الشق الخارجية، مسنودة على الجدار، بمحاذاة المدخل، فجفلت واضعة كفها على فمها ثم على صدرها، وبعد أن هدأت قليلاً وسحبت نفساً عميقاً، مدت كفها بحذر إلى أعلى الصرة وأزاحت أطراف القماش بحذر فهالها أن رأت وجه طفل رضيع نائم. عادت راكضة إلى البيت تهز صالح حتى هزت السرير معه واستيقظ. يسألها وهي تُتمتم مشيرة بسبابتها إلى الخارج: "طفل.. طفل.. الخلاء.. طفل"، ولولا أنه لم يكن

قد رأى امرأته على هذا الحال من الذهول من قبل أبداً، لما خرج حافياً وبلباس نومه الداخلي.

حملا الصرة إلى البيت وبعد أن وضعاها، ظلا ينظران إلى بعضهما بصمت يشي بالكثير من التعابير. قالت: أترى يا صالح أنه هدية من الله على صبرنا لأعوام بلا أطفال واستجابة لأدعيتنا؟ قال: لا أدري، لا أعرف.. ولكن ما الذي أتى به إلى هنا؟.. سأذهب لصلاة الفجر في المسجد وأسأل فيما لو أن أحدهم قد فقد طفلاً..

نهض وتوجه إلى الخلاء بنية الشروع بالوضوء، دار حوله مرتين كأنه يبحث عن شيء آخر أو طفل آخر، جلس في الداخل مشمراً ولم يخرج منه سوى هواء البطن. اغتسل وعاد ليرتدي ثيابه النظيفة. حدق في وجه الطفل وقال: انظري.. أهو ذَكر أم أنثى؟

كشفت مريم عن الرضيع بأصابع مرتجفة فَتَقَّ بالبكاء. إنه ذَكر. وخرج صالح كأن ريحاً تدفعه من الخلف وأخرى تحجزه من الأمام. وحال وصوله أخبر الشيخ ظاهر، إمام المسجد، بالأمر ليعلنه على الملأ، ولم يتفاجأ ظاهر كما كان يتوقع صالح، ففسره مع نفسه على أنه من حنكة الشيخ وسعة علمه وحلمه وصلابة إيمانه. وبعد الصلاة خاطب الإمام الجميع سائلاً إياهم، وبما أن أحداً منهم لم يفقد طفلاً ولم يسمع بأحد قد فقده. قال: الحاضر يُعلم الغائب، أبلغوا جميع أهل القرية بالأمر.. وإن لم يطالب به أحد ويُثبت أبوته خلال ثلاثة أيام فهو لصالح وامرأته.. إنه هدية من رب الخلق على صبرهما وطيبتهما وإيمانهما حتماً.

أيد الجميع قوله، بل أسعد دواخلهم بفعل محبتهم لصالح.. وتمنوا، ثم قالوا، ثم اقتنعوا على أن الأمر معجزة فعلاً ومكافأة من الله للطيبين الصابرين.

كان صالح في حالة من الوجد رقرقت الدمع في عينيه، وحال

خروجـه سـارع إلـى بيتـه كأن كل الريـاح تدفعه إلى الأمـام دفعاً.. حتى دخل على مريم متهللاً، وقال: إنه هدية بالفعل يا مريم كما قلتِ، ولو كان أنثى لأسميناه (هدية) أما الآن فسوف نسميه.. نسميه عبدالله، على اسـم أبي الذي مات وهو يحلم بحفيد يحمل اسـمه. وهمّت مريم أن تزغرد، لكنه أوقفها قائلاً، على الرغم من شدة غبطته بحيث أنه لو كان يعرف يزغرد لفعلها هو: ليس الآن انتظري يومين أيضًا، وعندها سنذبح ثورنـا، ونقيـم وليمـة كبيـرة للجميـع وحفلاً ودبكة كالأعـراس، وعندها زغردي ما تشائين.

... وهكذا كان.

- 2 -

سيرة الأجداد.. تواطؤ

طارق بن ظاهر إمام المسجد، عبدالله بن شق الأرض وصار ابن صالح، وإبراهيم بن سهيل الدمشقي. ولد الثلاثة سنة 1959 في أشهر متتالية، ومنذ حَبوهم ولعبهم عراة المؤخرات، في التراب قرب أمهاتهم المتجمعات بجوار التنانير، أو أمام أبواب بيوتهن، في المساءات، لتبادل الثرثرة وأخبار الناس التي يسمينها (عُلوم)، صاروا أصدقاء لا يفترقون إلا للنوم في دور الأهل وأحياناً يبيت أحدهم في دار الآخر إذا ما زعل من أهله أو تأخر في السهر.

معاً أصيبوا بمرض الحصبة ومعاً شُفوا منه، معاً تعلموا المشي والسباحة وصيد العصافير، تربية الحمام، سرقة البطيخ والرمان وألعاب الرماية والاختباء والقفز العالي وكرة القدم. معاً دخلوا المدرسة وكانوا يدافعون عن بعضهم أمام اعتداءات بقية التلاميذ، ويدرسون للامتحانات وسط الحقول أو في غرفة أحدهم ليلاً.

كان طارق أكثرهم عناية بمظهره وشغفاً بالقراءة والبنات، وعدا الاسم العام الذي يعرفهم به الناس (أبناء شق الأرض) وبقية الثلاثيات، كانوا يطلقون على بعضهم، فيما بينهم، تسميات أخرى يتخذونها من صفة أو سلوك أو حال، سرعان ما تشيع هي الأخرى بين الناس كأي قول، حتى وإن كانوا يجهلون مصدره أو دواعيه، فكانوا يسمون طارق بـ(المُندهش) لأنه دائم الدهشة كطفل أمام كل شيء أو قول مهما يكن عادياً أو تافهاً، ويبدي حماسة شديدة لأية فكرة أو موقف وإن كان سيتخلى عن حماسته في اليوم التالي وينساها، لذا لا غرابة أن تقلبت

بـه الميـول المتناقضـة إلى أن انتهى متديناً. عبدالله هو الذي أطلق صفة المُندهـش عليـه حيـن كان ينبهه دائماً إلى ردود فعله وحماسـته بالقول: على مهلك.. مالك مندهش هكذا كوجه الأهبل. وطارق نفسه هو الذي أطلق على عبدالله لقب (كافكا) وذلك أيام دهشته باكتشاف فرانز كافكا وولعه بقراءة كل ما له وعنه، ولأن عبدالله عادة ما يعرض الجانب القاتم لأية فكرة أو موقف أو منظر ويبدو الحزن متجذراً عميقاً في عينيه حتى وهو يضحك. لا شـك أن لعدم معرفته أبويه الحقيقيين دوراً في ذلك. ولـو أن طـارق قـد واصل قراءته للأجانب حتـى الآن ولم ينته بالتحول إلـى قـراءة مـا ورثـه عن والـده من كتب الدين لأسـماه عبدالله بيكيت، حيث صار وجه عبدالله يشبه أشد صور صموئيل بيكيت كآبة وتغضناً، غطتـه التجاعيـد الحـادة فيبدو كجلد ذبيحة مركون، أو كأرض انسـحب عنها الماء فجفَّت حتى تفطَّرت. لكن لقب كافكا أعجب عبدالله أكثر، وتعايـش معـه، خاصـة بعـد أن حدثـه طارق عن سـوداوية هـذا الأديب وغموض علاقته بأبيه.

أمـا إبراهيـم، الـذي كان أقواهـم بدناً وأكثرهم هـدوءاً وطيبة، فقد أسـمياه إبراهيـم (قِسـمة) لأنـه يتقبـل كل حـادث أو حديـث باستسـلام عجيب ومعقباً على الدوام:"كل شـيء قسـمة ونصيب" أو يردد: "هذه هي قسـمتي"، فكانوا يكنونه، للتنويع، بأبي قسـمة، وبالفعل أسـمى ابنته بهذا الاسـم لاحقاً، ولو أنه أنجب غيرها ولداً فليس من المسـتبعد أن يسـميه "نصيب". هو نفسـه قد صرح بذلك ذات مسـاءٍ مازحٍ سـعيد مع صديقيـه الحميميـن حيـن اسـتعرضا الكثير من ذكرياتهم. شـاء قدره أن يكـون الابـن البكـر لوالديه مما حملـه تبعات كونه الأخ الأكبر لحشـد من الأشقاء وما يتطلبه ذلك من تضحيات حوّلت مجرى حياته كلها.

آباؤهـم أصدقـاء أيضًـا، وإنْ كانت صداقة الآباء تنطوي على نوع مـن التواطـؤ وتقبل ضـرورة التعايش كيفما كان في قرية صغيرة. الحاج

ظاهر، أبو طارق المندهش، يمتاز بالفطنة والدهاء، دائم الابتسام، الأشقر الوحيد في القرية، ممتلئ البدن، يرتج كرشه ولحيته كلما صعد ضحكه إلى حد القهقهة. كان قد درس في الموصل بمدرسة قرآنية، وبعدها عاد إلى القرية ليصبح معلماً في مدرستها وإماماً لمسجدها. يحب الأكل والنساء والمزاح، تزوج من ثلاثة، طارق ابن امرأته الوسطى التي تعرف عليها عند زيارته لقرية مجاورة لحضور عرس انتهى قبل أن يبدأ بمقتل العريس بمسدس ابن عم العروس الذي كان يريدها لنفسه. تلك الليلة الدامية خرج منها ظاهر رابحاً، فبعد أن قتل ابن العم العريس، انتحر بأن أدار مسدسه إلى صدغه وأطلق، فبقيت العروس أرملة في ليلة عرسها وقبل الدخول بها، فضج الآباء حينها. هاج الحشد الحاضر وماج وسط العطور النفاثة وموائد الطعام الغاصة باللحم والرز والثريد. خمّشت العروس وجهها بأظافرها وندبت حظها، فهَم والدها أن يقتل أخيه والد القاتل، فيما هَم والد العريس القتيل بقتل زوج أخت القاتل القتيل وتشابكت النوايا الدامية مع الدماء المسفوحة في ساحة العرس حتى تخيل الناس أن الدماء التي ستسفك ستصل حد الرُكب. ولا يدري أحد كيف قام ظاهر بالتهدئة السحرية بين الأطراف وحل الاشتباك بعقد صفقات سريعة مشفوعة بنصوص قرآنية وأحاديث نبوية ومواقف أئمة، هدّأت النفوس الثائرة وأرضت الجميع، الذين ربما كانوا، في أعماقهم، يودون الوصول إلى أي حل يجنبهم التمادي بالحنق الذي قد يقودهم إلى نهايات مجهولة، نهايتهم هم ما بين قاتل أو قتيل أو هارب... أقنعهم ظاهر بأن يكون الحل في أن تُمنح أخت القاتل كديّة، زوجة لأخ العريس القتيل. وأما عن العروس التي ترملت واحتمالات أن لن يتزوجها أحد بعد الآن كونها صارت طالع نحس وشؤم، فقال: أنا أتزوجها.

وهكذا عاد ظاهر، في تلك الليلة، من زيارته إلى تلك القرية

بالعروس له، بعد أن كان قد ذهب مدعواً إلى عرسها، عقد عليها وأخذها معه، وهي لا تزال بعطرها وقلائدها الذهبية وبثياب عرسها، وإن كانت ملطخة ببعض قطرات دمها ومخدوشة الوجه. في تلك الليلة استطاع أن ينسيها كل الذي حدث، بحيث أنها أطلت في الصباح مبتسمة سعيدة وهو يتعمد الإكثار من مداعبتها وإضحاكها بأقواله وطرائفه وحركاته الممتعة النابعة من دهاء ومعرفة خبيرة بمداخل ومخارج بني آدم، وبشكل أكبر بنات حواء. وأنجبت له البنات والبنين من بينهم سميحة وطارق المندهش.

كان ظاهر محباً للحياة والولائم، وعاش كمن يسير الحظ أمامه يمهد له السبيل، إلا أن موته كان موجعاً إثر إصابته بمرض غريب، هو وصاحبه المختار، عانيا أوجاعه الفظيعة عاماً كاملاً وهما يريان جسديهما يتقرحان، يتقيحان، يقشرهما المرض وينخر في لحمهما حد العظام وماتا في اليوم نفسه متفسخين في فرش الداء العطنة.

طارق يشبه والده في الكثير لكنه أطيب منه قلباً بشهادة كل مجايلي الأب، ودرس في المدرسة نفسها التي درس فيها والده بعد أن تحولت إلى معهد للشريعة. وظاهر هو واحد من أربعة فقط ممن يعرفون من هو الأب الحقيقي لعبدالله كافكا، إضافة إلى المختار وزوجته السيدة زينب وعبدالله نفسه متأخراً.

أما سهيل، والد إبراهيم قسمة فيبدو وكأنه خارج من إحدى حكايات الجدات. نحيف، قصير القامة، قوي البدن، أو قوي العظم على حد تعبيرهم، بلا أنف ودائم الابتسام واللعب والمرح والمزاح، ذكي العينين والقول ومحب للتدخين، مفضلاً السجائر التي تلفها أصابعه ببراعة فائقة بحيث لم يتمكن أحد من الفوز عليه في مسابقات سرعة اللف، وصل إلى أن يلف سبع عشرة سيجارة في الدقيقة الواحدة ذات سهرة تحدٍّ خصصت لهذا الغرض، وهو لا ينسى عرض سجائره على

مجالسيه ومحدثيه، حتى وإن كان المقابل لا يدخن، أهداه ظاهر منذ شبابهما علبة فضية لحفظها، لكنه نادراً ما كان يستخدمها، لأنه ليس بحاجة إليها مادام يلف السيجارة بسرعة توازي وقت إخراج العلبة من الجيب وفتحها وأخذ سيجارة منها. السجائر متعته الأكبر على الرغم من أن له متعاً وقابليات أخرى تتهامس عنها النساء، بعض همسهن نقلاً عما تُحدثهن به زوجته العمياء التي كانت تظن بأن كل الرجال لديهم ما لديه، عضو بطول المرفق، لولا أن فاجأتها إحداهن بشهقة دهشة، بحسد ثم بضحكة، وعلقت: إذاً هذا هو الذي أعماكِ يا أم إبراهيم. قالت ذلك من باب المزاح طبعاً، فأم إبراهيم عمياء منذ الولادة، وربما بسبب عماها تحديداً تزوجها سهيل الدمشقي، الذي ما كانت لترضى بالزواج منه امرأة مبصرة أبدًا، وهو بهذا القصر وهذا الوجه الذي بلا أنف سوى منخرين مكشوفين وسط بقايا أنف تآكل، فترك آثاره كأساسات حيطان بيت طيني منهار. كان منظر نفخ الدخان الخارج من ثقبي وسط وجهه يثير الضحك، ولولا أن القرية قد اعتادت على هذا لطقت بطونها وفطست من شدة القهقهة. كما أن للحكاية التي رتبها له ظاهر أثراً في أن يتحول منظر هذا الأنف الغريب من شيء قبيح إلى مدعاة للفخر والاعتزاز.. بل والتبجح أحياناً. كونه وسام شرف وشجاعة، يُذكر بمشاركة سهيل في حرب فلسطين سنة 1948.

كانا، هو وظاهر، شابين. ذهبا مع قطعات القوات العراقية مروراً بدمشق ومن ثم عبوراً للجنوب اللبناني إلى فلسطين. ترافقا في الوحدة العسكرية والموضع نفسه، وحين انفجرت قربهما قذيفة مدفع بال ظاهر في سرواله، وانقلب سهيل على ظهره من شدة الضحك عليه، فيما انقلب ظاهر على بطنه من شدة الخوف، وظل يرتعد ويبكي بهستيريا، مما جعل الضابط التركماني المشرف عليهما يعيده إلى الخطوط الخلفية صاباً عليه أشد النعوت إهانة وأكثر الشتائم بذاءة، بعدها بعشرة أيام

نبتت في أنف سهيل دملة راحت تكبر وتتقيح أكثر فأكثر بحكم قذارة الموقع وقلة الاغتسال وغياب الإسعافات الطبية، التي وإن توفرت فهي ستكرس نفسها للجرحى وليس لمعالجة دملة جندي قزم، حجمه بحجم دملته، كما علق أحد الممرضين. كان سهيل يحكها لأنها تحكه فينخرط الجلد واللحم الرخو بين أصابعه حتى تآكل الأنف بحيث أنهم، عند العودة إلى دمشق، لم يتمكنوا من فعل الكثير سوى استئصال المتدلي وتعقيم مكان الأنف كي لا يستمر الالتهاب الجرب آكلاً بقية الوجه. رافقه أثناء ذلك ظاهر في المستشفى ومن ثم في الأسواق. وكان ظاهر ينظر إلى كل امرأة شامية عابرة ويتحسر، فيما يلثم سهيل وجهه حد العينين حائراً بمصيبته وحزيناً على أنفه. في المقهى سخر ظاهر منه حين وجده يرفع طرف اللثام من أسفله ويدس قدح الشاي تحته كي يشرب، قال:

- بهذا النقاب سيظنك الناس امرأة، سيظنون بأنك زوجتي.

غضب سهيل حينها بحدة وسحب ظاهر من ياقته إلى خارج المقهى، في زاوية زقاق جانبي، مهدداً إياه بأنه إن لم يكف عن تعليقاته وضحكه سوف يقتله، وأقسم على ذلك. فذكّره ظاهر بأنه هو الآخر قد ضحك منه عندما بال في سرواله، وأهانه الضابط أمام الجميع ونعته بالتخاذل، وأنه أجبن من امرأة، وربما أن الله قد قطع أنفك عقوبة على سخريتك مني وأنا في أسوأ حال. عندها صمت الاثنان حتى هدآ وعادا إلى المقهى حيث أكملا احتساء شايهما متجاورين بلا كلام ثم انصرفا إلى المعسكر.

كان لابد لهما أن يتفقا على ما سوف يقولانه عند عودتهما إلى القرية، وكان أكثرهما حرصاً على هذا الأمر هو ظاهر، ففضيحة أن يبول الرجل في سرواله جبنًا أشد وطأة من فقد الأنف بسبب دملة وسط ظروف المعركة، لذا فكر طويلاً، على امتداد طريق العودة الصحراوي..

حتى تبلور الحل في ذهنه، وعند ثاني محطة استراحة صادفتهما سحب سهيل من ذراعه بعيداً إلى ظل شجرة وحيدة، لم ينتبه إلى نوعها، وقال:

- اسمع يا سهيل، علينا أن نتعاهد عهد رجال أبدي بأن يستر أحدنا الآخر، ويتكتم على سر صاحبه حتى الموت.

ورغم أن سهيل كاد يعلق ساخراً على ذِكر كلمة (رجال) في قول ظاهر، رابطاً إياها ببوله عند انفجار القنبلة، إلا أنه آثر التغاضي وسأل: كيف؟

- سنُخبر أهل القرية بأن شجاعتك قد كانت السبب الرئيسي في إنقاذ دمشق من السقوط بأيدي العدو.

ففاجأ القول سهيلاً حتى ابتعد خطوة، وقال:

- ماذا؟!.. ما هذا الهراء؟!.

ثم عقب:

- اسمع يا ظاهر، هذه هي المرة الثانية والأخيرة التي سأحذرك فيها من الاستهزاء بي وإلا فإنني، أقسم بالله العظيم، سوف أقتلك غيلة وألقي بجثتك العفنة في الصحراء.

لو كان الموقف في ظرف آخر لربما علق ظاهر على كلمة(عفنة) رابطاً إياها بتعفن أنف سهيل، لكنه كان في حال يحرص فيه على تهدئته وإفهامه ما فكر به:

- أوه.. لا يا سهيل، لحظة يا أخي، إنني أتكلم بشكل جاد، صدقني.

- كيف؟

- سنخبرهم بأن الضابط قد اختارك لشجاعتك ولصغر جسمك وخفته التي قد لا تنفجر بسببها الألغام فبعثك في مهمة استطلاع ليلية إلى مواضع الأعداء الأمامية والتنصت عليهم، وأنك فعلت ذلك ببراعة، فتسللت واسترقت السمع إلى جاسوس سوري، كان يشرح لجنرال

إسرائيلي بأنه عن طريق دروب سرية وضعيفة التحصينات يمكن العبور إلى دمشق بأقل الخسائر ومفاجأة الجيوش العربية من الخلف، ولأنك لم تحتمل خيانة هذا الجاسوس، لم تتمالك نفسك وأطلقت عليه النار وقتلته، وأثناء فرارك، لاحقوك برصاصهم فأطارت إحدى الرصاصات أنفك.

– مممممم لا.. لا.. لندع مسألة القتل هذه، ولنبحث عن صيغة أخرى.

– ها.. يمكننا أن نقول مثلاً بأن حراسهم قد اكتشفوا وجودك، فاشتبكت معهم بالسلاح الأبيض في الظلمة، وأطاحت حربة أحدهم بأنفك، ولكنك تمكنت من الإفلات من قبضتهم والعودة، مما جعلهم يدركون أن خطة التسلل إلى دمشق لم تعد ممكنة، وأن العرب سيعززون تحصيناتهم في الدروب المشار إليها.

– لا.. لا.. من سيصدق حكاية كهذه!.. وبأي وجه أو ضمير سندعي لأنفسنا بطولات زائفة بعد أن رأينا بأعيننا رجالاً آخرين قاتلوا كالأسود واستشهدوا ببطولة حقيقية!؟.. ثم إن الناس على معرفة بالأخبار من الإذاعات حتماً.

– اسمعني.. الذي يهمنا نحن، هم أهل قريتنا، وأني على يقين من أنهم سوف يصدقون الحكاية.. دع هذا الأمر عليّ وسوف ترى، بل وسنقول لهم أيضاً بأن السوريين صاروا يطلقون عليك لقب الدمشقي كنوع من الشكر والعرفان والتكريم لك بحمل اسم المدينة التي كان لك الفضل في إنقاذها.

– أو تظن أن ذلك سينطلي عليهم؟

– بالتأكيد، ثق بي وسوف ترى، ثم إن سألنا أحدهم عن أسباب عدم سماعهم لشيء كهذا في الراديو.. سنقول لهم بأن مثل هكذا أمور حساسة وأسرار عسكرية وسياسية لا يتم الإعلان عنها. ولن نكتفي

بذلك، بل سنضيف بأن محافظ دمشق قد طلب مقابلتك وأقام لك حفلاً تكريمياً فخما، وعرض عليك البيت الذي تشاء في دمشق سكناً لك، ومنحك الجنسية السورية والبنت التي تشاء لتكون زوجة لك، لكنك رفضت كل ذلك بتواضع قائلاً بأنك كنت تؤدي واجبك، وبأنك ستكتفي بقبول لقب (الدمشقي) تكريماً لك وذكرى شرف، وبأنك تفضل العيش في قريتك وبين أهلها الذين هم أهلك.

- أوه يا عفريت، من أين لك كل هذه الأفكار الجهنمية!.. ها، نعم، نعم ولكن لنحذف مسألة البيت والزوجة هذه.

- لا يا سهيل، إن إضافتها ستعزز من مكانتك في عيون أهل القرية ونسائها، حين يعلمون بأنك فضلت بيتاً طينياً بينهم على قصر في دمشق، وبأنك فضلت لنفسك التزوج من إحدى بنات قريتك على أجمل جميلات الشام. صدقني، فأنا أعرف ما أقول. ثق بي يا أخي.

- وماذا سنقول عنك؟

- عني سنقول، وأنت طبعاً عليك الجزء الأكبر منه، هو أنني كنت أشعل حماس الجنود بخطبي وأول مَن يُطلق صيحة (الله أكبر) إعلاناً لبدء كل هجوم، وكنت في طليعة المهاجمين حاملاً بيدي راية العراق أو فلسطين.. ماذا ترى أنت؟

- لا.. لا، لنحذف مسألة الراية هذه ونكتفي بالباقي.

- حسناً... اتفقنا؟

- نعم اتفقنا.

تصافحا وتعانقا، لكن ذلك لم يكفِ ظاهرَ ضمانٍ، فقال:

- تعال نُقيم بالقرآن على ما تعاهدنا عليه.

- ولكن ليس لدينا قرآن هنا!

أخرج ظاهر من جيبه ورقة وقلم وكتب سورة "الإخلاص" ثلاث مرات، وقال:

- إنها تعادل ثلث القرآن، لذا فتكرارها ثلاث مرات يعادل القرآن.. ضع يدك عليها واقسم.

فوضع سهيل يده وأقسم، ثم تبعه ظاهر بالقَسم.. وظلا طوال طريق العودة وفي معسكرهما في الموصل لثلاثة أيام كانا يراجعان التفاصيل ويعدلان فيها ويحبكانها جيداً ويتدربان على حفظها وتكرار رويها تباعاً حتى صارا يشعران بأنهما يوشكان على تصديقها هما نفساهما، بحيث أصبحت وكأنها جزء حقيقي من ذاكرتهما.

- 3 -

إبراهيم وقسمته

ترددت قسمة طويلاً، تُقدم خطوة وتتراجع خطوتين، لكنها، في النهاية، حسمت الأمر وقررت أن تذهب إلى بيت عبدالله كافكا، فهو الوحيد الذي بإمكانه مساعدتها على تنفيذ نيتها بالبحث عن جثة أبيها لأنه أقرب أصدقائه إليه، وله وحده أباح والدها بسر تلك الأيام التي كان كل شيء فيها يؤدي إلى الإعدام. تذكُر ما قاله لها ذات مرة: طارق وعبدالله هم أعز أصدقائي، وأُحب عبدالله أكثر.

ثم إنه بلا عائلة أو عمل يعيقانه.. وبلا مخاوف حتى من الموت نفسه. هكذا كانت تعزز قناعتها بصواب قرارها بالذهاب إليه، وعلى الرغم مما قد تسببه رؤية دخول شابة أرملة إلى بيت رجل أعزب في أقصى القرية من شكوك وإشاعات ثم فضيحة، إلا أنها لم ترد أن تطرح عليه الأمر أمام الناس وهم الذين أبعدوها يوم الدفن عنوة وعنّفوا أميرة السمينة معها. وبما أن عبدالله يجلس في المقهى أغلب الوقت، من أول فتحه صباحاً، وحتى إغلاقه بعد منتصف الليل، فليس أمامها خيارٌ آخر سوى التوجه إليه فجراً. لم يكن سهلاً عليها اتخاذ قرار مُغامر كهذا، ولكنه ليس الأول من نوعه في حياتها على أية حال.

أمضت ليالي مريرة بنوم متقطع، يتناوب عليها الدمع المسكوب حزناً على والدها وتقليب التفكير بالذي تود فعله وعزمت عليه. لا تدري لماذا حملت معها طفلها الغاطس في نومه. تضجر لكنه واصل نومه وهي تسند رأسه على كتفها كأنها تدفع بطرف شالها. ربما خطر لها أن اصطحابه سيزيح الشكوك فيما لو صادف وأن رآها أحد، أو

أرادت الاحتماء به على نحو ما، أو ربما فكرت بأن عبدالله سيتعاطف أكثر حين يرى النائم الصغير، وإن كانت تعرف سخطه من اسم الطفل الذي أراد له والده البغدادي أن يحمل اسم الرئيس إعجاباً به، حينها وكنوع من الحماية وإبعاد أي شك في ولائه للقائد.. أو ربما اختاره تزلفاً لمترئسيه وطريقة وصولية مارسها الكثيرون غيره، فكيف به وهو الضابط الذي كان محباً، بالفعل، لهويته العسكرية، مخلصاً عن قناعة لقادته من الجنرالات وللحكومة، معجباً بشخص الرئيس، حالماً به وعنه وله، وبأن يكون، هو نفسه، ذات يوم، رئيساً بيده كل هذه السلطات!.

تُرى هل سيوافق عبدالله على مرافقتها إلى بغداد المشتعلة، للبحث عن جثة وسط آلاف الجثث، وهو الذي لم يحرك ساكناً عن مقعده في المقهى كي يحضر الدفن!؟ تُرى هل سيحدثها عما تريد معرفته أكثر عن أبيها وهو الصامت أغلب الوقت؟ كانت تقلب هذين السؤالين في رأسها وتتقلب في الفراش، مستعيدة كل ما تذكره عن والدها، يوخزها شعور بالذنب لأنها خالفته وفارقته أعواماً وهي ابنته الوحيدة، كما يدفعها التحدي كي تثبت للآخرين أن البنت، أيضاً، يمكنها حمل اسم أبيها بجدارة وتدافع عن ذكراه، وأن ليس الولد الذَكر هو فقط من يحمل اسم أبيه ويواصل نسله كما يظنون ويقولون:" إن الذي ينجب بنات فقط، كأنه لم ينجب أبدًا". وهي تدرك الآن، أكثر من أي وقت مضى، مقدار ما عاناه والدها إبراهيم من أجل والديه وأخوته ومن أجلها هي وبسببها، وخاصة أنها الآن أم وأرملة، مثله حين كان أباً وأرمَلَ رافضاً الزواج بعد وفاة أمها، وجنبها وجود زوجة أب تزعجها ومن أجل السر أيضاً.. كان يود أن يحدثها عن كل شيء، لكن نزقها الشاب، وتوقها لتكون لها حياة أخرى كآخرين وانشغالها الأناني بذاتها وحسب، كان يحول بين سَمعها وحافظة الذاكرة. بقصد أو بدونه، لم تكن راغبة بسماع تفاصيل ما يحكيه عن حياته، لا تريد لذاكرتها أن

تكـون مسـتودعاً جديـداً لمحتـوى ذاكرته، بل وكانـت تتمنى لو أنها بلا ذاكـرة وخاصـة أعـوام تواجدهـا ودراسـتها وزواجهـا في بغـداد. كانت تـود إلغـاء ذاكـرة طفولتها في هذه القرية وتناسـي حقيقـة قروية والديها وبسـاطتهما وفقرهمـا. فيمـا لـم يكن له هو من عزاء آخر سـوى التمني بأن يحكي لها هي، فهي ابنته الوحيدة، هي امتداد لذاكرته وذكراه وإلا سـوف يزول كل هذا، الذي هو، إلى العدم والنسـيان، ولا شـيء يخيف ابن آدم أكثر من ذلك. كان يحلم باستثمار أية فرصة ليقص عليها، ويعيد القص ويفصل أحيانا، ويبكي أو يضحك أخرى كأنه يعيشها. هذا التوق الصـادق فـي عينيـه قـد ترك عنوة في ذاكرتهـا جزءً من ذاكرته، وإن كان على شـكل صور متناثرة. راحت، مع مسـحة من شـعور بالندم، تحاول، بعد موته، أن تعيد تجميعها، أن تستعيدها وتستمع إليها من ذاكرتها هي هـذه المـرة، وتقصهـا على نفسـها. تدرك أن ثمة الكثيـر من الثغرات لا تزال بحاجة لملئها من آخرين، كي تكون سـيرة وصورة أبيها ومعرفتها له كاملة أو على الأقل بأكبر قدر ممكن.

وفـي أعماقهـا أيضـاً، قـررت أن تحـدث ابنهـا، حيـن يكبـر، عـن جـده. إنهـا تـراه الآن بطـلاً، وإن لم يعـد للبطولة من وجه في هذا البلد الذي تشـابكت فيه البطولات بالخيانات، الإنسـاني بالوحشـي، التضحية بالاسـتغلال.. واختلط كل شـيء وسـط دخان المعارك والفوضى والدم والخراب. البطولة الحقيقية تكمن في نكران الذات، وهذا جل ما فعله والدهـا إبراهيـم طـوال حياتـه بصبر واستسـلام عجيبين كانـت تمقتهما بحيث أنها بحثت عن النقيض له في الشخصية تماماً ليكون زوجاً لها، إلا أنهـا الآن، وقـد بلغـت منتصف العشـرينات مـن عمرها وصارت أماً وأرملة وعادت إلى القرية، أخذت تعيد فهمها للأشياء بشكل آخر وتقول لجارتهـا أميـرة؛ إن الحيـاة بصدماتها تعلم الواحد منا كيف يعرف معنى الحياة أفضل.

مـا أن أنهـى إبراهيـم المدرسـة الابتدائية حتى أنهى والده دراسته والحلم بها إلى الأبد. لا ينسى ذلك الصباح، لم يكن حينها قد تجاوز الخامسة عشـرة من عمره. بعد تسـليم الشـهادات في سـاحة المدرسة وسط تصفيق البعض وبكاء البعض الآخر، عانق صاحبيه طارق وعبدالله فرحاً بنجاح الثلاثة ثم انطلق راكضاً إلى البيت كي يُري شـهادته لأبيه، أو بالأحـرى كـي يبشـره بنجاحـه لأن والـده لا يعـرف القـراءة والكتابة وسيحدق، كالعادة، في الورقة بلا فهم، باحثاً عن خطوط حمراء تحت أرقام قيل له إنها تعني العلامات الراسبة، ثم سيشـير بإصبعه إلى اسـمه قائلاً: هذا اسـمي.. أليس كذلك؟ فهو يعرف حفظاً شـكل كتابة اسـمه منذ أيام العسكرية، يعرفه رسماً ويكتبه رسماً دون أن يفقه الحروف أو منطقها.. شيء شبيه بمن يعرف كتابة اسمه باللغة الصينية وهو لا يعرف مِن أو عن الصينية شيئاً.

قال له: مبروك يا بني. وأعاد الشـهادة إليه مُعقباً: اجلس.. ها قد أصبحت رجلاً وعلينا أن نتحدث كما يتحدث رجل لرجل.

جلـس إبراهيـم أمـام والده مرتبكاً بفعل نبرة الأب التي أحس فيها مزيجـاً مـن التوقيـر وعاطفـة جادة لم يعهدها فيه. تنحنح الأب وأشـعل سيجارة من عقب السابقة، نفث دخانها من ثقبيه المنخرين إلى الأعلى وقال: اسمع يا إبراهيم، ها أنت قد تعلمت القراءة والكتابة، وهذا يكفي، لتترك الدراسة إذاً وتبدأ الحياة العملية، أنا بحاجة إليك، فكما تعلم، أن أعباء إعالة العائلة كبيرة على كاهلي وحدي، وأنت أكبر أخوتك، عليك أن تسـاعدني، زراعة الحقل ورعاية دوابنا أكبر من طاقتي لذا أحتاجك معي، كما أن علينا التفكير بتزويجك في الموسم القادم أو الذي بعده، أريد أن أرى أولادك أيضاً، مثل بقية الناس، قبل أن أموت.

لـم يقـل إبراهيم شـيئاً، فقال له أبوه: مـاذا تقول؟. لم يقل إبراهيم شـيئاً واكتفـى بطأطـأة الـرأس وهزه علامـة الموافقـة أو بالأصح علامة

الطاعة. ثم انصرف بغير الحال الذي جاء عليه، بطيئاً كأنه يسحل قدميه سحلاً، خرج من البيت، من الباحة، من القرية.. واتجه إلى سفح التل المطل على (وادي الضباع). كان يبحث عن صديقيه حيث اعتادوا الجلوس هناك، فوجد عبدالله وحيداً وهو يحاول ثقب حصاة صغيرة ناصعة البياض كي يصنع منها قلادة يهديها لحبيبة المستقبل، كما قال. جلس جواره دون كلمة. أحس عبدالله بثقل صمته هذه المرة، فحاول كسر صمته بأن أراه الحصاة قائلاً: أحاول أن أبردها من هنا قليلاً لكي يصبح شكلها شبيهاً بالقلب.. ما رأيك؟

- أبي يريدني أن أترك الدراسة.

- وماذا قلت له؟

- لا أستطيع رفض إرادته.

- وليكن.

- لكنني كنت أتمنى لو أواصل دراستي حتى النهاية، ثم أنت وطارق ستكونان في المدرسة بينما أنا في الحقل أو مع الدواب. لا أحب الافتراق عنكما.

- لا تهتم.. أنا سأتركها معك أيضاً.

- ماذا؟!.. ووالديك؟!

- إنهما لن يرفضا لي طلباً.

حين أخبرا طارق بالأمر أراد هو الآخر ترك الدراسة ليكون معهما لكن والده رفض، مما جعل دراسته لاحقاً شكلية، حيث صار يغش في الامتحانات ويتهرب من الدروس ليكون بصحبتهما، باحثاً عنهما في المراعي مع الماشية أو في الحقول يتشاركون بأكل بطيخة باردة على حافة ساقية ويثرثرون.

كانت رؤيته لهما وهما يحملان الفؤوس والمناجل أو المسحاة، يعصبان رأسيهما باليشامغ، أطراف دشاديشهم مغروسة في الأحزمة

الجلدية العريضة كاشفة عن سيقان قوية تغوص في الطين والسجائر في زوايا شفاههم، يمارسان ما يمارسه الرجال. كل ذلك يثير في نفسه الغيرة، لذا كان يكثر من حديثه عن النساء ومغامراته مع البنات كنوع من التوازن الذي يعبر فيه عن رجولته مقابل مظهرهما الرجولي، وكان يغريهما أحياناً لإجراء مسابقات في القذف. يختفون في الدغل متقابلين، فاتحين سيقانهم، بعضهم مقابل بعض على شكل دائرة، كاشفين عن أعضائهم الذكورية أو عصافيرهم كما يسمونها.. و.. واحد اثنان ثلاثة. يشرعون بهزها حتى يرون سائل أحدهما يتدفق فيكون الفائز بالسباق، وعادة ما كان طارق هو الأسرع لكنه يحسدهما في سريرته على حجوم عضويهما وخاصة عضو عبدالله فهو الأكبر والأشد سواداً من سمرته وهو أول من نبتت له شعيرات في عانته، سابقاً إياهما نحو علامات الرجولة.

بالطبع لم تدم تلك المسابقات وقتاً طويلاً لأنهم كانوا يكبرون وصداقتهم تكبر مع الاهتمامات والهموم الجديدة، لذا عندما كانوا يذكرون طارق بأحاديثه عن علاقته بفهدة البدوية التي كان يتبجح بحبها عليهما واصفاً لهما نهديها الضخمين وهما يتحركان بحرية تحت ثوبها كأرنبين أو حين يحضنها ويسند رأسه على لدانتهما، أو يمد إليهما كفه من أعلى فتحة صدر الثوب، وما أن تلامس أصابعه حلمتيها المتصبتين حتى تغمض عينيها وتشهق.. صار يعترف بأن لها رائحة النعاج، ويقول: كأنك تحتضن نعجة يا أخي. ويضحكون.

وما أن بلغوا الثامنة عشرة من العمر حتى تم سَوق عبدالله كافكا وإبراهيم قسمة لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية فيما حمت صفة "طالب" طارق المندهش من هذا السَوق، فشعر بالوحدة والفراغ في غيابهما مما جعله يلجأ لملء وقته بالمزيد من قراءة الكتب غير المدرسية ويبحث عن ذاته في الأدب والأفكار والإيديولوجيات، متنقلاً

من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين. شيوعية، اشتراكية، وجودية، عدمية، سريالية، تصوف وأصولية. فيما عبدالله وإبراهيم لم يفترقا، حيث كان ذهابهما لمعسكر "الغزلاني" في الموصل هو أول سفر إلى مدينة، وكان التدريب العسكري الشاق بالنسبة لهما مجرد لعب ورياضة ومعرفة أناس جدد وأماكن جديدة وأنظمة وأطعمة مختلفة.. كلها بالنسبة لهما متعة واكتشاف حر بعيداً عن عيون الأهل والقرية وتقاليدها التي لا جديد فيها عادة. كانا يقفان متجاورين دائماً في كل التدريبات وينامان في خيمة واحدة، وفي المساءات يخرجان معاً من المعسكر للتجوال أربع ساعات في أسواق نينوى التي أحباها، وبعد ستة أشهر من التدريب تم تسجيلهما في صنف واحد هو صنف المشاة ونُقلا معاً إلى وحدة عسكرية في الجنوب، إلى الحلة، فعرفا هناك ما تبقى من آثار بابل وأنواع جديدة من التمر والغناء والرقص والحياة، ثم نقلا إلى البصرة في حماية ميناء "أم قصر" فشاهدا البحر لأول مرة.. وهكذا فإن تنقلهما العسكري من الشمال إلى الجنوب وعودتهما إلى القرية، في إجازاتهما الشهرية، ومرورهما بالعديد من المدن والقرى، وتوقفهما في بغداد لليلة يبيتان فيها في أحد الفنادق الرخيصة في "ساحة الشهداء" أو "الميدان".. جعلتهما يعرفان، على نحو أفضل، الوطن العراق الذي كانا لا يعرفان عنه شيئاً أكثر من المعلومات والخرائط والصور والأناشيد في الكتب المدرسية، فكانا في الإجازات يحدثان طارق عما رأياه وعرفاه، وهو بدوره يحدثهما عما عرفه من الكتب التي قرأها، ويعطيهما عناوين كتب جديدة ليجلبوها له عند مرورهما بمكتبات المدن، كما ينصحهما بقراءة كتاب أعجبه أو رواية مسلية في الطريق وفي ليالي المعسكرات وساعات الحراسة الطويلة. ومثلما كانت كل حركة لهما هي اكتشاف جديد فقد كانت كل قراءة إضافية له بمثابة رحلة في عالم مغاير، ومنها يوم اعتبر تعرفه على كتب كافكا اكتشافاً، وجاءت تسميته لعبدالله بهذا

اللقب حين كان في ذروة هوسه بكل ما هو كافكوي. آنذاك. حدثهما عنه وعن عمق الكآبة في رواياته وعن إشكاليته مع أبيه فازداد قبول عبدالله لهذه التسمية بعد أن شعر بتوافقها مع نفسه.. وخاصة فيما يتعلق بإشكالية مجهولية الأبوين.

كانت الإجازات الشهرية هي علاقتهما في القرية، وبعد عام ونصف من عسكريتهما، وجد إبراهيم، أثناء إحدى إجازاته، أن أهله قد اختاروا له عروساً لم يكن يعرفها جيداً. فتاة من أقرباء أمه، إحدى بنات أبناء عمومتها، اقترحتها أمه وأقرها والده، لأنها ستكون مطيعة للأم العمياء كونها من أقاربها. ستعينها في أعباء شؤون البيت. وكعادته؛ لم يعترض إبراهيم. طلب إجازة الزواج، التي كانت أربعين يوماً، وتزوج. خصص والداه له ولزوجته أحسن وأكبر الغرف في البيت.

في تلك الفترة توفي صالح، والد عبدالله بالتبني، إثر سكتة قلبية.. وبعدها بعشرين يوماً بالضبط، ماتت مريم حزناً عليه فكان موتهما أقسى كارثة في حياة عبدالله مما أثرى الحزن والكآبة والتشاؤم في داخله وصارت بذرة المقت للقدر والاستسلام لعبثيته في الوقت نفسه تنمو في دواخله أكثر. وجد نفسه وحيداً في البيت فجأة ولا معنى لعوداته في الإجازات، وخاصة أن إبراهيم صار يمضي إجازاته مع زوجته، وهنا كان الفضل لطارق باستضافته في بيته. يُسكنه غرفته، وسط عائلته، حيث عرف سميحة، أخت طارق، وشعر بالحب نحوها من أول قدح شاي قدمته له. كانا يسترقان النظر إلى بعضهما وتقول عيونهما الكثير دون أن يقول لسانيهما شيئاً، فأخافه الأمر في بدايته كونها أخت طارق، صديقه الواثق به والذي استضافه في بيته، لذا حرص على ألا يبوح لها بشيء وأن يتمالك انفعالاته وعواطفه كي لا تظهر على ملامحه أية إشارة تفضح هذا الذي يعتلج في قلبه.

كانت وجنتا سميحة تتوردان كلما جاء إليهم في إجازة. تزداد

اهتماماً بتصفيف شعرها، طلي أظافرها، أناقة ملابسها.. وتبدو أنشط في الحركة وأكثر سرحاناً فيما الابتسامة ثابتة على وجهها. تستيقظ مبكراً وتنتظر صحو طارق وعبدالله لتعد لهما الإفطار بنفسها. كانت أجرأ من عبدالله وأشد حرصاً على كثرة رؤيته. تختلق المصادفات التي يلامس فيها كتفها كتفه أحياناً، لكن سلوكها هذا كان يربك عبدالله كثيراً ويحرج أخلاقياته فيزيد من صمته وإسرافه بالتدخين، مع ذلك كان يشعر وكأنه أحد أفراد العائلة. يشاركهم في كل شيء ويبقى حتى ساعة متأخرة من الليل يتجاذب أطراف الحديث مع طارق، حتى إذا نام ظل هو يقرأ في كتبه، وبين صفحة وأخرى يحدق في النجوم من النافذة، مفكراً بسميحة التي كان يستشعر حتى أنفاسها وهي ترقد في الغرفة المجاورة. يعرف وقع خطواتها المتنقلة بين الصالون والمطبخ.. بل يكاد يشم عطرها، يسمع حفيف ثوبها، يحس بنبض قلبها ويستشعر انسكاب شعرها على الوسادة. يتخيل نظراتها التي تبحث عنه في موسم جني القطن. كانت سميحة لا تفوت أية فرصة تقربها إليه وتتلامس فيها أصابعهما حين يسكبان زنبيليهما في الأكياس. تحسب الوقت بدقة كي يتصادف ذهابهما معاً لتفريغ الزنابيل، وحين يكونان لوحدهما، تمد يدها مباشرة. تقبض على كفه بحنان يقبض قلبه ويهز كيانه فيستسلم ليدها فيما عيناه تحتضنانها بقوة. ينظر إلى عينيها بعمق وعذوبة وعذاب.. كأن عيناه طائران يوشكان على الانفلات من وجهه/ عشهما والانطلاق بالتحليق في وجهها/ الفضاء/ الأفق/ الجنة.. يكاد احتباس الكلام في صدره يبكيه، وهي تفهم كل ذلك، تقرأه وتسمعه وتحبه أكثر وأكثر. فقالت له دون أن تسمع منه شيئاً:

- وأنا أيضاً.

فتمتم مرتبكاً، وهو يتأكد من بعدهما وانشغال الآخرين:

- وأنا.. جداً، جداً.. ولكن..

- نتزوج.

فشهق:

- أوه، نعم، نعم أتمنى ذلك، ولكن لنؤجل الأمر سنة، حيث ستنتهي خدمتي العسكرية.. عندها لن أضطر لمفارقتكِ أبداً.

هكذا صارحا بعضهما بالحب وهكذا قررا في أول حوار لهما. بعدها صار لحياته معنى، وهو لا يكف عن الحلم والتفكير بسميحة ولو للحظة واحدة. لم يخبرا أحداً بحبهما وأخذا يتواعدان سراً كي يشم عطرها، يروي عينيه بالنظر في عينيها ويحتضن خصرها البالغ النحافة. كان يخشى أن تتكسر بين ذراعيه وهو يشدها إليه بقوة كأنه يُريد إدخالها في صدره. وفجأة قرر العودة إلى بيته، فلم تعد وحدته عزلة فعلية ما دام لا يكف عن التفكير بها، بل أنه صار يلوذ بالمزيد من هذه العزلة اللذيذة ليفكر بها أكثر ويستطعم التفاصيل من ذكرياته القليلة معها.

أهداها قلادة الحصاة البيضاء التي ثقبها ونحتها بيده على شكل قلب. حفر بالنار أول حرف من اسمها على جهة وعلى الجهة الأخرى الحرف الأول من اسمه، ففرحت بها وكأنها جوهرة حقيقية، وقالت: سأحتفظ بها كي أرتديها في يوم عرسنا مع الثوب الأبيض. قال: عندها يجب أن أهديك ذهباً كما يفعل الجميع. قالت: هذه بالنسبة لي، أثمن من الذهب وستكون عندي دائماً أجمل هدية.

جدد ترتيب البيت في إجازاته، بعد أن كان قد أهمله وهجره تقريباً منذ موت والديه. أصلح ما تخلع من الأبواب والخزانات والشبابيك. غير الستائر والبسط والوسائد وأواني الطبخ.. متخيلاً إياها تؤنس وحدته وتضفي على المكان بهجة، كيف ستجلس هنا، كيف تقف أو تمشي هناك، ستمسك هذا وتمس ذاك. فكر بأن طلبه للزواج منها وهو يعيش خارج بيت أهلها سيكون أفضل مما لو كان يعيش معهم، لذا أراد للمسافة الزمنية لعودته أن تكون أطول قبل إقدامه على خطبتها.

كانت زوجة المختار، السيدة زينب، دائمة التردد على بيته في مساءات إجازاته منذ موت والديه، حاملة إليه أرغفة خبز ومما تطبخه من لحم ورز ومرق وملفوف، وتعينه في خياطة بعض ما تفتق من زوايا الوسائد أو أزرار ملابسه التي تصر على غسلها له. كانت تخاطبه بحنان فائق قائلة: يا بني. بحيث كان يستشعر ذلك في أعماقه فعلاً لفرط صدقها عند نطقها ورعايتها له كأم.

الجميع يعرف كَرم هذه السيدة وطيبتها. إنها الوحيدة من كل زيجات المختار التي بقيت معه، احتملته وأنجبت له كل أبنائه. تزوجها صغيرة وفقيرة من إحدى القرى الكردية، وفي أعوامها الأولى لم تكن تعرف من العربية شيئاً فكان يتحدث معها بالكردية التي يجيدها بحكم قِدم علاقاته وتجارته مع الأكراد التي ورثها عن أبيه. تعلمت زينب العربية، لهجة أهل القرية بوقت قليل وسرعان ما صارت واحدة منهم. ولم يكن مُستَغرَباً أن ترعى عائلة المختار الناس المحتاجين، فهو الأغنى في القرية، حقوله أوسع وماشيته أكثر وتجارته لا تتوقف، فهو الذي يشتري محاصيل فلاحي القرية ويبيعها في المدن. يعمل في خدمته عدة أشخاص ومنهم إسماعيل الأبله الذي بنى المختار لأبويه اللاجئين بيتاً طينياً صغيراً صار إرثاً له ولشقيقته بعد موت والديهما. شيده جوار بيته بلا جدار حاجز، وعهد إلى إسماعيل برعي أغنامه وماعزه وأغنام من شاء من أهل القرية مقابل اتفاق لصالح إسماعيل. كان يعامل اليتيمين كأبنائه وإن كان يستثمرهما بالعمل أكثر من أولاده الذين يدللهم ولا يتعبهم في مهمة. المختار وصديق عمره الشيخ ظاهر، والد طارق، هما من تكفلا بتزويج شقيقة إسماعيل البلهاء إلى إحدى القرى البعيدة، كما يقول الناس، لذا فهو يحظى باحترام الجميع ويلجأ إليه المحتاج، وفي ديوان بيته تُحل مجمل خلافات أبناء القرية.

كانت السيدة زينب تحنو على عبدالله بشكل فائق وهو يعبر لها

عن امتنانه دائماً ويترك لديها مفتاح بيته عندما يذهب إلى العسكرية، كي تقوم بالاهتمام به ومراجعته في غيابه. وكانت تقول له، عليك أن تتزوج يا بني، فيرد عليها: سأفعل ذلك حالما أنتهي من الخدمة العسكرية، فتؤيده في القرار وتبدي استعدادها لمساعدته بكل ما سينقصه من مهر ومن تجهيزات العرس، وتؤكد:

- اختر من تشاء من بنات القرية وأنا كفيلة بخطبتها لك، مهما تكن وابنة كائن مَن كان.

فيقبل يدها شاكراً ويقول: أقبَل هذا الوعد يا أُم جلال.

ما لم يكن في الحسبان.. هو أن تندلع الحرب بين العراق وإيران سنة 1980، وأن تستمر لثمانية أعوام، فتعصف بالكثير من الأحلام والمصائر..

- 4 -

حرب وحب وحرب

كانا يحسبان الأيام القلائل المتبقية على انتهاء خدمتهما العسكرية، يعدانها كل يوم حاذفين الذي هم فيه من أول طلوعه، وكل منهما يحدث صاحبه عن غبطة الحرية التي سينعمان بها في القرية والمشاريع القادمة وعن الأبناء الذين سينجبهم. تعاهدا أن يسمي كل منهما ابنه البكر باسم صاحبه، ويعقبان: الاسم الأول بالطبع فقط. يعني (عبدالله) وليس (عبدالله كافكا) و(إبراهيم) وليس (إبراهيم قسمة) ويضحكان. يحتسيان الشاي، فيما سيقانهم تتدلى من أعلى برج الحراسة في الميناء البصري وهما ينظران إلى السفن البعيدة في البحر متناسين أسلحتهم على أكتافهم ومنظار المراقبة، ينعشهم نسيم أيلول والشاي المهيّل والأحلام.

كانت تلك آخر جلساتهما المرتاحة الآمنة، فسرعان ما ضج الميناء والمعسكر والبلد بالإنذار والصخب.. لقد أعلنت الحرب ضد إيران وبدل تسريح مواليدهم تم استدعاء مواليد أخرى أكبر منهم وأصغر. استعادا حينها تلك الذكريات الضبابية البعيدة من طفولتهما عما كانا يسمعان الكبار يسمونه "حرب الشمال" التي وقعت في منتصف السبعينيات حيث ثار الأكراد على حكومة بغداد، وكان شيوخ القرية يسألون البدوي جدعان عما شهده منها بحكم تجواله، فيروي لهم حكايات مشحونة بالشقاء والضيم والتشريد والموت، فيما لم يبق في ذاكرة صغار القرية عن تلك الحرب سوى مشهد أول قتيل رأوه في حياتهم. جثة العريف نواف ممددة في باحة المسجد، حيث صلى عليها

الكبـار ثـم حملوهـا للمقبرة مشـيًا، ودفنوها دون تغيير ثيابها العسـكرية الملطخة بالطين والدم.. وعادوا صامتين.

كانـا مثـل الجميـع، يتوقعـان ويأمـلان أن تتوقـف الحـرب في أية لحظة، بعد ساعات، اليوم أو غداً ويستبشران بخبر أية وساطة يسمعانه في المذياع، ثم صارا يأملان توقفها بالأسـابيع، ثم بالأشـهر.. ثم مرت سنة، نقلهما مصيرهما العسكري أثناءها إلى أكثر من قاطع قتال ومعركة، اعتـرف خلالهـا عبدالله لإبراهيـم بحبه لسـميحة فـكان الأول والوحيد الـذي أخبـره بذلـك خشـية أن يمـوت دون أن يبـوح بـكل هذا الشـوق الذي يعصف بصدره. حدثه عنها بشـغف وتلذذ ولوعة.. كأنه يكتشـفها أو يكتشـف نفسـه، وعن تعاهدهما السـابق في الزواج حال تسـريحه من الخدمـة العسـكرية: لكنهـا الحرب يا صديقـي.. إنها الحرب اللعينة كما ترى. فنصحه إبراهيم بالزواج الآن، وألا يعول على انتهاء الحرب، فهي قـد لا تنتهـي أبـداً.. أو قد تموت قبـل نهايتها، ها أنا أنتظر مولوداً، كما تعلم، فإن مُت أكون قد تركت لي ذرية على الأقل.

كان يقصـد ابنتـه (قسـمة) التي ولدت بعـد مرور العام الأول على الحـرب، ولـم يرهـا إلا بعد شـهرين على ولادتهـا، لأن المعارك حالت دون أخذ إجازته الدورية ففاجأه، حين عاد، أن يجد طفلة تبتسم بوجهه، وضعوها بين ذراعيه قائلين: هذه ابنتك، وهي لا تزال بلا اسم. نناديها (الطفلة) بانتظار أن تسـميها أنت. قال: قسمة. لم ينتبه فيما لو كان يكرر تعبيره الدائم وحَسْـبُ أمْ أنه يسـميها، لكنهم تلقفوا الكلمة على عجل واعتبروها الاسم حتى دون الانتظار للتأكد من قصد نطقه. وكانت تسـمية موفقة، فعدا تطابق المدلول مع طبيعة رؤيته للحياة وسـلوكه فيها، أنها حوّلت التسـمية التي عُرف بها دعابة منذ الصِّبا إلى حقيقة، واقعية وجادة تلغي كل الإحالات التهكمية السابقة، فصاروا يكنونه بـ(أبو قسـمة) بعد أن كانوا ينادونه بـ(إبراهيم قسـمة).

أمـا عـن عبدالله، فقـد كان لصدمـة رفض والد سـميحة تزويجها إياه وقـع الحـرب نفـسها علـى روحـه.. مفاجأة مـا كان ليتوقعهـا أبدًا. قنبلـة وقعـت علـى بيـدر أحلامه فأحرقته، عندها لجأ إلى السـيدة زينب لنجدتـه، كمـا وعدت، فطمأنته أنها سـتأخذ الأمـر على عاتقها. تحدثت مع سـميحة سـراً كي تتأكد من موافقتها فوجدت أن عشـقها لعبدالله لا يقل عن عشقه لها وهي تنتظر لحظة الاقتران به منذ زمن. عندها كلمت زينـب زوجهـا المختـار، ومن ثم المختار وصاحبه ظاهر والد سـميحة، حين بقيا وحيدين في صالة الضيوف، كالعادة، بعد انصراف بقية حضور السهرة الجماعية.

قال ظاهر:

- لا أستطيع، وأنتما بالذات وحدكما تعرفان السبب.

قالت له زينب:

- ولكنه ابننا كما تعلم.

قال:

- لا يهم.. فهو ابن زنا على أية حال.

بكت زينـب وتوسـلت به بعد موجة غضب، واسـتعانت بالمختار لإقنـاع صاحبـه.. لكـن المختـار لم يلح كثيراً بالأمر، فهو يشـعر بتفهمه لموقـف صاحبـه وفـي قرارة نفسـه يتفق معه، وبأنه لـو كان مكانه لفعل الشيء نفسه. لن يزوج ابنته لابن حرام. وبتواطؤ فيما بينهما بالنظرات، وبغيـة تهدئـة غضب زينـب ونحيبها، قال في الختام أن: أمهلوني يومين لأفكر بالأمر.

وحين أبلغت عبدالله بهذا الجواب، فكر أن يدعم الموقف لصالحه أكثـر فتحـدث مـع صديقه طارق كي يحـاول التأثير على والده وإقناعه. مـا لـم يكـن يعرفـه عبدالله، ولا غيره، هـو أن طارق حين اختلى بوالده ليتحدث معه، حرضه على التمسـك بالرفض، بل رجى والده ألا يزوج

سـميحة لعبدالله أبداً، وحين سـأله الأب باسـتغراب عن السـبب، على الرغم من أن عبدالله صديقه الأقرب!. قال: بالضبط، لأنني أعرفه أكثر مـن أي شـخص آخـر، إنـه كئيب وكسـول لا يحب العمـل. صحيح أنه طيـب ولديـه البيـت والحقل اللذين ورثهما عن والديه بالتبني، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه بحيث نشعر بضمان مستقبل اختي وأبنائها معه، ثم إننـا مـن أصـل وعائلة معروفة فيما أصله مجهول.. وأنا وإن كنت أحب عبدالله كصديق فإنني أحب أختي أكثر.

ومـا إلـى ذلـك مـن مبررات أطال طارق في سـوقها على مسـامع والـده.. بينمـا الدافـع الحقيقي لموقفه آخر تماماً، سـبب نفسـي خاص، احتفـظ بـه لذاتـه كونه مخجلاً.. تافهاً لا يسـتطيع البـوح به لأحد، وهو بهـذا ليـس الوحيـد من أبناء آدم ممن يتخذون مواقفَ بمبررات يعلنونها فيما الدوافع الحقيقية في نفوسـهم مختلفة. شـيء يشبه الحروب، حيث تُعلن تحت يافطات مصاغة بمصطلحات عريضة مصبوغة بالأخلاقيات فيما أسبابها الحقيقية المخزية أخرى تماماً.

قالت زينب:

- لقد كسروا قلب الولَد.. كسر الله قلوبهم، هم أولاد الحرام.

وبكـت محاولـة إقنـاع عبداللـه باختيار غير سـميحة من يشـاء من البنات، لكنه طوى رأسه رافضاً ولاذ بكآبته وحزنه من جديد. ومما زاد من وحدته ووحشته هو أن أوامرَ عسكرية قد فرقت بينه وبين إبراهيم، كل في قاطع آخر من الجبهة، وحدة أخرى في فيلق آخر ومصير آخر. ودَّعا بعضهما بالبكاء متعانقين حتى أنّبهما الضابط، وأمرهما عن الكف: كفّا عن هذه الولولة النسوانية، أنتما رجلان.. كيف تبكيان هكذا! اخجلا من نفسيكما.. هيا انصرفا.. هيا.

وفي شـهر أيار/ مايو سـنة 1982 أسـرت إيران في معركة المحمرة آلاف الجنـود العراقيـن، كان أحدهـم عبدالله كافكا. بالطبع لا أحد في

القرية يعرف ذلك أو على يقين منه، كل ما في الأمر أن عبدالله قد تأخر عن إجازته الدورية أكثر من المعتاد، فيما إذاعة الحكومة لا تتحدث إلا عن انتصارات، وتلفازها لا يعرض سوى جثث قتلى العدو وأسراه وآلياته المُدمَّرة، ثم لا خبر ولا رسالة إلى ذويه، فعبدالله بلا أهل أصلاً.

توسلت السيدة زينب إلى إبراهيم أن يستقصي، وهو أصلاً كان عازماً على ذلك، فاضطر لقطع إحدى إجازاته والذهاب للبحث عن وحدة عبدالله العسكرية، هناك عرف بأن الوحدة كلها قد انتهت في معركة المحمرة، قتل منها من قتل وأسر منها من أسر ولا يعرفون تحديداً مصير كل جندي منهم، فقد تُركت الجثث هناك في أرض المعركة. لذا أعطوه ورقة تشير إلى تصنيف عبدالله بأنه (مفقود). أعطاها للسيدة زينب التي ظلت تؤكد على أن قلبها يحدثها بأن عبدالله حيّ لم يَمُت. وتوسلت بالمختار أن يستمع إلى إذاعة إيران سراً في آخر الليل، إلى برنامج خاص بالأسرى العراقيين، يقدمون فيه أنفسهم، وعبارةَ تحية إلى ذويهم، وعباراتٍ أطول منها في مدح الجمهورية الإسلامية. لم يسمعا صوت عبدالله، على الرغم من إصغائهما إلى مئات الحلقات المشوّشة من هذا البرنامج في مئات الليالي. وراحت السيدة زينب تزور العرّافات مغدقة عليهن العطايا كي يكشفن لها المجهول، فما سمعت عن عرافة ذات صيت في القرى إلا وذهبت إليها، فكن جميعاً يؤكدن لها أن عبدالله حيّ، بل ويزعمن رؤيته، قائلات: هو بلحية الآن، حزين، في سجن ناءٍ وظروف صعبة، لكن صحته جيدة وليس مصاباً بأي جرح.

ولم تكف زينب عن مراجعاتها لبيته وتنظيفه، وإن صارت زياراتها تتباعد كلما طال الزمن، ولكنها ظلت تبكي عليه في بيته، أو بيتها، أو تحت شجرة شوكة البحر في المقبرة.

أما سميحة فقد أجبرها أهلها على الزواج من أحد أبناء عمومتها، لا تحبه، مانعت دون جدوى، وهربت بعد أربعين يوماً من زواجها منه،

فضربوهـا، وأعادوهـا إليـه طريحـة الفراش، أنجبت منـه طفلة بعد عام، ثم هربت بعد الولادة بعشـرة أيام تاركة له طفلته، فضربوها، وأعادوها إليه محمولة بيطانية، إلا أنها سـرعان ما كررت الهربَ حالَ اسـتعادتها لصحتهـا، فضربوهـا، وهمّـوا بإعادتهـا، لكنهـم، وقبـل أن يفعلـوا ذلك بسويعات، تلقوا وفداً يحمل إليها طفلتها وورقة الطلاق. لم يعد زوجها متقبـلاً لفضيحـة أن زوجتـه تهـرب منه دائماً، لا يطيـق هذا الخزي أمام الناس. عندها تنهدت سميحة بارتياح، وبقيت في بيت أبيها، تربي ابنتها، راضيـة وتحتمـل كل فظاظات العائلـة بالتعامل معها. لكنها تفضل ذلك على معاشـرة زوج تعاف حتى أنفاسَـه حدَّ المقت. وبعد أن فشـلت كل محاولاتها، مع نفسـها، للاستسـلام لنصيبها ككثير من النسـاء، ونسـيان عبدالله، لا تستطيع نسيانه.

مـع الوقـت صـاروا يعتـادون علـى وجودهـا وطفلتها بينهـم، كما راحـت علاقتهـا بأخيهـا طارق تسـتعيد بعض مودتها السـابقة بالتدريج، فكانت تسـتل من مكتبته بعض الروايات الرومانسـية، إلا أنها لم تُكمل قراءة أي منها حتى النهاية.

وكان إبراهيـم يوصـي زوجتـه أن تؤانسـها، وتصاحبها، خاصة في سـنوات عزلتهـا الأولـى محاصَـرةً بتأنيـب أهلهـا واسـتغلالهم لها. كان يشـتري الثياب والهدايا لطفلتين أحياناً، ابنته قسـمة وابنة سـميحة، حيث يبعثهـا لهـا مـع زوجته خفية، ويدس بعض المعونة المالية. زوجته تقول بأن ابنة سـميحة تشبه أمها تماماً.. كأنها نسخة صغيرة منها في كل شيء يـا إبراهيـم. وكان يحز فـي نفـس إبراهيـم، الصابر المطيـع في الحرب والسـلم هو أنه لم ينجب سـوى قسـمة، مما دعا والده للإسـراع بتزويج بقيـة إخوتـه مبكـراً، فراحوا ينجبون له أحفاداً صار ينسـى أسـماءهم مع الوقـت لكثرتهـم، ولأنه شـاخ واسـتفحلت به الأمـراض وخرّبت صدره كثرة التدخين.

زوجة إبراهيم كانت تلجأ إلى العجائز بوصفاتهن الشعبية، طبية أو سحرية، كي تنجب، وإبراهيم يراجع الأطباء في المدن سراً، فأكدوا له جميعاً أن السبب منه، ثمة عامل ما أدى إلى عقمه أثناء الحرب التي استُخدِمت فيها مختلف الأسلحة؛ نفسية وكيميائية وجرثومية وقاذورات أخرى، وقد تنقل هو على امتداد الجبهة الطويلة طوال أعوامِ الحرب الثمانية شاهداً على موت المئات ممن عرفهم، وخرابِ المدن والإنسان والدواب والنبت وجنون النار والحديد. كان مستسلماً لقدره مطيعاً لأمريه من الضباط، لم يتغيب ولا حتى يومًا واحدًا، ولم يُقصر في أداء مهمة أوكلت إليه، ولطول الخدمة وحسن سلوكه وصل لأن يصبح برتبة رئيس عرفاء، خبيراً بالأسلحة والجوع والخوف والنزف والموت.. لكنه صار أخبر بالقدرة على التكيف والصبر والتحمل، بحيث إن الاستسلام لقدره بحد ذاته، كان يشحن روحه بطمأنينة وقوة عجيبتين.

بعد الذي أخبره به الأطباء، تذكر أحاديث الجنود في بعض الأمسيات عن إشاعات أو حالات عُقم بسبب أسلحة كيميائية، أو بسبب المرور من أمام النواظير الليلية للمراصد والدبابات والمدرعات، فهي تطلق أشعة لا ترى بالعين المجردة كانوا يسمونها فوق أو تحت البنفسجية.. لم يعد يذكر المصطلحات التي ذكروها بدقة. بالطبع، لم يخبر أحدا ولا حتى زوجته بكل ذلك ولا بمراجعاته للأطباء، وظل يرفض دعوة والده وإخوته له أن يتزوج بامرأة أخرى علّ النصيب والقسمة يحدثان، فكان يرد عليهم وهو يشير إلى ابنته: أنا لدي قسمتي وهي تكفيني.

حين انتهت الحرب العراقية الإيرانية سنة 1988 سُرِّح إبراهيم الذي خرج منها سالماً وبلا أي جرح في جسده، على الرغم من كل ما رآه وعاشه فيها من الأهوال، ولكنه بدا أكثر تعباً وشيباً، فمنح نفسه أول شهر من حريته إجازة، لا يفعل فيها شيئاً سوى الاغتسال والأكل والنوم. كان

يقول: أنا متسخ وجائع للنوم.. لدي نعاس متراكم على مدى أعوام.

لم يكن راغبا بالحديث عن تفاصيل الحرب.. كأنه يريد نسيانها، أو على الأقل عزلها عن حياته وركنها في مخزن ذاكرته، ولو إلى حين. مثل أي كابوس آخر.. لكنه كان يحدث زوجته، أحياناً، عن قصص الحب التي سمعها من الجنود، وخاصة حين يحثها على التواصل مع سميحة. هو لم يذق في حياته طعم الحب الذي يصفون، فحتى علاقته بزوجته، التي لم يعرفها إلا في ليلة عرسهما، هي علاقة تعايش، مودة ومعاشرة. شيء مختلف عن تلك اللوعة التي كان يراها في وجوه وأحاديث المحبين، فيشعر بأن هذا.. شأن كبير، يستحق التفهم، وعندما يُبصر عذاباتهم تراوده المسرة لأنه لم يعشق مثلهم، أما حين يتحدثون عن ذكريات صفاء ولقاء وتفاصيلَ سعيدة صغيرة تتحول في أرواحهم وتعابيرهم إلى أشياء كبيرة ومهمة ويصبح للقصائد والأغاني معنى هائل، في تلك اللحظات فقط، كان يتمنى لو أنه أحب يوماً مثلهم.. وبفضل قصص الجنود العاطفية، تمكن من استيعاب لوعة صديقه عبدالله أكثر.. ويتفهمها، مثلما يستشعر أوجاع سميحة وإن لم يتحدث معها. شهد بعض الجنود يبكون كلما أخرجوا صور حبيباتهم التي يخبئونها في محافظ النقود والبطاقات ويحدقون بها طويلاً. بعضهم أعانهم الحب على أن يكونوا شجعاناً حقيقيين، وأنْ ينجوا من مُهلكات الحرب، بعضهم قادهم الحب إلى الموت عمداً حين خانتهم حبيباتهم أو تخاصموا معهن، فقدوا أنفسهم حين فقدوهن، فكانوا يجدون في الحرب فرصة سهلة ومجانية للانتحار. ورأى منهم، بعد أن خبروا الأجواء والأسلحة، مَن يرفع ذراعه أو ساقه أمام مراصد العدو كي يطعنوها له برصاصة قناص أو يقطعوها بقذيفة فيتم تسريحه من الجيش، ومنهم مَن يُفتش بقدمه عن لغم يدوسه كي يبترها، فتراه يصرخ ألماً ويبتسم في الوقت نفسه.

ومن بين من عرفهم إبراهيم وتصادقا بحميمية، أحمد النجفي

الذي تنقل معه لأعوام في الجبهات والخنادق، وتقاسما الخبز الجاف والبطانيات وأقداح الشاي في البرد، وزار معه عائلته في النجف، والده متوفى وأمه تدير البيت في غياب أبنائها الثلاثة في الحرب، هو الأصغر وأخواه الكبيران متزوجان ولهما أطفالٌ، والجميع يسكن في بيت واحد، تحت خيمة رعاية الأم التي كانت تسهر لمواصلة الصلاة والأدعية ليلاً كي يحفظ الرب أبنائها، وفي النهار تكدح في الدار وترعى صغارهم. كان أحمد، ومنذ الصغر، يحب ابنة جيرانهم التي صارت طالبة جامعية جميلة، وكان مثل عبدالله، يتفق معها على تأجيل زواجهما قليلاً ثم قليلاً عل الحرب تنتهي، أو إلى أن تُكمل هي دراستها، لكن مقتل أخويه في الحرب وضعه فجأة أمام موقف مرير؛ حيث تتوسل به أمه ناحبة، أن يفعل مثل الكثيرين ويتزوج أرملتيْ أخويه حفاظاً عليهن وعلى أطفالهن من التشتت، وخشية أن يتزوجن من آخرين، وهو حق لهن، فيضيع الأطفال. تبكي أمه مقبلة يديه: أرجوك بني، بيدك أنت وحدك الحفاظ على وحدة العائلة والبيت. مانع، تهرب وبكى، لكن عيون صغار أخويه، حزن أرملتيهما، ذبول أمه، توسلاتها وضغط منظومة القيم الاجتماعية أجبرته على الرضوخ. لم يكن الأمر هيناً في بدايته، لأنه كان يعتبر زوجتي أخويه مثل أختين له، فهن أكبر منه وعاش معهن في بيت واحد، رعينه وقدمن له الطعام وغسلن ملابسه ورتبن غرفته.. ثم اعتاد على وضعه الجديد بحكم تكرار الأداء والمعايشة وما أنجبن له من أطفال جدد.. لكنه خسر حبيبته التي رفضت ورفض أهلها أن يتزوجا وهو على هذا الحال بزوجتين ومعيل لعائلة كبيرة. كان يبكي على صدر إبراهيم وإبراهيم يهدئه بالقول: إنها قسمتك ونصيبك يا أخي، لكل كائن قدره ومصيره الذي لا مفر منه.

يتصور إبراهيم أن الحب الحقيقي لابد وأن يكون مثل هذا الذي يشعر به تجاه ابنته قسمة، لذا فهو يتفهمه ويستشعر عذابات ولوعة

المحبين: إنه شيء عجيب هذا الحب يا أم قسمة، فليُعن الله كل محب على قلبه.

وحين تسأله زوجته عن تجارب حب صديقه طارق المتعددة، يعلق: إن ما يفعله طارق هو احتراف في ممارسة هذه العلاقة وليس حباً صادقاً وعميقاً. تذكرين ما رويته لك عن أولها؛ فهدة البدوية. ويضحكان، ثم يواصل حديثه لها عن أحمد النجفي: ذات ظهيرة، حين كنا ننام القيلولة في الملجأ، استيقظنا بفزع على صوت رصاصة تخترق السقف، فوجدنا أحمد يصرخ حاملاً كفه المثقوبة بكفه الأخرى، بعد أن تناثر دمها وفتيت اللحم والعظام على زنكو السقف وعلى وجوهنا، الثقب في باطن الكف صغير، حيث دخول الرصاصة، وفي قفاها واسع حيث خروجها، رائحة بارود ودخان خفيف يخرج من فوهة بندقيته، عرفنا بداهة أنه هو الذي أطلق الرصاصة على يده، كان يبكي ويقول: أمي مريضة وطفلان من أطفالي كذلك، أهلي يعانون العوز، ولابد أن أكون معهم هناك.

في التحقيق عرفوا، طبعاً، بأنه هو الذي فعلها، فقد اعتادوا على أحداث من هذا النوع، والقانون العسكري يُعاقب على ذلك، لذا عالجوه وسجنوه لستة أشهر، ومن حسن الحظ، أن الرصاصة لم تقطع عصباً ولم تضر بكفه كثيراً، كان مجرد ثقبٍ سرعان ما التأم تاركاً أثره. وعاد أحمد منصاعاً لمواصلة حياته وضيم عسكريته حتى انتهاء الحرب وتسريحهما معاً هو وإبراهيم من الوحدة ذاتها وفي اليوم نفسه.

بعد أن انتهى شهر الراحة بالنسبة لإبراهيم، راح يفكر في ترتيب حياته من جديد، أو بالأحرى، البدء بها... الحقل موجود، يتشارك بالعمل فيه مع إخوته وعوائلهم، بعضهم استقل في بيت جديد، وبحكم التقاليد والأصول أن يبقى البيت الأول، الذي يسمى "البيت الكبير"، للأخ الكبير. وسرعان ما انفتحت له جبهة عمل أوسع حين وصلت

إليه، عبر منظمة الصليب الأحمر الدولية، رسالة من عبدالله، وهي عادة ما تكون رسائل مختصرة إلى أبعد حد ومحسوبة الكلمات. يخبره فيها بأنه لازال حيًّا وهو أسير في إيران، صحته جيدة وفقط تنقصه السجائر، ويخوله بأن يستثمر بيته وحقله كما يشاء، وإن حدث وأن مات فهو يترك إرثه هدية لابنته قسمة.

كان وصول هذه الرسالة عيدا للجميع، لذا احتفلوا به وقررت السيدة زينب أن تذبح أكبر ثيرانها كوليمة بهذه المناسبة، لكن إبراهيم وطارق أصرا على أن يشاركا في تكلفتها وتنظيمها، فاحتفلت القرية واطلع الجميع على الرسالة، بمن فيهم الذين لا يعرفون القراءة والكتابة. بعدها قام إبراهيم بتأجير بيت عبدالله لمعلمي مدرسة القرية المبعوثين من المدن، وقام بإعادة تأهيل الحقل واستثماره. كان يحرص على الحساب بدقة متناهية، آمرًا زوجته أن تخبئ حصة، أو ما يسميه (حق)، عبدالله في مكان آمن من غرفة نومهما لا تصل إليه يد أحد. فكانت تخبئ ما يعطيها من أوراق نقدية في صندوق حافظة زينتها المتواضعة من قلائد وأساور وخواتم وأقراط ذهب وفضة ورثت بعضها عن أمها والبعض الآخر كانت هدايا العرس.

أما عن علاقات إبراهيم، فبالطبع قد كانت مع طارق أقوى من غيرها، حيث يمضيان كامل يومي نهاية الأسبوع معًا، لأن بقية الأيام يعمل فيها طارق مدرسا في إحدى القرى النائية بعد أن كان قد أنهى دراسته بمعهد الشريعة في الموصل، فلم تؤهله علامات تخرجه من الثانوية لأعلى من هذا المعهد، كما كان الاختيار منسجماً مع رغبة أبيه.

وكعادة إبراهيم في التأقلم، راح يؤدي جميع الالتزامات بالتقاليد الاجتماعية من معاودة المرضى ودفن الموتى والتهنئة بالمواليد والأعراس والمساعدة في جني المحاصيل وفي الحصاد وما إلى ذلك. كان راضياً بهذا الأمان وهذا التعايش، شاعراً بأن قريته هي أجمل عش

في العالم.. لأنها هادئة ومسالمة.. بل ولأنها منسية أيضاً. وكان اللعبُ مع ابنته قسمة في المساءات شيئاً بالغ السحر والعذوبة بالنسبة إليْه. يشعر، حين تضحك فرحة، بأن كل همومه الحالية وتعب الماضي يسقطان عن كاهله كمن يخلع ثوباً مُثقلاً بالطين.. يشعر بالنظافة والخفة ويكاد يتلمس عسل الحياة بأصابعه كلما لمسها.

ما لم يكن في الحسبان، هو أن يغزو العراق الكويت في اليوم الثاني من شهر أغسطس/ آب سنة 1990 وأن يعاود دق طبول الحرب صخبه.. بهدير أعلى هذه المرة.. بعنف وقسوة أشد.

- 5 -

عاصفة الخراب

على مفاجأة صادمة، استيقظت القرية، البلد والعالم. دبابات العراق في شوارع الكويت فجراً. ولو كان عبدالله كافكا حينها في مقهى القرية بين الرجال المتحلقين حول التلفاز بأفواه فاغرة لقال: لا مفاجأة ولا خراء.. العالم غابة كما هو دائماً، وأي حيوان قد يعض أو يفترس غيره في أية لحظة. لا توجد مفاجآت، فالحيوانات سلوكها معروف، والبشر دائماً يرتكبون الحماقات ذاتها ثم يسمونها مفاجآت ويسمون البديهيات مفاجآت أيضاً، فيقولون فلان غيّر رأيه فجأة، أو يقولون فلان مات فجأة وكأنه لم يكن في انتظار الموت أصلاً منذ وُلد!

استدعت الحكومة مواليد إبراهيم وأخرى أصغر منها وأكبر، فقطعت استراحته وأرغمته على ترك ابنته وهي في أفضل علاقتها به، وأن يهجر زراعته في منتصف موسمها متوجهاً إلى وحدته العسكرية السابقة، كما أمره البلاغ في المذياع.

كان الدرب ثقيلاً على روحه، ضباب فوضوي يعصف بذهنه فلا يستطيع التفكير بشيء واضح، تشويش مشوش، شظايا من قلق وحيرة وأسى خانق، مجهول شاسع كمناخات الكوابيس. وصل مقر وحدته ودخلها بانتظام كأنه قد غادرها بالأمس، وليس قبل ما يقرب العامين، كأن أوقات السلام هي الاستثناء والحلم فيما العسكرية والحرب هما القاعدة والعادي!. ما أيقظه من هذا الدوار واختلاط الواقعي بالخيالي، ما موجود فعلاً أو ما ليس موجوداً، ما يُرى ويُلمس ويعاش وما يعاش دون أن يُرى أو يُلمس. أيقظه لقاؤه بأحمد النجفي وتعانقا بارتماء حميم.

كان أحدهما بالنسبة للآخر بمثابة رجل إطفاء يحتضن المحاصَر بالنار وينتشله. خفف هذا اللقاء من خشونة أو وحشية العودة إلى المكان المكروه. إنه فسحة مؤانسة في وحشة السير أو السَوق صوب القادم الغامض.

تم التسجيل والتجهيز العسكري بساعات قليلة فوجدا نفسيهما، هكذا على الفور، كما كانا، بملابسهما الخاكي والبسطال الثقيل والكلاشينكوف وأحزمة العتاد والخوذة والحَربة وزمزمية الماء وجعبة القناع الكيمائي ورتل شاحنات ينطلق بهما في هذه الظهيرة اللاهبة من معسكر الرشيد في بغداد نحو الجنوب حيث تزداد الحرارة الشاوية والرطوبة الخانقة كلما توغلوا في أسفل البلاد.. كلما تغلغلوا في الصحراء.. كلما غاصوا في الحرب. وكانت تسليتهما الوحيدة خلال الطريق هي تبادلهما للأحاديث عما فعل وحدث لكل منهما خلال العامين الفائتين، ولأن الطريق طويل كانوا يطيلون التفاصيل ويعيدونها حتى جعلتهما يوغلان أكثر في التعارف والثقة والتقارب وتجاور الشخصي للشخصي والذات للذات والروح مع الروح، في أجواء مودة لن يتردد أحد بوصفها أخوية.

وحدها موجات صخب الجنود الأصغر سناً معهم في حوض الشاحنة العسكرية، كانت تقطع همسهما الجانبي. حيث يغني أحد الجنود فيشاركه الآخرون بالغناء والتصفيق، ثم يتطوع واحد وأكثر بالرقص في المنتصف، أو يتبادلون آخر النكات، الجنسية منها والكافرة بشكل خاص، فيقهقهون بهستيرية... في الحقيقة، كانت كل حركاتهم ومشاعرهم ونبراتهم هستيرية، ولم يتطرق أي منهم للحديث عن الحرب أو السياسة أو عما ينتظرهم من مصير.

إذا مروا بقرية ورأوا فلاحة شابة أمطروها بالصياح والصفير وعبارات غزل تخيف أكثر مما تُعجب، ينتهي بعضها بألفاظ جنسية

وقحة حين يبتعدون وتبتعد ربما متمتمة أن اذهبوا إلى الجحيم. أما إذا كانت العابرةُ عجوزاً أو عجائز، هتفوا معاً بأي مقطع من أناشيد الحرب المعتادة والأهازيج الإذاعية هازين بنادقهم في الهواء بمثابة عصي رقص. فترفع العجوز المسكينة ذراعيها إلى السماء داعية الرب أن يحفظ هؤلاء الشباب المساكين، وقد تبكي، فحتماً هي الأخرى أم أو جدة، مثل الكثيرات من كسيرات القلوب، وثيابها السود تعني بأن لديها ميّتاً أو أكثر من الأحبة. تبتعد.. وتبتعد.. نقطة سوداء في أفق أرض السواد، يلفها الغبار أو السراب حتى تختفي.

وعلى مدى أشهر الاحتلال، كان نصيب وحدتهم الصحراء، قرب الحدود السعودية، فيثير هذا سخط الجنود الأصغر سناً كونهم يسمعون عن رفاهية بقية قطعات الجيش في المدن، حيث الكهرباء والهواء المكيف والماء ووفرة الطعام والنهب، يسمعون عن ضباط وجنود صاروا أثرياء بسرقة الذهب والمجوهرات والسيارات والأجهزة والأثاث وما شاؤوا من الأسواق والمؤسسات والبيوت، كما يزورهم ذووهم، فيحملونهم بما استطاعوا، بينما لهؤلاء الشمس الحارقة والرمال، ومواجهة حشود جيوش العالم وشحة الماء ولهيب سموم الهواء والأفق الموحش.. وعليهم أن يحفروا لأنفسهم خنادق، ويزرعوا في كثبان الرمل ألغاماً سينسون مواضعها في اليوم التالي، لتشابه الأرض التي يندر فيها تحديد دلالة معينة، حتى تضجّر أحمد النجفي قرب إبراهيم، بعد سماعه لاغتناء الآخرين من النهب، كونه كان يعيل عائلته من عمله ميكانيكياً في ورشة قديمة في الحي الصناعي.. والآن، من أين سيطعم كل هذه الأفواه؟! فقال له إبراهيم: في رأيي، أن من فضل الله علينا أنه لم يتم إرسالنا إلى المدن كي لا تغرينا مثل البقية، فنُطعم عوائلنا من السرقة الحرام. فرفس أحمد بعقبه سفح تل الرمل الذي كانا يجلسان عليه في ذلك المساء، وقال بسخط:

- لقد سرقت الحروب حياتي، فلماذا لا أسرق منها ولو توافه؟!

لف إبراهيم ذراعه على كتف صاحبه مهدئا، وقال:

- كل شـيء قسـمة ونصيب، ومـن يـدري ما هـو الأفضل له وما الأسـوأ، «... وَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُوا شَـيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَـى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ».

لـم يقتنـع أحمـد تمامـاً بما قاله إبراهيم، وألقـى بظهره على برودة الرمل المسائي مطلقاً نفخة حسرة حارة، وقال:

- أنـا حزيـن هـذه المرة يا إبراهيم، حزيـيـين وفي صدري هاجس غير مريح، ربما هو قلق، ربما هو خوف.. لا أدري بالضبط، ولكن قلبي منقبض وينبئني بما هو أسوأ.

لاحقاً، بعد الهزيمة والانـسحاب الفوضوي الكارثي، تذكر إبراهيم قول أحمد هذا، وعلق في نفسه: يا سبحان الله، بعض الناس من ذوي القلوب النظيفة، تنبئهم قلوبهم بما سيحدث، ويستشعرون نهاياتهم.

وبكى، وسيبكي مرات مرارة تلك الذكرى التي ستؤثر على حياته وحتى على طبيعة موته.

كانـت الطائـرات تقصـفهم ليل نهـار بلا انقطاع، فيرتفع الرمل مثل نافـورات هـادرة، وتمـوج الأدخنـة غيمـاً قاتمـاً فوق الـرؤوس. من بين التمويهـات التقليديـة أنهم وضعـوا هياكل زائفة لمدافع ودبابات وآليات بـارزة مـن صفيـح أو كارتون فيما لطخـوا الحقيقية بالطين وأخفوها في أخاديد بين الكثبان وخنادق وتحت أشواك، واتخذوا للبريد جِمالا وطيورا من حمام الزاجل ودراجات نارية.. فالأجهزة اللاسـلكية ستنكشـف لأن الخصـم المتكـون مـن قوى ثلاثين دولة تقريبا، لديه أحدث التكنولوجيا وكل ما هو متطور وغير تقليدي في التدريب والأسـلحة. في الحقيقة؛ كل الحـروب تقليديـة فـي النهايـة، مـا دامت جل أهدافهـا هي أن يقتل بعض البشر بشراً آخرين.

في يوم 24 شباط/فبراير 1991 بدأت قوات المتحالفين هجومها البري انطلاقا من الرمال السعودية، فتحولت الصحراء المهجورة قرونا إلى أفق مغلف بالحديد والنار. كان المشهد خرافيا بالفعل، بل جهنميا، يشي بقدرة وجبروت هذا الكائن الصغير، الإنسان، على تغيير وجه الطبيعة الكبيرة بشكل عجيب مخيف. لم ير إبراهيم وأحمد طوال أعوام الحرب الثمانية ضد إيران مشهد معركة على هذا النحو. الأرض تقذف جحيماً والسماء تمطر جحيماً، وهناك قرب (الجهراء) قاوم من الجنود العراقيين البسطاء من قاوم، بيأس ومات، وخرج آلاف آخرون من الخنادق ملوحين بكل أبيض في متناولهم؛ قميص، منديل، غترة، ورقة، صفيحة، سروال داخلي.. تعبيراً عن الاستسلام، وثمة جرحى يستغيثون والرمل يدخل جراحهم وأفواههم الصارخة. ولكن الآلات الهادرة التي نبعت من السراب والرمل، ما أن وصلت الخطوط الأولى حتى شرعت بحصد الرايات البيضاء بالرصاص وهرس أجساد الجرحى بعجلاتها والسرفات. حين رأى إبراهيم وأحمد ذلك تسللا من وادي خفيف الكثبان نحو ملاجئ خلفية، وجدا أن القصف قد عاث بها حفراً هي الأخرى ومزق الجثث ناثراً أشلاءَها في كل صوب. عثرا على دراجة نارية لأحد معتمدي البريد، جثته مبقورة قربها فيما لا تزال حقيبة البريد معلقة في عنقه. ركباها وانطلقا في دروب صغيرة عرفاها خلال الفترة السابقة، بعضها دروب لدواب وبعضها صنعتها الريح أيام تمشيطها للكثبان. قبل الانطلاق، عندما التفتا إلى الوراء رأيا كائنات الحديد خلفهما تجرف الخنادق، دافنة فيها عشرات الجنود العراقيين، وهم أحياء. صرخات بعضهم المسترحمة كانت تعلوا حتى على زمجرة الحديد وانفجارات القذائف المكتومة في الرمل. ما صادفاه من وحدات خلفية أخرى كانت تنسحب بفوضى، حتى قبل صدور الأوامر الرسمية بالانسحاب والتي لم تعلن إلا في اليوم التالي.

بعد مسافة وزمن لا يعرفانهما، نفد وقود الدراجة، فترجلا عنها وتركاها مع بندقيتيهما وأحزمة العتاد مكتفيان بالمسدسين وزمزميات الماء، وراحا يركضان في جهات تبتعد عن المواضع.

في الليل، كانا يسيران قدر الاستطاعة، وفي النهار يستريحان أو يواصلان المشي في ظل سفح أو أشواك أو يتدثران بالرمل. لا يدريان كم مضى من الوقت بالضبط.. يومان؟ ليلتان.. ربما، لكنهما أبصرا، فجراً، الطريق الدولي الرابط بين الكويت والبصرة، فوجداه كحبل نشر ثياب الغجر، غاصاً بأرتال السيارات المدنية والعسكرية وشتى العجلات وآلاف البشر من العسكريين والمدنيين، كل يحاول الإسراع بالهرب، ومنهم من كان يخرج بعربته عن الإسفلت كي يجتاز الآخر، ومنهم من تتعطل سيارته فيتدبر أمره كيفما كان مع أقرب سيارة، عجلة أو أية حديدة متحركة أخرى تسير وفيها فسحة له، فسحة لأمل.. منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

كان هذا الرتل البشري والآليات أطول من أن يتمكنا من رؤية بدايته أو نهايته. وقبل أن يصلا إليه بنية الركوب مع الراكبين أو التعلق بأية مركبة تتاح، جاءت أسراب طائرات عرفا من بينها القاذفات الأمريكية العملاقة B-52، وراحت تلقي بحممها على السالكين، فكان ما أبصراه هو الجحيم الحقيقي بكل أهواله، لم يريا، في حياتهما، ولن يريا حدثاً مروعاً حد الجنون كهذا. تتطاير الأشلاء الآدمية والحديدية متناثرة وسط ألسنة اللهب ودوي الانفجارات. كل شيء على هذا الطريق كان يتحول إلى انفجار، حريق، دخان، أشلاء، دم، خراب، فحم، موت، موت.. إنه طريق الموت الذي رأيا كل ما يدب فيه وحوله ينعجن ببعضه محترقاً وميتاً.

سكنا في مكانهما منبطحين، يراقبان هذا الهول ولا يكادا يصدقا ما يريان. قال أحمد: إنها نذالة أن يقتلوا المنسحبين والمستسلمين. وقال

إبراهيم: نذالة هي أيضاً أن نغزو أخوة جيران. قال أحمد: أنت تعلم بأننا لسنا من فعل ذلك، وأن من يمتنع يُحكم بالإعدام.

تحول الطريق إلى خبط من المصهور البركاني ممتداً وسط هذا الخلاء الأرضي الأجرد. كانا يقولان إنها القيامة. لم يَنْجُ إلا قلة ممن كانوا على جانبي الطريق بمسافة، أو أخطأهم التصويب، أو أنقذتهم المصادفة.

وكانا، كلما خف هجوم الطائرات، وفي فترات ذهابها والعودة، يمشيان بموازاة الطريق عن بعد باتجاه العراق. في آخر المساء، وحين انقطع القصف صارا يقتربان أكثر من الطريق فكانا يجدان آلاف الجثث المحترقة والمتفحمة على جانبيه. في الظلام، بحثا عن ماء وشيء يأكلانه فوجدا بعض ذلك بلا عسر، كذلك قابلا العديد من الأشخاص ممن فعلوا مثلهما ويواصلون السير، صاروا جماعة، وثمة جماعات أخرى، لا أحاديث إلا بضع من التمتمات المكتومة والشتائم. كان البعض يود لو يبكي، فيما يحاول بعض آخر إنقاذ جرحى، وبعض يجرب تشغيل سيارات لم تُصب بضرر كبير. حين ازداد عدد الناس، عرفوا بأنهم قد وصلوا إلى النقطة الحدودية (سفوان)، بادلا مسدسيهما بسندويتشين من الجبن والطماطم، وبعد انتظار، لا يتذكران كيف عبرا حينها وصارا في العراق، لكن جحيم القصف تواصل حتى على رؤوس المنسحبين في الطريق داخل الأراضي العراقية.

باتجاه البصرة، كانوا يسيرون، حين أمطرتهم طائرة برشقات موت فسقطا مع آخرين، رأى إبراهيم أحمد يسقط على بعد خمسين متراً يميناً، مثقوب البطن، ينزف ويئن. كانت تلك لحظات خاطفة.. كأن لغماً قد انفجر تحته. غاب إبراهيم بعدها عن الوعي، حتى قبل أن يعي أين موضع الإصابة في جسده. كأن عصف القذائف قد فجر رأسه. لم يعد يحس بشيء، سوى لون أصفر يزداد صفرة في رأسه حد القتامة وجسده

يذوب كقطعة زبد على الرمل الساخن، أو يذوي أو يبتعد ويبتعد أو يغور في الرمل أو البحر أو الدخان أو العدم، وفكر أنه يموت، فركز ما تبقى من قوى ذاكرته على وجه طفلته وصوت أبيه.

حين فتح عينيه، كان يشعر بالعطش الشديد. جسده بين أجساد ميتة أخرى تكومت على بعضها.. كأن الأرض لم تعد تتسع لها. رفع رأسه ونظر إلى اليسار، كلبان يأكلان في جثة آدمي على مقربة منه. جال بنظره: كلب آخر يتقدم نحوه وله رأس ووجه إنسان. حاول النهوض فلم يستطع، إحدى ذراعيه خدرة تحت بدنه. فرك عينيه. الكلب برأس آدمي يقترب منه هادئاً بين الجثث، أرعبه ما يرى من مسخ، وحين استدار الكلب، أدرك أنه لم يكن برأس آدمي، وإنما كان يحمل بين فكيه رأساً مقطوعاً والوجه باتجاه الواجهة، ثم راح يبتعد بالرأس. التفت إبراهيم إلى اليمين وراح ينادي: أحمد.. أحمد.. يا أحمد. لا يدري فيما إذا كان صوته يخرج مسموعاً أم أنه صراخ مكتوم في داخله وحسب.

هناك على مسافة، خلف الكلبين الناهشين، أبصر ثلاثة شبان على حميرهم، ينزلون، ينحنون، يفتشون بين الجثث ثم يعودون لامتطائها. كانوا بشراً حقيقيين.. يقول.. لا إنهم ملائكة.. فينادي بأعلى صوته ولا يدري إن كان صوته مسموعاً. لا يشعر بساقيه، عليهما جثة أخرى أو مدفونتان في الأرض أو مقطوعتان.

يشعر بالضعف، بالشلل، بالاختناق تحت ثقل كابوسيّ جاثم على صدره، ولكنه ظل ينادي على أحمد وعلى الثلاثة.. يصيح يا أحمد.. ويصيح، حتى غاب عن وعيه مرة أخرى.

- 6 -

سفر بقدم واحدة

فتح إبراهيم عينيه فوجد نفسه على سرير غريب، في بيت غريب. وأنه غريبٌ في بلد وعالم غريبين. رأى وجه امرأة يطل فوق وجهه، مدت كفها على جبينه وابتسمت بطيبة. شعر وكأنها أمه، لكن الفرق أنها مبصرة وليست عمياء، لأنها كانت تحدق في عينيه بالضبط.

فسألها: أين أنا؟!

قالت: أنت في بيتك يا ولدي، أنت في الزبير، الحمدلله على نجاتك.

- وأحمد؟

- سيأتي الآن.

- أريد ماء.

- ولكن، قليل فقط، لأنك جريح.

تناولت من جوارها إناءً، غمست أصابعها فيه، بلّلتْ شفتيْه، وأنزلت بضعة قطرات من أطراف أصابعها في فمه كأنه عصفور، ثم مسحت بكفها المبللة وجهه، فأنعشته برودة الماء. نزل دمع من زوايا عينيه على الجانبين، وقال:

- ماذا حدث يا خالة؟

- إنها الحروب يا ولدي، إنها شرور ابن آدم وجنونه. الكارثة لازالت مستمرة ولا ندري متى وكيف ستتوقف.

وفي هذه الأثناء دخل شاب في أواسط العشرين من عمره، يعصب رأسه بشماغ ويبدو قوياً، حيوي البدن، وقال:

- ها يا أمي، كيف الحال؟

فتنحت هي جانباً لتفسح له الإطلال على وجه إبراهيم من مكانها، قائلة:

- هذا هو أحمد، ولدي، الذي أنقذك.

فقال إبراهيم وهو يمد يده للمصافحة:

- شكراً يا أخي، للحظة تخيلتكم ملائكة.

علقت الأم:

- هم ملائكة فعلاً، وأصحاب، ينقذون الجرحى بينما بقية الناس ينشغلون بالنهب.

سأله إبراهيم:

- وأحمد؟ صديقي، لقد رأيته يسقط قريباً مني، ربما هو جريح في بطنه.

- لا أدري يا أخي، كنا ثلاثة فقط، على حمير، من أنقذناهم ربما تسعة أو عشرة ثم دفعنا اثنين من أولاد الحلال ممن بقوا في إسعافات المستشفى ليذهبوا إلى الطريق وينقذوا المزيد.. إنها مخاطرة أن تذهب سيارة إلى هناك.

وراح إبراهيم يزيد من وصفه صديقه أحمد ومكان سقوطه عله يتذكر شيئاً عنه، لكن الشاب لم يذكر شيئاً مما وصف، وانتهى بالقول أن الأرض كانت مغطاة بالجثث وصعب معرفة كل الأحياء بينها، كنا ننتبه إلى حركة أو تنفس وما إلى ذلك، وأضاف: بالنسبة لك كنتُ قد تجاوزتك، ولكنني سمعت خلفي من يناديني، أحمد، أحمد بصوت ضعيف، حتى اقشعر بدني.. ظننت أن أحدا يعرفني وأعرفه، وهكذا اقتربت منك وحملتك، كنت تنادي وعينيك مغمضتين.

ثم ابتسم، وعقب: كنت أظن أنك كنت تنادي عليّ.. من يدري إنها مشيئة الله.. إنك كنت تنادي عليّ فعلاً. حين رفعتك لم أجد سوى

جرح بسيط لشظايا صغيرة في جسدك ولكن قدمك اليسرى كانت تتدلى تماماً، لم يكن يربطها بالساق سوى خيط جلد بسيط، فقطعته، وعصبت مكانها بقميص ثم أخذتك إلى المستشفى.

في تلك اللحظة أدرك إبراهيم أنه قد فقد قدمه وأن الألم الفظيع الذي ظنه انفجار لغم تحته كان جزء من قذيفة سحقت عظمه. وواصل الشاب حديثه من باب طمأنته:

- ربما أنت أكثر الجرحى حظاً، جروح الكثيرين قاتلة، ومنهم من كان يتوسل أن نقتله ليرتاح، لكننا لم نفعل بالطبع. ثم أنك رأيت الكثير من القتلى المساكين، يدرك الواحد منا أمام مشهد كهذا، أنه محظوظ مهما تكن جراحه أو أحواله.

قال إبراهيم: منذ متى أنا هنا؟

- منذ يومين تقريباً، يوم في المستشفى وآخر هنا.

- هل هناك وسيلة ما لأطمئن على صاحبي أحمد، كأن أتصل بالمستشفى أو أن أتصل بأهله مثلاً؟

ابتسم الشاب بمرارة وقال:

- ماذا تقول يا أخي، عن أي مستشفى تتحدث! لم يبق منه سوى الاسم فقط، هرب أكثر من فيه وسرق الناس أسرته وكراسيه وأجهزته كلها تقريباً وليس هناك سوى بضعة أطباء وممرضات ممن لديهم بقية ضمير ورحمة يقومون بواجبهم الأخلاقي قدر استطاعتهم، فيما أرضية الغرف والممرات غاصة بالجرحى والبلاط مغطى بالدماء، ثم إن الاتصالات كلها مقطوعة.

وراح يصف له فوضى الحال في كل مكان. إنهم لا يزالون يقصفون كل شيء... المعسكرات، الجسور، أبراج ومحطات الاتصالات، محطات الكهرباء، محطات المياه، المباني الرسمية، مراكز الشرطة، المؤسسات، البيوت.. كل شيء، كل شيء، وانفتحت السجون

فانطلق نزلاؤها، استولوا على أسلحة الشرطة وتلك التي تركها الجيش ومخازنه.. القتل والفوضى والسلب والنهب في كل مكان.

نُهِبَت البنوك، المتاحف، الجامعات، المدارس، المستشفيات، كل دوائر الدولة ومؤسساتها وحتى رياض الأطفال، والكثير تم إضرام النار فيها. بعض القصف طال الأسواق أيضاً ولك أن تتخيل. الجثث تملأ الشوارع وانتفاضة عارمة ضد الحكومة في كل مكان. يقال بأن شرارتها قد انطلقت فجأة حين رأى الناس جندياً عائدا من كارثة الكويت يجرؤ على التبول على صورة كبيرة للرئيس في إحدى الساحات ثم يمطرها بالرصاص. النظام سقط في الجنوب تماماً وتقول الأخبار إنه سقط في الشمال أيضاً. يقال بأن الطاغية وحاشيته يحزمون حقائب سرقاتهم ويستعدون للهرب. ثمة قتل على الهوية للموظفين وللجنود المساكين المنسحبين وللشرطة، وفي ساحة وسط المدينة رأيت مجموعة تعري نساء ثم سكبوا عليهن البنزين وأشعلوا بهن النار، لا تدري من يقتل من! ولماذا؟ تحولت المدن إلى متاهات أشباح متوحشة.

- ولكن لماذا يواصلون القصف، ألم يعلن العراق استسلامه وانسحابه بلا شروط؟!

- نعم، ولكنهم يدمرون كل شيء وقواتهم تواصل دخولها في العراق، والأدهى أن الناس، أهل البلد يستغلون هذا الخراب ويزيدونه، يبدو البعض كوحوش ضارية انطلقت من أقفاصها.

تخيل إبراهيم حجم الخراب، وإن كان في حقيقته أكبر مما تخيله، فتمتم: يا للأسف، ماذا تقول يا أخي؟! هذا يعني أن البلد انتهى.

فعلق الشاب بروح حماسية أو وهو يعي ما يقول:

- مؤسف وموجع حقاً، ولكن اطمئن فالشعوب تمر بأزمات وتعاني، لكنها لا تموت أبداً. إنها أوجاع مخاض الثورة.

- ثورة!؟

- نعم، ولكن المؤسف أنها غير منظمة فتضيع ثورة البسطاء والمظلومين الحقيقيين وسط تخريب المندسين، وفوضاها تأتي على كل شيء. بعينيّ هاتين رأيت في الشوارع غرباء مسلحين ومعهم عراقيون يرطنون بلغات أجنبية، فكما تعلم، لم يترك العراق قوات مهمة على بقية حدوده، بضعة نقاط في الحدود مع إيران، سرعان ما انسحب حراسها أو قُتلوا..

ارتعد إبراهيم عند سماعه لِذكر إيران.. وكأن الحرب الطويلة التي أمضاها ضدها قد تكثفت وحضرت دفعة واحدة، وحين لاحظ أحمد انقلاب سحنته وتوتره، قال:

- آسف يا أخي.. رأيت جثثاً تأكلها الكلاب في الأسواق.

- وأنا أيضاً رأيت جثثاً تأكلها الكلاب.. كأنه زمن الكلاب!

دخلت الأم تحمل عكازاً قدمته لإبراهيم، قائلة:

- هذا كان عكاز المرحوم والد أحمد، هو لك.

وعقب أحمد: بالتأكيد ستستخدمه في البداية وفيما بعد سيركبون لك قدماً جديدة، الطب متطور الآن وهذه مسائل سهلة بالنسبة له، والأطباء العراقيون أصبحوا خبراء بصنع وتركيب الأعضاء لكثرة ما خلفت الحروب من معاقين، لا أدري أين سمعت أن عدد المعوقين في العراق يتجاوز المليون شخص.

كان أحمد يغيب أحياناً طوال النهار ولا يعود إلا مع حلول المساء، وإذا ما تأخر ليلاً تقلق عليه والدته، وتروح ذهاباً وإياباً في أركان البيت، منفسة عن وجلها بالحديث عنه لإبراهيم وهو يحدثها عن ابنته قسمة. تقول ما أكثر ما حاولت إقناعه بالزواج لكنه يرفض، أضرت عقله الكتب وبعض الأصدقاء من أيام الجامعة، يقول: إنه تزوج القضية.

وحين سأله إبراهيم لا حقاً عن الأمر: أي قضية تعني؟

قال: قضية العراق.

- ألا ترى بأن الكل يدعي زواجه بها؟

- هـا أنـت قلتهـا "الكل يدعي" إنهم انتهازيـون أو مغتصبون، أما أنا، ابن البلد، فأنا وأمثالي نحن الحقيقيون.

علـى مـدى أكثـر مـن أسـبوعين، كان إبراهيم يستعلم مـن أحمد عمـا يـدور فـي الخـارج، فهو لا يسـمع، من على سـريره، سـوى لعلعة الرصاص والانفجارات التي لا تتوقف بحيث صارت وكأنها أمراً طبيعياً وأن توقفها هو الغريب. فيتساءل الناس عن سبب الصمت، ماذا حدث؟

أما الأخبار الرسمية فكان يسمعها من راديو صغير أعطاه إياه أحمد كـي يسـلي وحدتـه، لكن أخبار الإذاعات كانـت تصيبه بالدوار وبعضها يكـذب البعـض الآخـر، كما أنها تتحدث عن الزعماء والسياسيين أكثر ممـا تتحـدث عـن هذا الذي يجري علـى الأرض حوله وأحوال الناس، لذا كان يستعلمها من أحمد.

وسأله ذات مرة: البعض يصفها ثورة والحكومة تقول أنها غوغاء.. وأنت ماذا تقول يا أحمد؟

- إنها انتفاضة حقيقية للمقهورين وأنا مشارك فيها، لكن المؤسف أن بعـض الانتهازيـن حرفوهـا عن مسـارها، يشـوهونها. كثيرون تآمروا عليها، عرب وعجم، الأمريكان بدأوا الانسـحاب من الجنوب، تاركين النـاس المنتفضيـن لمصيرهـم، وبهـذا أعطـوا الضـوء الأخضـر لنظـام الطاغيـة بقمعهـم بعـد أن كان علـى وشـك السقوط النهائـي، إنـه الآن يلملـم مـا تبقـى من حرسـه وعسـاكره ويشـن هجوماً كاسـحاً على كل المـدن والقـرى المنتفضـة، يقتل بلا رحمة ويقصـف المدارس والبيوت والمسـاجد والمراقـد.. الجثث في الشـوارع عدى تلـك التي يدفنها في مقابـر جماعيـة، كمـا شـرد الكثير من العوائل، بعـض الناس لجؤوا إلى القـوات الأمريكيـة كي تأخذهـم معها، بعض العوائل هربت عبر الحدود إلـى الـدول المجـاورة، وأخـرى أجبرها النظام علـى الهجرة أو حملهم

إلى معسكرات معزولة في الصحراء. هو والأمريكان يفعلون الشيء ذاته بالناس!

حين قرر إبراهيم السفر والتوجه إلى أهله، حاول أحمد وأمه ثنيه عن ذلك لأن الفوضى لا تزال سائدة والطريق مليء بالمخاطر، لكنه قال بأنه تحسن الآن، التأم جرح مكان قطع القدم، يستطيع استخدام العكازة، وأهله حتماً في أشد الوجل عليه، وليس ثمة وسيلة لإبلاغهم بخبره، فالاتصالات مقطوعة، وحتى وإن أصلحت فليس في قريته هواتف أصلاً.

أراد منهما أن يعطياه عنوان بيتهما ورقم الهاتف كي يزورهما في المستقبل ويشكرهما بشكل أفضل على إنقاذ حياته، لكن أحمد رفض قائلاً أنه لا يفعل ما يفعله بانتظار مقابل. وفي غيابه ألح على الأم فأملت عليه العنوان والرقم حتى حفظهما إبراهيم في ذاكرته، وهو السيئ بحفظ الأرقام، حيث لا يتذكر منها إلا عام ولادته 1959 دون معرفة الشهر واليوم بالضبط، ويحفظ رقم عبدالله كافكا في الصليب الأحمر ورقم هاتف بيت صديقه أحمد النجفي وهذا الرقم الجديد.. ولا أية أرقام أخرى سواها.

أرفقه أحمد مع أصدقاء ثقة يتوجهون إلى بغداد في سيارتهم للبحث عن أخ لهم هناك، لا يعرفون عنه شيئاً منذ بدء الحرب. وقال له: أما من بغداد فعليك أنت أن تدبر أمرك.

ألبسه من ثيابه المدنية وأعطاه شيئاً من النقود، فيما حمّلته الأم كيساً فيه ثلاثة علب بلاستيكية تحتوي على شيء مما طبخته له، وأرغفة خبز وقنينة ماء، قائلة: لتكن لك زوادة في الطريق، سلامي إلى أهلك وقبلاتي إلى ابنتك قسمة.

وفي الطريق كان إبراهيم يحدق من نافذة السيارة إلى الجانبين، وقد لاحظ تبدل المعالم من حوله، فتبدو الأرض والبساتين والبيوت

التي طالما عرفها في تنقله، أكثر تجهماً وشيخوخة وحزناً وخواء. أخبروه أن السماء قد هطلت مطراً أسود لكثرة ما أثقل غيمها دخان حرائق آبار النفط الكويتية التي أضرمت القوات العراقية فيها النار قبل انسحابها، ومن دخان تلك الخطة الغبية القاضية بإشعال المزيد من الحرائق حول بغداد والمدن الكبيرة كي تعتم الرؤية على الطائرات المغيرة.

في نقاط السيطرات العسكرية المنتشرة على طول الطريق العام، كان يرفع ساقه مبتورة القدم قبل تقديم أية ورقة أو بطاقة، فيسمحون له بالعبور، وعند المرور قرب النجف، تمنى على مرافقيه لو أنهم يعرجون لدقائق إلى بيت صديقه أحمد. لكنهم رفضوا قائلين: لا وقت لذلك، والسير في المدن الآن خطير جداً. لم يلح عليهم، فهو في حقيقة أعماقه لم يكن على يقين من رغبته بالقيام بهذه الزيارة أو بجدواها، فماذا سيقول لهم؟.. كنا معاً طوال أشهر وفي الانسحاب، ثم ما عدت أدري عنه شيئاً!. هل سيقول لهم إنه جريح أم مقتول؟ وإن كان جريحاً فلماذا لم يحاول إنقاذه؟ ولماذا وكيف تخلى عنه؟ كان عليه، على الأقل، أن يتأكد من موته أو حياته أو مكان سقوطه..

ظل هذا الأمر يعذبه بضراوة، وخاصة أنه لم يستطع نسيان أوجاع السيدة زينب وطارق ومحبي عبدالله كافكا حين جاءهم بخبر فقده.. ماذا يعني (مفقود)!؟.. إنه لا يستطيع نسيان نظرة السيدة زينب المطعونة، الحائرة، الدامعة، بحيث تمنى لحظتها لو أنه يقدم لها جثة عبدالله بين يديها. على هذا النحو ستراه وستبكيه ويعرف قلبها أنه قد مات، ولكن أن يقول لها، والورقة في يده أنه (مفقود) فهذا أشد عذاباً، حيث التعلق المرير بين خيطي الأمل واليأس، خيط لا يشتد ولا ينقطع، تتحول فيه لحظات الانتظار والتفكير إلى تعذيب بطيء وشرود حائر.. ولا يريد أن يعيش هذا الموقف مرة أخرى مع عائلة أحمد النجفي. إنه لا يتهرب بالطبع، لكنه لا يحتمل المواجهة، وثمة شعور بالذنب ينهشه

من الداخل. يشعر بتقصيره، بخذلان.. وبخيبة أمل بنفسه لم يعهدها في تربيته أو سلوكه أو تفكيره، إلى الحد الذي كان يفضل، في لحظات اشتداد هذا القَرع التأنيبي على روحه، لو أنه قد مات معه.

في بغداد، أوصلوه إلى (كراج العلاوي) ووجد بعض السيارات التي تتجه نحو الشمال. قاسمهم ما تبقى معه من طعام، وشكرهم بحرارة متمنياً لهم تحقيق غايتهم بالعثور على أخيهم.

في الطريق، كان رفقة السفر الجدد يتحدثون عما حدث في ديارهم، الأكراد انتفضوا أيضاً، كما تعلم، وانهارت كل سيطرة للحكومة عليهم، نحن هنا جئنا نبحث عن أقارب لنا، بعضنا يهرب من بغداد إلى أقارب في الأرياف، لأن القرى النائية والصغيرة وحدها الآمنة الآن، فلا شيء فيها للحكومة يغري بالسرقة، ولا سلطة ليتم التنافس عليها. صحيح أن البعض قد هاجم المدارس والمستوصفات وسرق بعض الكراسي أو الطاولات وأدوات طبية، لكن السارقون أعادوها في اليوم التالي كونها لا تنفعهم بشيء، ثم إن الجميع يعرف الجميع هناك، لذا فما يلحق جراءها من سمعة سيئة ونظرات استهجان الناس سيكون مكلفاً أكثر من قيمة المنهوب.

قالوا له إن كل مَن استطاع مِن أبناء القرى، جنوداً وضباطاً، قد هربوا وعادوا إلى بيوتهم، وذكروا له أسماء يعرفها كي يُصدق، فما كان لأحد أن يتخيل، في يوم ما، هروب ضابط، وخاصة إذا كانت عقوبة مجرد الغياب أو التأخر بالالتحاق هي الإعدام، فكيف بالهرب؟!.

لقد فلتت الأمور يا أخي، وصار الموت هو أكثر الأشياء وفرة، لذا فمن يموت الآن سيكون موته مثل بولة في بحر، لا قيمة له، هو يخسر نفسه وأهله يُفجعون بموته، لذا فالبطل الحقيقي الآن، هو من يعرف كيف يحافظ على حياته وينجو بجلده إلى أن تمر العاصفة.

- 7 -

حصار وأمراض

حال وصوله إلى البيت، سألهم عن أخيه وديع، الجندي الآ
فأخبروه أنهم لا يعرفون عنه شيئاً سوى أن وحدته كانت في الكوي
وثمة غيره العديد من أبناء القرية لا أخبار عنهم. هل تعرف أ
شيئاً؟ لا. بكت زوجة أخيه الشابة وهي تحتضنه، ثم جلست
الركن القصي منتحبة. عانقه والده جالساً، فقد هده المرض والو
والشيخوخة، وصار أنحف، يصعب عليه النهوض بمفرده. شَم إبرا
في أبيه رائحة السجائر التي عرفها فيه منذ الطفولة، فيما راحت
العمياء تتلمس طرف ساقه ويصعب عليها تخيلها بلا قدم، قدم تعر
وتابعت نموها قياساً بالأصابع، فلا تجدها وتبكي. وجه زوجته يتو
فرحاً بعودته، ولولا بكاء زوجة وديع قربها لأطلقت الزغاريد، فيما ا
قسمة احتضنته، أو في الواقع هو الذي احتضنها ثم ابتعدت تنظر
بغرابة وإلى ساقه الممدة أمامه كالعصا الغليظة بلا قدم. هم بقية الأ
بذبح كبش وإقامة وليمة احتفاء بعودته، لكن الأب قال: أجلوا الا
بضعة أيام حتى يرجع وديع، عندها اذبحوا ثوراً واجعلوها وليمة أك
وأيده إبراهيم بالرأي.

بعد أن انفض المهنؤون من أهل القرية، علق والده مع ابتسا
وهما يحتسيان قدح الشاي العاشر ربما: أنا فقدت أنفي في حرب وأ
قدمك في أخرى. لا أدري أيهما أهون؛ فقد الأنف أم القدم؟.. على
حال، كل شيء أهون من فقد الحياة.

لم يقم إبراهيم بما سبق وأن فعله عند نهاية الحرب السابقة، -

منح نفسه إجازة شهر من الاستحمام والأكل والنوم. كان ألم ساقه شديداً، لكنه لم يُظهر توجعه أمام الآخرين وخاصة أهله الموجوعين أكثر بقلقهم على الغائب وديع. كان حضور غيابه بينهم يطغي على كل شيء، ويمكن استشفافه في السلوك والنبرات والنظرات وطول الصمت، ولمسه حتى في الهواء تقريباً، فيما حزن زوجته الشابة يعزز هيمنة هذا الغياب. على إبراهيم الاعتياد على حياته الجديدة برفقة العكاز والعَرج، وفي نفسه أسى آخر يتعلق بملاحظته تجنب قسمة له.. شعوره بنوع من الفتور وابتعادها عنه. وكان صديقه طارق لا يكف عن معاودته للمؤانسة، مصطحباً أحد أولاده الصغار أحياناً. لم يذهب طارق إلى الحرب لأنه معلم في مدرسة وإمامٌ للمسجد، وله معارف في الموصل بحيث لم تعد مهمة تجنيده المؤقت عن كونها حراسة لإحدى المؤسسات في المدينة، سرعان ما هجرها، حين رأى انهيار كل نظام والجميع يتركون مواقعهم وينصرفون إلى بيوتهم. لازال أنيقاً، معافى وممتلئ البدن. دائم الكلام والمرح ويكرر عليه والد إبراهيم كلما رآه: كأنك نسخة من أبيك رحمه الله. فيعلق هو ضاحكاً: نعم ولكنه يفوقني بأن تزوج ثلاث نساء، أما أنا فما زلت أراوح بزوجة واحدة.. على أية حال، امرأة واحدة تكفي لأنها تربطك دائراً حولها كثور الساقية. آه.. ما أروع أيام العزوبية حيث يتنقل الواحد حراً بين النساء كنحلة بين الزهور.

ويقول له إبراهيم مازحاً: ألم تكفك كل الزهور التي شممتها.. أو بالأحرى قرصتها ثم تركتها؟!

فيرد طارق: وهل يرتوي مدمن الحلو من لحس العسل؟.. ثم بالله عليك.. هل تحسب عليّ بنت مثل فهدة البدوية زهرة أيضاً؟

فينفجران بالضحك صافعاً أحدهما كف الآخر بكفه، ويضيف طارق:

- صدقني كأنك تحتضن نعجة أو عنزة.. رائحتها كانت خانقة

يا أخي.

فيسألهما الأب عن حكايتها ويرويانها له، فيضحك معهما، مشيداً بأبيها جدعان الذي كان يمر بالقرية شهراً في العام ثم انقطع، ويقطع السعال ضحكة سهيل الواهنة وتسلسل خروج خيطي الدخان من منخريه الثقبين.

يسأل إبراهيم طارق: هل ثمة رسالة أخرى من عبدالله؟ هل من أخبار عن الأسرى في إيران؟

- لا جديد يا أبا قسمة، فالناس الآن منشغلون بمصير الأسرى الجدد ونسوا القدماء.

وحين يلحظ وعكة الحزن تقبض ملامح إبراهيم، يسارع بإعادته إلى مواضيع أخرى محاولاً تسليته بالطرائف، فيروي له مثلاً:

- اسمع هذه، وهي حقيقية وليست نكتة: عاد جندي إلى البيت فوجد أمه العجوز تبكي بحزن شديد، وهي كثيرة الاستماع إلى الراديو والتلفزيون العراقيين الذين يتحدثان عن انتصاراتنا ليل نهار وعما ألحقناه بالأعداء من هزيمة نكراء. فقال لها: لماذا تبكين يا أمي.. لقد انتهت الحرب وها أنا أعود إلى البيت سالماً؟ فقالت: إنني أبكي على حال الأمريكان المساكين، فإذا كنا نحن المنتصرون وقد حدث بنا كل هذا الدمار، فكيف بهم الآن وهم المهزومون؟

منذ تلك الجلسة تحديداً بدأ التصدع في نفسية البنت قسمة تجاه والدها. كانت تجلس جوار أمها التي تواصل سكب الشاي قرب الباب. تنظر إلى والدها إبراهيم ولكن إلى صديقه طارق أكثر، تتململ في روحها مشاعر جديدة لا تفهمها بالضبط، حاصلة إثر مقارنتها بينهما. يعجبها طارق بأناقته وعطره النفاذ وقهقهاته، تجد فيه ثقة عالية بالنفس وهو يُتبع الحكاية بأخرى والنكتة بأقوى، متحدثاً عن معارفه الكثر وعن المدينة وعن أشياء لا تعيها بالضبط، تتعلق بالدين والجنة والملائكة

والسياسة والكتب، مشيعاً في الجو روحاً حيّة لا تدع ثغرة للصمت أو للكلام المكرر، كما يعامل طفله، وهو أصغر منها، بطريقة تشبه الصداقة، ويسأله رأيه فيما قال وفي الشاي وعن رغبته أو يستعين به للشهادة على تفصيل ما. واللغة التي يتوجه بها إليه لا تختلف عن التي يحدث بها الكبار. كل ذلك لا تجده في والدها. قليل الكلام، حزين في العمق، خاضع لجدها بطاعة عمياء، متعامل معها دائماً على أنها طفلة صغيرة، عدم تعطره أو ارتدائه لثياب أنيقة، هدوءه البالغ حد الإملال، ومن ثم ها هو بقدم واحدة تتمدد ساقه أمامه غريبة النهاية كجذع شجرة قديم وإلى جانبه عصا التعكز.

لم تكن لترفع نظرها عن طارق إلا للقيام بنظرة مقارنة خاطفة إلى والدها. في تلك اللحظة تمنت لو أن طارق هو والدها وأنها هي الجالسة جواره متكئة عليه أو في حضنه، يمسد على شعرها بين لحظة وأخرى، لكانت أقوى وأكثر حيوية، بل وأجمل.. كما تصورت. صارت بعدها تتمنى البلوغ بسرعة، أن تكون من الكبار وبقوتهم وحريتهم، الكبار الذين يشبهون طارق وليس الذين كأبيها الذي صارت تبتعد عنه وتتحاشى التعامل معه، ليس نفوراً تماماً ولكنه نوع من البرود والانفصال، نوع من التخفي، التحاشي والتهرب.

بالطبع، لم يكن إبراهيم ليدرك ذلك على هذا النحو، ولكنه كان يستشعر برودها معه، صمتها وتهربها، فيحاول التقرب منها أكثر عبر المزيد من اللين والطيبة والمهادنة.. بل وحتى التذلل لها، مما يجعلها تنفر منه أكثر وهي تراه يزداد ضعفاً وحيرة وارتباكاً حتى معها. كعادته، ظل إبراهيم يعول على الصبر في إصلاح الأمور وجريانها، كما أن توالي المستجدات والأحداث راح يشغله أكثر عن التركيز على هذا الأمر.

كانت قسمة قد تجاوزت العاشرة من عمرها وحبَّتا صدرها بدأتا بالتململ مثل كمأ أول نيسان وهو يدفع قشرة الأرض بارتفاعه.

مـر أسـبوعان، ودخلـت إلـى الحـوش سيارة غريبة تحمـل تابوتاً مربوطاً على سـقفها. ترجل السـائق، شـاب أسـمر قوي البدن، تأكد من عنوان البيت بالسـؤال ثم شـرع بالمصافحة، خفض رأسـه وأخبرهم بأنه مـا ود أن يلتقيهـم فـي مثل هذا الموقف، وهو صديقه، من كربلاء، وأن وديع قُتل في البصرة وسط أحداث ما بعد الانسحاب. طأطأ رأسه دامعاً حين انفجر الجميع أمامه بالبكاء والعويل، وسقطت زوجة وديع مغشياً عليهـا. فيمـا قـاده الأب سـهيل مـن ذراعه إلى صالة الاسـتقبال محاولاً التماسـك، فبـدا كذلـك فعلاً، وإن كان يرتعـش، والتماع الماء في عينيه يبرق خلف نافورتي دخان منخريه. شيخوخته توهم أن الارتعاش بسببها وليـس بسـبب صدمـة الفقد هـذه. لحق بهما إبراهيـم متكئاً على عكازه والحيطان، فيما تكفل الباقون من الجيران وممن التم سريعاً في الحوش إثر سماع الصراخ، بإنزال التابوت والاستعداد لنصب خيمة العزاء وتهدئة الجزعين، يديرهم الأخ الآخر بمعية أصحابه.

فـي الصالـة كان الشـاب يحدثهـم عن تفاصيل مقتـل وديع جواره وكيف أنه لم يشـأ التخلي عن جثته مهما كلفه الأمر، فأخذها معه إلى بيته في كربلاء لليلة ثم جاء بها، وحدثهم عن صداقتهما الحميمة، عن كل الخصال الحميدة التي عرفها عن ابنهم وديع.

كان إبراهيـم يتعـذب وهو يسـمع هـذا الكلام، لأنه لـم يتخذ موقفاً كهذا تجاه صاحبه أحمد النجفي، ولـم ينقل، ولو مجرد خبرٍ إلى أهله. فشـعر بضآلتـه وخجلـه المفـرط أمـام هذا الشـاب الـذي رأى فيه النبل والرجولـة والإنسـانية، وعبـر لـه عـن امتنانـه، كذلك فعـل الأب ولكن بكلمـات أكثـر نضجـاً وحكمـة. هـذا الموقف لـم يكف أبـداً عن وخز ضمير إبراهيم ما تبقى من عمره. وظل يتساءل، في محاولة لفهم شيء ما، حين يفكر؛ كيف أن أناسـاً من تلك الأرض أنقذوا حياته، وآخرون من الأرض ذاتها قتلوا أخاه! بالطبع سيركن، كحل لهذه المعادلة، على

منظوره في القسمة والنصيب والقدر، وعلى أن الناس ليسوا سواسية وإن كانوا من بيت واحد، لكنه لم يستطع أن يكون فهماً نهائياً واضحاً أو يبلور موقفاً كلما قام بهذا التساؤل.. المقارنة.

لذا بعد ما يقارب العام، باح لطارق بما يعذب وجدانه وطلب منه أن يرافقه في رحلة إلى الجنوب. فصحبه بسيارته إلى النجف.. إلا أنهما وجدا عائلة أخرى في البيت غير عائلة صاحبه أحمد، وأخبروهما أن العائلة السابقة قد تفرق شملها، حيث ماتت الأم حزناً على ابنها الأخير، والنساء الثلاث بعن البيت، تقاسمن ثمنه وذهبن كل مع صغارها إلى حيث لا يعلمون بالضبط. قيل إن منهن من تزوجت، أو من عادت إلى أهلها أو من انتقلت إلى قرية أو مدينة أخرى. وليس لدينا أي خبر يقين عن كل ذلك.

في المقهى بقي إبراهيم صامتاً وطارق يكثر من الحديث عن طبيعة الدنيا وشواهد من التاريخ والحاضر عن مصائر مشابهة وأشد تعاسة، إلا أن إبراهيم ظل مطرقاً كأنه يصغي بتركيز أو كأنه لا يسمع على الإطلاق.. إلى أن بكى لاحقاً واحتضنه طارق، ثم أمره أن يذهب إلى الحمام ويغسل وجهه بماء بارد، ففعل ومن ثم ارتشف الشاي وقال: لي طلب آخر منك يا طارق.

قال: اطلب ما تشاء يا أبا قسمة.. أنت تأمر.

- أريد أن نذهب إلى الزبير، إلى بيت الناس الذين آووني وأنقذوني، وفي الطريق نشتري لهم بعض الهدايا.. أريد أن أشكرهم.

تناولا الغداء في مطعم شعبي مجاور للمقهى، ثم مرا بالسوق وحمّلا السيارة بأكياس من الرز والسكر والطحين وصفيحة زيت كبيرة وأمتار من أقمشة نسائية ورجالية وانطلقا نحو البصرة.

عند وصولهما إلى البيت في الزبير، فتحت امرأة في الثلاثين الباب، وطفل يمسك بطرف ثوبها. لم يكن إبراهيم قد رآها من قبل،

فراح يسألها بارتباك عن الشاب أحمد وأمه ويصفهما لها، ففتحت لهما الباب كاملاً ودعتهما إلى الدخول. هناك، في الصالة الصغيرة التي عرفها إبراهيم ولم ير أنها قد تغيرت بشيء، قدمت المرأة لهما الشاي وأخبرتهما، أنها شقيقة أحمد، وأن أحمد قد هرب إلى إيران مضطراً بعد قمع الانتفاضة، ثم جاءت الحكومة وطردت الأم إلى إيران معتبرة إياها تبعية إيرانية، أما هي فلم يشملها قانون الترحيل لأن زوجها موظف قديم في المحافظة ولأنه ينحدر من عائلة معروفة في بغداد.

أعطوها كل ما حملاه، ورجاها إبراهيم أن تبلغ تحياته وامتنانه مدى الحياة لأخيها وأمها في حال أي اتصال يحدث بينهم... ثم أقفلا عائدين إلى القرية، شاغلين الطريق بالحديث عن الذكريات وعن عبدالله كافكا، وبمقارنة حال قريتهما الآمن بغيرها، كونها لم تتعرض لما تعرضت له المدن، يبدو أن أهل القرى يدركون منافع سكناهم أكثر في ظروف الأزمات والحروب. ثم فاجأ طارق إبراهيم بفتحه لموضوع مهد له طويلاً وقال: إني أحدثك به، لأن العم سهيل، والدك، هو الذي طلب مني ذلك... أن تتزوج أرملة أخيك وديع.

رفض إبراهيم على الفور، وقال فزعاً:

- لا، مستحيل. لا أستطيع ذلك إنها مثل أخت بالنسبة لي.

- ولكنها ليست أختك حقيقة. وأنت لست الوحيد الذي يقوم بهذا الأمر حفاظاً على العائلة كما تعلم.

- لا.. لا.. لا أستطيع، ولم يخطر لي على بال أبداً شيء كهذا، دائماً كنت ولازلت وسأظل أشعر بأنها أخت لي، ثم إنها شابة، يمكنها الزواج من شاب بعمرها ويكون لها مستقبل وحياة أفضل.

- والدك يرى أن زواجك منها هو إكرام لها ولأهلها ولذكرى أخيك، وأنها شابة ممتازة وصارت جزء من العائلة يصعب عليهم فراقها، ثم علها تنجب لك أخوة لقسمة.

أكد إبراهيم رفضه، سائقاً المزيد من المبررات بكونه قد كبر على هذا الأمر وأن قسمة تكفيه كخلف وأنه لا يريد جرح مشاعر أم قسمة بالزواج عليها وهي التي رافقته أعوام عمره بكل حلوها ومرها، وانتهى بالقول أنه سيتحدث مع أبيه ويحاول إقناعه برفضه. لكنه لم يشر أبداً إلى ما كان يكتمه عن الجميع فيما يتعلق بمسألة عقمه.

فاجأه أن مهمة إقناع أبيه، لم تكن بصعوبة إقناع طارق، فقد بدا الأب أقل حماسة لمطاولة الحديث، ولم يعد كما كان عنيداً ومهيمناً في فرض رغباته. لقد وهن كثيراً، ازداد نحافة وشحوباً. تغير صوته وصار أوطأ وأضعف. إنه شيخ مريض، تزعجه أوجاع في الحنجرة والبلعوم، ثمة انتفاخ في عنقه وأصبح البلع عسيراً عليه ومؤلماً بما في ذلك بلع لعابه، ولم يعد قادراً على الأكل سوى ما هو سائل فينوعون له الشوربة ويفتتون قطع اللحم والخضراوات في الحساء، وكلما بصق ما يتجمع من لعاب في حلقه، يخرج بصاقه مصحوباً بدم. كان بلا رغبة في فرض ترتيبه.. كأنه يودع الحياة، لذا حمل عكازه وتوجه إلى بيت أهل أرملة ابنه وديع، وبموجز من كلام واهن، محمل بالاعتذار، شرح لهم الأمر. أخذوا ابنتهم، إثر ذلك، وزوجوها لاحقاً إلى أحد أبناء عمومتها.

كانت الأعوام اللاحقة عصية على الجميع، حيث ضُرب الحصار الاقتصادي على العراق. شحة في الطعام والأدوية والمال والورق والحديد والرحمة، شحة في كل شيء. فكانت العقوبات الدولية تؤذي الناس أكثر، وبالمقابل تعزز من سلطة الحكومة كونها المتحكمة بتصريف المواد القليلة الداخلة إلى البلد. تصرفها بما يناسبها هي ويقوي مواليها على حساب الغالبية المغلوبة. إبراهيم لم يعد قادراً على العمل في حقل العائلة أو في حقل عبدالله كافكا فوقع العبء كله على شقيقه الآخر وزوجته وأم قسمة، وكان الأخ الأصغر يلمح لإبراهيم عن تعبه، علّه يعفيه من حقل عبدالله على الأقل، فيما إبراهيم يحثه برجاء على

التحمل، ويحث زوجته كذلك، كما يحاول مشاركتهم بما يستطيع.. ولو بمجرد الحضور. وعلى مدى أكثر من عامين من البيروقراطية والمراجعات، وصله الدور، فركبت له إحدى المستشفيات الحكومة المتخصصة قدماً بلاستيكية معدنية، يلبسها في طرف ساقه كما يلبس جزمة، واحتاج إلى وقت، ليس بالقليل، كي يعتاد عليها، ولكنه، في النهاية، صار يستطيع المشي والحركة بشكل أفضل وبلا عكاز، وإن ظل يعرج بوضوح.

في إحدى مراجعاته المتكررة إلى المستشفيات، ألح على والده أن يرافقه لأن صحته قد تدهورت وصار بلع أي شيء يؤلمه، بما في ذلك التنفس، وخليط الدم يزداد في بصاقه. أخبرهما الطبيب بأنه مصاب بسرطان الفم، سرطان الحنجرة والبلعوم، وهو منتشر في الحلق كله وصولاً إلى المريء والقصبة الهوائية، وأكد لهما أن السبب الرئيسي لذلك، هو كثرة التدخين، فعليه أن يكف عنه حالاً، فيما سيتطلب للعلاج جرعات كيميائية ومن ثم عملية جراحية لاستئصال الحنجرة والبلعوم ويتم وصل القصبة الهوائية مباشرة بثقب في الجلد أعلى الصدر للتنفس.. وبالطبع سيصعب عليه الكلام، بل ينعدم بعدها. قال لهما أيضاً: كان عليكما أن تراجعا الأطباء بوقت مبكر. لم يقل الأب شيئاً للطبيب الذي أعطاهما جدولاً بالخطوات الواجب اتباعها منذ الآن، لكنه قال لإبراهيم بعد خروجهما من العيادة: لا داعي لكل ذلك يا بني، لم تعد لي بقية في العمر تستحق كل هذا العناء والمعالجات وما يتبعها من تكاليف في الصرف، كما أني لن أترك التدخين.. كيف سأتخلى عنه وهو رفيق عمري في المسرات والأحزان لمجرد أنني سأموت؟!

حاول إبراهيم معه بكل السبل، لكن الأب كان قد قرر باقتناع إعلان استسلامه، بحيث رفض حتى مسألة البحث عن الأدوية وشرائها، وخاصة في زمن شحتها بسبب الحصار، قائلاً إنه يفضل أن تصبح

الأدوية من نصيب غيره، قد يكون أكثر حاجة منه إليها وأشَبّ.. وهكذا شيئاً فشيئاً صار يقلل من تحركه وكلامه وأكله، منطوياً على نفسه بهدوء في زاوية صالة الجلوس بانتظار الموت.. إلى أن مات.

لـم تنتـه متاعب إبراهيم بمـوت الأب فالأم العمياء، هي الأخرى، قـد صـارت عجوزاً طاعنة في السـن، مما يتطلـب المزيد من العناية بها ورعايتهـا، بمـا فـي ذلـك ذهابها إلـى الحمام، فكانـت ترافقها في ذلك زوجـة إبراهيـم التي، هي الأخرى، راحت تزداد شـحوباً ونحافة، يهدها العمـل بحيـث تـأوي إلى فراشـها آخر النهـار لتنام كالقتيلـة. ومع تزايد اصفـرار لونهـا يـزداد قلق إبراهيم عليهـا ويدعوها للذهاب إلى الطبيب، فربمـا يكـون لديهـا مـرض السـكري أو اليرقـان، لكنها تمتنـع قائلة أن لاشـيء فيها سـوى أنه التعب، وهي تفكر بالتوفير على إبراهيم المزيد مـن الأعبـاء، ولكنـه، بعد أن رآها تكاد تتحول إلى شـبح لشـدة ضعفها وشـحوبها، أخذهـا إلـى المدينـة. هنـاك، فـي المختبـر، قامـوا بفحـص دمهـا (ESR إي أس آر) فوجـدوه متلوثـاً بنسـبة عاليـة (120) وأن فيـه تسـمماً. أخـذوا، فـي المستشـفى، عينات من الغـدد اللنفاوية من تحت إبطهـا ومـن الرقبة، وبعد التحليل المختبري، اكتشـفوا أنها هي الأخرى مصابـة بسـرطان الغـدد اللنفاوية، وهكذا بدأت رحلـة علاجها المكلفة. جرع كيميائية تُزق في بدنها مع المغذي على أن يجري ذلك كل واحد وعشـرين يوماً، وبعد الفحص، بعد عشـرة أيام من كل جرعة، يقومون بإعـادة تحليـل دمهـا فكانوا يلاحظون نسـبة انخفاض في التلوث لتكون بين (60 و 70)، وأخبرهم الطبيب أن نسبة نجاح العلاج معها والشفاء تصـل إلـى أربعيـن بالمائة. كانت أم قسـمة تبكي ليلاً خوفاً من الموت، وهو يقول لها سنواصل العلاج ولو كانت نسبة الشفاء واحد بالمائة.

تنتابها موجة من التقيؤ والإسهال بعد تناول كل جرعة. أمروها أن تكف عن العمل وبالاسـتمرار بالعلاج على هذا النحو، على الرغم من

تكاليفه الباهظة، الأمر الذي دعا إبراهيم للمزيد من بذل ما بمقدوره من الجهد في الحقل، كذلك المشاركة في بعض أعمال البيت التي كانت تساعده فيها أحياناً ابنته قسمة، وتناوب شقيقاته، المتزوجات في بيوت أخرى، على الزيارة والمساعدة في شؤون المنزل ومداراة الأم.

كانت حياة إبراهيم تسير على هذا النحو الشاق الذي اعتاد عليه بالتكيف وفق منهجه بالتحمل والصبر ونسيان الذات.. حتى تحول العناء إلى روتين امتد لأعوام بلا جديد.. إلى أن قطعته عودة عبدالله كافكا من أسره الإيراني.

- 8 -

عودة كافكا من الأسر

لا أحد في القرية سينسى ذلك المشهد أبداً. خمس دقائق بكى وضحك فيها الحاضرون. لحظة وصول عبدالله كافكا وعناقه مع إبراهيم قسمة وطارق المندهش وسط الحشد. كانت رؤوسهم مجتمعة كأنهم يتهامسون وأذرعهم تحيط بأكتاف بعضهم البعض، أكف تربت أو تشد احتضاناً وأكتاف هذا المثلث تهتز مرة ضحكاً وأخرى بكاء، وإذا ارتفع أحد الرؤوس قليلاً فإنما ليقَبل الآخر. بعض الحاضرين من الرجال وكل الحاضرات من النساء أبكاهم المشهد وهم بانتظار انفكاك هذا الاشتباك المؤثر كي يأتيهم دورهم بالسلام على العائد من الأسر بعد ما يقرب العشرين عاماً. أحد الحاضرين علق:

- ها هم أبناء شق الأرض يجتمعون مجدداً بعد فراق طويل.

وأجابه آخر: أبناء شق الأرض يعودون إلى أرضهم، إلى أمهم.

في ذلك المساء أقيم احتفال ضخم في باحة بيت عبدالله، أكبر من أي عرس وأكبر من ذلك الاحتفال الذي أقامه صالح ومريم حين وجداه رضيعاً. ذُبح عجلان تبرع بهما إبراهيم والسيدة زينب، وكبش سمين تبرع به طارق. الطباخات كل نساء القرية والمدعوون المحتفلون كل أبناء القرية. قيل لعبدالله، بعد انفضاض عناقه الطويل لصاحبيه، أن السيدة زينب في الطريق إليه، عمياء، دليلها أحد أحفادها وتتعكز، فانطلق من فوره تاركاً الجميع، تقوده مجموعة في الدرب إليها، وهناك، في منتصف زقاق ضيق بكوا أيضاً وهم يشهدون عناق السيدة زينب لعبدالله ونحيبهما. كانت تتشممه من رقبته وصدره وأصابعها الراعشة

تجوس كل بدنه، ملقية عكازها وقابضة بكفها على وجه عبدالله هاتفة: ولدي.. حبيبي، ولدي.. يا حبيبي، ما مرت بي لحظة صحو لم أنتظرك فيها والدمع جاري. فقدت نظري.. فما نفعه في غيابك!

لمست أصابعها ذقنه وسألت: هل هي بيضاء؟

فقال عبدالله مبتسماً وهو يسندها بذراع وبالأخرى يقرب رأسها إليه مقبلاً جبينها:

- نصف ونصف.. أبيض وأسود.

في المجلس، حيث عشرات البُسط والسجادات في فناء الدار، جلس عبدالله في المنتصف وأجلس على جانبيه العمياوَيْن وأكبر أهل القرية سناً: أم إبراهيم والسيدة زينب، التيَ لم تكف عن تلمسه وتقبيله بين برهة وأخرى. للحظة فكر كيف أنه بين عمياوين، ظلامين، الولادة والموت، وقد اعتاد على أن ثمة رموزاً في الكون دائماً.

بعد أن انتهى الجميع من تناول الطعام واحتساء الشاي ورفع الأواني والأقداح تعالى الصخب والتصفيق والزغاريد وقهقهات، فسألت زينب عبدالله: ماذا يحدث؟

قال وهو يفتعل التصفيق والابتسام معهم فيما عقب السيجارة معضوضاً بين أسنانه:

- إنه الطيب المسكين إسماعيل الراعي، يرقص بعصاه كالممسوس وسطَهم ويثير ضحكهم بحركاته.

فقالت وعيناها توشكان على الفيضان:

- أوه.. يا سبحان الله، إن الدم يَعرف الدم، إن القلب يعرف القلب ويحن إليه.

- قال: لم أفهم يا خالة.

فلفت ذراعها على رقبته وسحبتها حتى لامست أذنه شفتيها وقالت:

أنا لست خالتك، إسماعيل هو خالك الحقيقي. أما أنا فجدتك.

أربكه ما سمع وشعرت هي بتشوشه فأعادت سحب رقبته، وأضافت:

- لا تظن بأنني قد صرت أخرف لأنني كبرت بالسن، فما أبقاني حية حتى الآن، وقد مات أبناء جيلي، إلا انتظارك كي أخبرك بحقيقتك وارتاح. اسمع يا ولدي، تعال إلي في أقرب وقت، غداً أو بعده كي أخبرك بكل شيء.. كل شيء.

ومن صمته، أدركت ما أحدثته كلماتها من صدمة فيه وربما شعرت أنها قد تسرعت بما قالت، ولكنها تعرف أن ما في صدرها صار أقوى من قدرتها على احتمال مواصلة كتمه، فحاولت الخروج من الموضوع اللحظة.

- سعيتُ بكل السبل لتزويج المسكين إسماعيل، لكن الجميع يرفض تزويجه بابنته أو أخته، قائلين بأنه أبله وبالكاد يعي تدبير نفسه، وفي الحقيقة، هو نفسه لم يفكر بالأمر ولا يخطر على باله ولا أظن بأنه يعرف ما هو الزواج حتى...

صمتت قليلاً ثم قالت: أنت الذي عليك أن تتزوج الآن، سميحة مُطلّقة إن كنت لا تزال تحبها.. أو تختر مَن تشاء.

قال: لا.. لا أريد الزواج، لقد تجاوزت هذه المسألة وتجاوزتني، أريد أن أرتاح فقط.. أن أرتاح.

قالت: اسمع يا ولدي، أنت مُتعَب الآن وأمامك سهر هذا الحفل، وأنا أيضاً مُتعَبة، عليّ أن أذهب. لا تنس أن تزورني في أقرب وقت، هذا ضروري، سأخبرك بالحقيقة، حقيقتك التي لا يعرفها غيري سوى رب العالمين.

- نعم، نعم سأفعل بالتأكيد.

- أتعرف، لقد أدركتُ شيئاً، وهو: أن لا أحد يموت إلا إذا أراد

هـو ذلـك أو أنه استسـلم في داخله وصار يتقبـل فكرة الموت، يتوقعها وينتظرهـا. والدليـل أنـا، قـررت ألا أمـوت إلا بعـد أن أراك.. وها أنت تراني آخـر الأحيـاء مـن أبناء جيلـي. ثم انتبهت وأضافـت: آه، وتتبعني في العمر هذه العمياء الأخرى، الطيبة أم إبراهيم.

- والعكس صحيح أيضاً، أحياناً يكون الإقرار بالموت هو انتصار على قلق انتظاره.

لم تسـمعه، فقال:

- أمـا أنـا فقـد أدركـت أن القناعـة باللامعنـى وتسـاوي الأشـياء، تساوي أن تكون حياً أو ميتاً هو الذي يجعل وطأة الحياة وعذاباتها بلا أثـر حقيقـي، فيـؤدي الأمر إلى النجاة، وإن كانت هذه النجاة من عدمها بالنسبة لك سواه.

- من كلامك، كأني أرى وجهك وعينيك، أرى التعب والشيخوخة مهيمنتان..

وبنوع من المزاح وهي تجاهد للنهوض:

- أنظر.. أنا شابة أكثر منك.

نهض معها يعينها وسلمها العكاز. تعانقا، وبغتة بزغ الصبي الحفيد من بين سيقان المحتشدين ليقودها.

استـمر الحفـل الصاخـب إلـى ما بعـد الرابعة بعـد منتصف الليل. زغاريد ودَبك ورقص على إيقاعات طبل وزمار وشاي وضحك، الجميع، فرداً فرداً، مروا بعبدالله وصافحوه، تبادلوا معه التحيات وهنَّؤوه بسلامة العودة. حاول البعض، لأكثر من مرة، أن يشركه بالدبكة ساحباً إياه من ذراعـه، فـلا تنفـع ممانعته وعدم رغبته، حيـث يضطر للنهوض مجاملة، يتحرك حركتين ويقول: كما ترى فأنا لا أعرف.. ثم أني تعبان شوية.

فيعاود الجلوس والتدخين. كان يشـعر بغربة تامة عن هذا العالم، عـن هـؤلاء. يعـرف بعـض الوجوه التي وجد أنها كبـرت كثيراً، وأغلب

ا، حوه لا يعرفها، فثمة من تركهم أطفالاً وصاروا شباباً وعشرات الأطفال ممن ولدوا أثناء غيابه. فشلت جل محاولته للتشخيص، حيث يظن الوَلَد أباه، يقول هذا فلان، أليس كذلك؟ فيقولون له: هذا فلان، الا تعرفه؟! هذا ابن فلان، ألا تتذكره؟!

إنه يقدر هذا الاحتفال الضاج من أجله، يقدر طيبتهم وكرمهم.. لكنه في الحقيقة، لم يكن راغباً بكل هذا، ولا يعني له شيئاً على الإطلاق. كان يتوق للانعزال في زاوية أو أرض خالية من البشر، لوحده. لقد اعتاد الصمت والعزلة والوقت الميت، فلا وجود للوقت في داخله، وإن كان كل وجوده ملموم في داخله. لا معنى لحركة الأشياء، لا معنى لشيء ولا لما يمكن أن يكوّن حركة الزمن. كان يحتمل طيبتهم الصاخبة هذه بتفهم.. وعلى مضض. ليس أمامه خيار آخر، لأنهم، هم بالمقابل لن يفهموه أبداً، لذا فعلى الأقل، ليمارس هو فهمه لهم.. ولو الآن، وحتماً ستتاح له، لاحقاً، حرية العودة إلى حرية كآبته الخاصة.

حين كانوا يطالبونه بأن يحكي لهم عن أعوام أسره في إيران، يبدي بوضوح عدم رغبته في ذلك، ويكتفي بالقول:

- باختصار، كانت أسوأ من أشد الكوابيس سوءً. الأحسن نسيانها ورميها خلف الظَّهر.. أليس كذلك؟

وبالطبع، فإن السائل، اللطيف والمجامل أصلاً، سيؤيد قوله:

- نعم، نعم بالتأكيد، نسيانها أفضل، النسيان نعمة عظيمة من الله. اعتبرها من الماضي، وخلاص. ابدأ حياة جديدة. المهم هو أنها قد انتهت وبأنك عدت سالماً والحمدلله.

تتردد كلمة (الحمد لله) كثيراً، التي طالما سمعها في أعوام أسره حتى فقدت معناها بالنسبة إليه. حين انفض الجمع، حيث حمل كل واحد ما أتى به معه: بساطٌ، سجادة، وسائد، أواني، ملاعق، أقداح.. وغيرها. عرضَ إبراهيم وطارق على عبدالله أن يَبِيتا معه، إن شاء، لكنه

شكرهما وقال:

- لقد فعلتما الكثير، أنتما مُتعبان وأنا أيضاً، اذهبا لترتاحا وأمامنا أيام قادمة.. أنا كذلك سأذهب لأنام.

ولـم يستطع النـوم، فمـا أن أغلـق بـاب البيـت خلفـه حتـى راح يتفحـص، فلـم يجـد شـيئاً قـد تغيـر عـن مكانـه. كل شـيء كمـا تركه، باسـتثناء أنه صار قديماً ويكاد يَبلى. السـتائر والفرش والوسـائد وحتى خشـب الخزانة والأبواب والشـبابيك. عناية السـيدة زينب، ومن بعدها إبراهيم والمؤجر، كانت واضحة من حيث أنهم تركوا كل شـيء نظيفاً ومرتباً على ما كان عليه.

وجـد عبدالله نفسـه يعيش واقعاً في مناخ الذكريـات التي طالما اجترها في أعوام أسره. هنا لعب صغيراً، هنا اختبأ، هنا غفا على فخذ أمه مريم وهي تمسـد فروة رأسـه أمام دفء الموقد، هنا لعب الشـطرنج مع أبيه صالح، هنا، وهنا وهنا... ثم أطفأ الضوء واستلقى على السرير بكامل لباسه. راح يدخن في الظلمة ويستمع إلى الصمت واللاشيء في داخلـه. يدخـن سيجارة عقب أخرى، سيجارة من عقـب أخرى متلذذاً بحريتـه فـي فعـل ذلـك وتوفر الدخـان الذي طالمـا كان الحصول عليه وتدخينـه مهمـة شـاقة بحد ذاتها في الأسـر مصحوبـة بالإهانات والذل والابتـزاز. أراد أن يُعبـئ الحجـرة بالدخـان، أن يحولهـا كلهـا إلى غيمة أو إلـى سـيجارة وهـو فـي داخلهـا.. بحيث يصبح مجرد تنفسـه العادي فيها تدخيناً.

الصمت في الخارج، الدخان في الداخل والفراغ في ذهنه، لا شيء على الإطلاق، ومع ذلك لم يغمض عينيه وظل محدقاً في الظلام.. إلى أن شقه خيط الفجر المتسلل من بين لوحين خشبيين في النافذة، فأتاح لـه ذلـك تأمـل حركة أمـواج الدخان على حواف عصا النور الذي يزداد بتدرج يعرفه لكثرة ما شـهد طلوعاته في معسـكرات الأراضي البعيدة.

وظـل علـى هـذا النحو إلى أن سـمع وقع خطـو متباين في باحة البيت، فنهـض وقـرب إحـدى عينيه من شـق النافذة بهدوء. نظـر إلى الخارج، فـرأى إبراهيـم يحمـل بيده كيسـاً يجمع فيه ما تبقى مـن نفايات احتفال الليلة المنقضية؛ أعقاب سجائر وعُلب فارغة وعِظام وكِسر خبز ومناديل ورقيـة.. ولاحـظ أنـه يعرج في مشـيته. تُحدث إحـدى قدميه وقعاً صلباً عند اصطدامها بالأرض فيما الثانية صامتة. ظل يتأمله لبرهة مقارناً إياه بصورته التي طالما استعادها في أسره بشوق. وجده أكثر تعباً وشيخوخة وقد تحدب أعلى ظهره بعض الشيء، لكنه رأى في وجهه ملامح الهدوء والطيبة ذاتها.. وكأن روحه قد قُدّت من مادة لا تتأثر. شعر بحب أكبر لـه، اجتاحتـه عاطفـة جاشـت في صدره حتى كادت تسـفح دمعاً. فهدّأ قلبه، تنفس بعمق ثم توجه إلى الباب وخرج.

- ماذا تفعل يا إبراهيم؟ اترك هذا يا رجل.

- لم أسـتطع النوم من شـدة فرحي بعودتك فجئت قربك أتسـلى بتنظيف هذا.

أخذ عبدالله الكيس من يده والمكنسة من الأخرى وركنهما جانباً، ثم قال وهو يقوده من يده:

- اتـرك هـذا الآن يـا أخي.. أنا أيضاً لم أسـتطع النوم.. تعال نُعد شاياً.

وقبل دخولهما سأله:

- لماذا تعرج؟

- لقد فقدت قدمي في الحرب الأخيرة، وهذه قدم اصطناعية.

- أوه، يا للأسف.

- أنا بخير، آلاف غيري فقدوا حياتهم.

وحال الدخول، استقبلت موجة الدخان إبراهيم:

- ما هذا.. أثمة شيء يحترق؟!

ضحك عبدالله:

- لا.. لا، هذا دخان سجائري، كنت أنتقم أو أعوض سنوات قحط التدخين.

- لا.. يا عبدالله، عليك أن تفكر بتركه، إنه مضر بالصحة، إنه قاتل، قد يسبب لك السرطان في الحنجرة وتتعذب وتموت.

- أعرف هذا ولا يهمني، لم يعد الموت يقلقني منذ زمن بعيد، الحياة والموت بالنسبة لي سيان.

- حسناً.. أنت أعد الشاي وأنا أواصل التنظيف، ثم هاته إلى الحوش لنشربه في الخارج.

كانت هدايا الأمس من الأطعمة كثيرة في المطبخ، فأخذ منها عبدالله قطعة جبن وزبدة ورغيفي خبز صفها مع إبريق الشاي والكأسين في صينية واسعة، ثم سحب من الصالون بساطاً صغيراً وتوجه إلى إبراهيم. هناك، جلسا قرب شق الأرض الذي لازال يفغر فاه، لا تغيرات فيه سوى تَثلُّم حوافه التي أصبحت أكثر نعومة.

حدث إبراهيم صاحبه بكل ما جرى له منذ غيابه، حدثه عن أعوام الحرب العراقية الإيرانية، عن حرب الكويت، عن أحمد النجفي، عن قدمه الجديدة، عن مرض زوجته، عن مقتل أخيه وديع، عن موت والده الذي أطال في وصف معاناته مع المرض، عن قصد، البصاق الدموي والسعال وصعوبة البلع والتنفس، مُطرزاً كلامه بين عبارة وأخرى بإعادة نصح عبدالله بترك التدخين، وهذا يرد عليه بطلب الكف عن ذلك، فالتدخين تسليته ولذته الوحيدة، وأنه يفهم والده، ولو حدث له ما حدث لوالده فسوف يتخذ الموقف نفسه، مفضلاً الموت برفقة التدخين على الاكتفاء بمرافقة المرض والأدوية حياً، وقال له في محاولة منه لإيقافه عن تكرار نصحه هذا:

- ثم انظر زوجتك، فالمسكينة لا تُدخن وها هو السرطان يصيبها

أيضاً.

قال إبراهيم:

- ولكن هذا سرطان مختلف.

ثـم صمـت. عندهـا لجـأ عبدالله إلـى أسـلوب صاحبـه بالاقتناع والإقناع، وكنوع من التخفيف من حدة ما قال:

- أرأيت.. لا علاقة للتدخين بالأمر، كل له قَدَره، كل شيء قسـمة ونصيب.

فردد إبراهيم: نعم، كل شيء قسمة ونصيب.

ثم أخرج من جيبه كيسـاً قماشـياً صغيراً منتفخاً. فتحه واسـتل منه رزمة أوراق مكتظة بالجداول والأرقام والعبارات المكتوبة بخط رديء، عرف عبدالله أنه خط إبراهيم، ورزمة أخرى لفواتير بأختام، كما لاحظ، عنـد فتـح الكيـس، بأنه كان مليئاً بالأوراق النقدية. دفع إبراهيم بالكيس إلى عبدالله قائلاً:

- هـذا هـو نصيبـك.. وفـي هذه الأوراق تجد كل شـيء مسـجلاً منذ أن بدأتُ باسـتثمار أرضك بعد وصول رسـالتك، وهذه فواتير شـراء البذور والأسمدة وبيع المحاصيل، وهذه فواتير تأجير البيت، وهذه..

فقاطعه عبدالله وهو يأخذ رزم الأوراق والفواتير من يده:

- خلاص يا إبراهيم، لا داعي لأن تُفصل لي شـيئاً، فأنت لسـت مطالَباً بإثبات أي شيء لي. أنت أخي وأنا ممتن لك بشكل أعجز حتى عن التعبير عنه.

ثم مزق الورق المكتوب وألقاه في الشق دون أن ينظر فيه، ودفع بكيس النقود إلى كفي إبراهيم مجدداً.

- وهـذا كلـه لـك، إنـه نصيبـك أنـت وتعبـك، فأنا لم أفعل شـيئاً لأكسـبه، ويكفيني أنـك رعيت أرضي وبيتي فـي غيابي بدل أن يأكلهما الإهمال.

- لا.. لا.. هذا حقك، وأنا لم أقم إلا بواجبي، ثم أني استقطعت أجري عن عملي.

- هذا كله لك، جهدك وحق لك أنت، وأنت أشد حاجة مني إليه، نحن أعطتنا الحكومة بعض المال عند وصولنا، كما أني سأتقاضى راتباً تقاعدياً، وكما ترى فليس لدي متطلبات كثيرة ولا عائلة تستوجب مني الصرف. خذه إنه نصيبك وأنت أحق به.

وحين وجد إبراهيم يصر على رفض أخذ الكيس، فتحه وقبض من بين دنانيره ما قدَّر أنه النصف تقريباً، وضعه في جيبه ودفع إليه بقية الكيس:

- حسناً، إذاً نتقاسم، هكذا لا على التعيين. خذ هذا مني ولو باعتباره مساهمتي في تكاليف علاج أم قسمة على الأقل، أما شكري لك وامتناني فلا يُقدر بمال ولا تفي قوله الكلمات.

عندها عانق إبراهيم عبدالله بقوة وهما جالسين، مردداً كلمات الشكر وإبداء الاستعداد لتقديم المساعدة بما يشاء، وأن لا يهتم لشيء لأنه الآن بين أهله، وختم:

- أنت أخي يا عبدالله، وأنا معك في كل شيء وفي ترتيب حياتك من جديد.

- أعرف يا إبراهيم، لا تقلق، حياتي هكذا مُرتبة على ما يرام، فليست لدي أية أفكار أو خطط أو مشاريع معيّنة.

- لا.. كيف يا أخي؟! والزواج؟ وتكوين عائلة؟ والحقل؟.

- لا زواج ولا تكوين عائلة، أما الحقل فواصل أنت استثماره على طريقتك.

- أنا كما ترى لم أعد أملك القوة الكافية على فعل ذلك، والذي يقوم به الآن هو أخي، أما أنا فأشاركه بفعل القليل وبعض الإداريات، وهو يشكو أيضاً من ثقل العبء عليه لأن العمل في حقلنا يقع على

عاتقه أيضاً.

- إذاً جد لي أنت من تشاء من أبناء القرية ليقوم باستثماره وبالحصة وبالطريقة التي تراها، فأنت أعلم مني بهذه الأمور.

- ولكن..

- خلاص يا إبراهيم، بالنسبة لي، يكفيني ما عندي أو ما سيردني لتوفير ثمن سجائري والأكل، فليس لدي رغبات أو طموحات ولا أحلام أخرى، لا رغبة لي بأي شيء على الإطلاق.. وليس لدي مشاكل ولا أريد أن تكون لي أية مشكلة وصداع رأس. كل ما أرغب فيه هو السلام.. نعم، السلام يا إبراهيم.

وقبل أن يعلق إبراهيم بشيء، دخلت إلى الباحة سيارة، توقفت قربهما وترجل منها طارق بكامل أناقة الزي القروي، رافعاً ذراعيه بمرحه الصاخب وعطره يسبقه إليهما.

كانت الشمس قد بدأت بالطلوع. دنا منهما وحياهما مربتاً على كتف عبدالله، ثم توجه بالكلام إلى إبراهيم:

- آه، لقد سبقتني إليه.. لماذا لم تخبرني يا لئيم؟

أفسحوا له جوارهما على البساط، فجلس، وبعد أن رمق الشق قربهم، علق وقهقه بحبور:

- أهاها.. وأخيراً أبناء شق الأرض يجتمعون كعائلة.

ثم أضاف غامزاً:

- أوه، كم أحب الشقوق.. الشقوق وليس الشِقاق.

ضحكوا وقال إبراهيم بمحبة:

- أرأيت هذا المندهش؟ مازال يتفلسف كما هو.

وأضاف طارق:

- ولكن للأسف يا عبدالله، فأنا لا أملك حتى الآن إلا شقاً واحداً... ما رأيكم أن نجدد نحن الثلاثة أسِرَّتنا ونبحث عن شقوق

جديدة، نتزوج في ليلة واحدة ونقيم عرساً واحداً مشتركاً؟

- خذ شايك.. هل أفطرت؟

لقد قلب طارق مناخ الجلسة إلى مرح حي، يدعمه هذا الضوء الصباحي الأخاذ والشاي الساخن. وضع كفه على كتف عبدالله وقال:

- اسمع، جئت بالسيارة لنأخذك في جولة شاملة، سنريك القرية كلها ومرابع الطفولة والنهر والحقول وكل شيء، كل شيء.

وعلى مدى الصباح، حتى الظُهر، تجولوا بين الأزقة والبيوت. هذا بيت فلان، هل تذكره؟ هذا بيت جديد، إنه لفلان بن فلان. فلان تزوج فلانة، لديهم الآن خمسة أطفال. فلانة ترملت، قُتل زوجها في آخر يوم من إعلان وقف الحرب مع إيران، وتزوجت من فلان، الآن لديهما ثلاثة أبناء. هذا بيت فلان، نطحه ثوره ومات، ابنه الكبير تزوج من فلانة ابنة فلان. هذا القصر هو لمنذر بن الحاجّة وحيدة، اشتغل بالتهريب مع الأكراد وصار غنياً. هذا دكان الحاج راضي، من هنا كنا نشتري الحلويات والبالونات والألوان، هل تذكره؟ لم يتغير، أليس كذلك؟ هو مات، يرحمه الله، والآن تقف فيه ابنته، إنها جميلة، لديها صدر عامر، تريد أن تراها؟ هذا بيت جابر وهذه البيوت الثلاثة المجاورة له، بناها لأبنائه. كلهم في حوش واحد، أراد أن يبقوا تحت جناحيه..

حدثوه عن الكثيرين، عمن مات أو قتل أو تزوج أو أنجب أو اغتنى أو افتقر، وحين خرجوا إلى البر. أدرك كم أن القرية قد كبرت وتغيرت. أخذوه إلى التلال والوديان والآبار التي كانوا يصطادون فيها الحمام والقطا واليرابيع في صباهم. هنا كان يقيم أبو فهدة البدوي خيمته. هل تتذكره؟ ها ها ها تتذكر فهدة أليس كذلك؟ لم يعد يأتي إلى القرية منذ أعوام.. خسارة.

لاحظ حتى أن التلال والوديان والبراري والآبار قد تغيرت، شعر بأنها قد أصبحت أصغر مما كان يعرفها وبأنها أكثر هرماً وموتاً وعادية.

عرجوا به عبر القرية مرة أخرى ونزولاً إلى ما بين الحقول باتجاه النهر. كانوا يُحيّون من يمرون به من الفلاحين والفلاحات والرعاة والصبية اللاعبين قائلين له هذا فلان أو ابن فلان أو هذه فلانة زوجة فلان ابن فلان، أو أنها ليست متزوجة. رأى عبدالله رجلاً نحيفاً ملتحيا، منفوش الشعر، متسخ الثياب.. يبدوا عليه أنه معتوه، يقعي على الأرض ويستند على جدار طيني حاكاً شعفته أو هارشاً إبطيه، وجهه ليس بغريب عليه، كأنه يعرفه ولكنه لا يتذكر من هو، فسألهما عنه، لكنهما غيرا الموضوع دون إجابة وواصلا سكب معلوماتهما التعريفية الأخرى. هذا حقل داوود، في العام الماضي أصابت زرعه ديدان غريبة.. المسكين. وهذا حقل ضاري.. نعم كله له، هو أكبر لأنه اشترى حقل مسعود المجاور له فمسعود تزوج من موصلية وانتقل إلى هناك. هذا هو حقلنا، لنأخذ بطيختين. هذا هو حقلك.. هل تريد النزول لرؤيته؟

قال: لا.. خلاص، أراه من هنا.. لنذهب إلى النهر الآن.

يشعر باغتراب آخر، فكل ما كان يستعيد ذكراه في أعوام الأسر، وجده قد تغير تماماً، الأشجار والحصى والتراب والسماء والهواء قد تغيرت.. لقد تغير كل شيء.. وما عَرف كيف يسمي أو يؤطر المشاهد التي طالما استعادها في ذاكرته، أين هي؟ ما معنى ما كانت عليه؟ إلى أين ذهبت تلك المشاهد؟ هل كان يعتاش على اجترار صور لواقع لا واقع له؟ إلى أين ستذهب كل تلك الذكريات الراسخة بعد الآن؟ كانت الإجابة أو الحل الذي يريحه هو ما ينسجم مع حسه بالعبث والعدمية واللامعنى وتساوي الأشياء.. وماذا يعني؟ فكل شيء يبدو غريباً، لا واقعياً وزائلاً.. وجوده وعدمه سواء.

فقط، حين وصلوا إلى النهر، شعر بأن الماء وحده لم يزل كما كان دائماً.. نعم، الماء هو نفسه وإن تغيرت الضفاف والدغل والدروب والجروف. خفق قلبه للماء بشكل لذيذ. أوقفوا السيارة على الشاطئ.

كانت الشمس في منتصف السماء عمودية، واقترح طارق أن يسبحوا ويلعبوا بالبطيخ في الماء، كما كانوا يفعلون في صباهم، في تلك الظهيرات البعيدة. خلعوا ثيابهم، ظَهْر عبدالله محروث بآثار ضرب السياط والكدمات، وحين نظروا إليه بمغزى وأسف، قال: هذه بعض هدايا الجمهورية الإسلامية إلى ضيوفها.

نزلوا إلى الماء على مهل ثم سرعان ما راحوا يصخبون باللعب والمرح كأنهم يعيشون تلك اللحظات العتيقة، كأنهم لازالوا صِبية. الماء نفسه وهم أنفسهم، الغبطة والقهقهات. الفرق هو الزمن الذي جرى فيهم وعليهم، وفي وعلى كل شيء. تقاذفوا البطيختين كي تبردا. علق طارق:

- الفرق الوحيد هو أن هذه البطيخات ليست مسروقة.. كانت المسروقة ألذ.. لا أدري لماذا؟

بعد ساعة من السباحة تقريباً، خرجوا إلى الشاطئ، جلسوا على فسحة من الرمل في ظل أشجار الغَرب والطَرفة، وعلى فرشة بلاستيكية، أتى بها طارق من السيارة، فتحوا البطيختين بضربات من قبضاتهم، كما كانوا يفعلون.. قديماً.

هناك.. طالبا عبدالله أن يحدثهما عن أعوام أسره. لم يكن راغباً بفعل ذلك أصلاً، لكنه فكر بأنه مُطالب به، على الأقل لصديقيه، وخاصة بعد أن حدثاه عن كل ما يتعلق بهما وعن القرية، وفكر؛ أنه برويه لهما ما حدث معه، سيزيح عن نفسه عبء هذه المسألة.. مرة واحدة وإلى الأبد. سيروي لهما ما يستطيع بإيجاز.. ولهما فقط، وإن شاءا أن ينقلاه هما إلى الغير فلهما ذلك.. بل ربما أنه سيَبعث إليهما مَن سيلح عليه بالأسئلة من الناس.. لأنه شخصياً، لا يريد استعادة ذلك أبداً.

وهكذا راح يروي لهما، على الرمل البارد وحول البطيخ البارد في الظل البارد.

- 9 -

ضيوف الجمهورية الإسلامية

قال:

كما تعلمان، كان الجيش العراقي يتوغل في الأراضي الإيرانية لمساحات شاسعة، فيما الجبهة عريضة طويلة وليس ثمة قوات كافية لتغطيتها كلها. تلك من الأخطاء العسكرية القاتلة التي راحت ضحيتها آلاف الأرواح. فلم يكن يهم حكومتنا سوى الإعلان في إعلامها عن انتصارات، حتى وإن كانت وهمية أو بلا قيمة واقعية كصعود جبل، نزول واد، اجتياح قرية مهجورة أو مجرد التقدم في براري خاوية، فاستغل الإيرانيون ذلك وأخذوا يلتفون حول القطعات العراقية ويأسرون منها أعداداً هائلة، بينما حكومتنا المهووسة تواصل..

قاطعه طارق: عفواً عبدالله، أنصحك ألا تتحدث على هذا النحو، أنت تعرف ما أقصد، نحن هنا أصدقاؤك وبيننا ثقة تامة، ولكنِ احْذر التكلم هكذا أمام غيرنا، أقول ذلك خشية عليك.. أنت تعرف.. تعرف ما أقصد.

ابتسم عبدالله بمرارة: نعم، نعم أعي ما تقول.. اطمئن فأنا بالأصل لا رغبة لي بالكلام عن أي شيء، وعن هذا الأمر بالذات.

- لا.. لا، واصل حديثك أرجوك، فأنا فقط قصدت تنبيهك.

- ههه.. أقول خطأ!.. عموماً، أية حرب هي خطأ أصلاً، بل جريمة، الوجود نفسه بالنسبة لي خطأ.. أو على الأقل وجودي أنا هو الخطأ في هذا العالم.

تلاقت عيونهم بتفاهم.. فواصل:

- عموماً.. حين أدركنا بأننا محاصرون تماماً والقنابل والرصاص ينهمر علينا من كل الجهات، ومن السماء فيتساقط العديد منا تباعاً وذخيرتنا تنفذ. كان من العبث مواصلة القتال، لأنه انتحار، ونتيجته المؤكدة لن تكون سوى إبادتنا جميعاً، فاستسلمنا. أحاطت بنا جحافل غفيرة من الإيرانيين، انقضوا علينا كانقضاض الأسود الجائعة على أرانب مرتبكة. صَفّونا طوابيرَ. كانوا في غاية الهياج والابتهاج، يطلقون الرصاص في الهواء وعلى الأرض وعلى كل من يتحرك منا. كانوا يتسابقون فيما بينهم للقبض علينا، ضربنا، تسليبنا، خلع ساعاتنا، الخواتم، المحفظات.. وكل ما في جيوبنا وبعض الملابس. بعضهم استبدل جزماته بالتي في أقدامنا حين وجدها أفضل. كنا في أوج الرعب وهم في أوج النشوة والاحتفال، تتعالى صيحاتهم، ومنها شتائم لنا بالعربية. بعضهم كان يتسلى بركلنا والضرب بأخمص البنادق والبصق في وجوهنا.. لا أدري كيف لإنسان أن يكون على هذا القدر من الفرح لأن إنساناً آخر خائف ومرتعب منه وفي قبضته، لاحقاً أدركت أن قسوة الآدمي تفوق وحشية أي وحش آخر.

ساقونا مشياً لساعات وصولاً إلى مواضعهم الخلفية، كنا بالمئات، ينقص عددنا واحداً في كل خطوة تقريباً، ولأتفه سبب، أو لتسليتهم أو لهذا النزق السلطوي المجنون في روح ابن آدم، تاركين جثة من يسقط في العراء، والجريح يقضون عليه برصاصة اللارحمة في الرأس أو يتركونه لنزفه حتى يموت.

هناك، صَفّونا في دائرة واسعة واختاروا أحدنا عشوائياً. ربطوا ذراعيه بسيارتين، ثم سارت السيارتان على مهل باتجاهين متعاكسين حتى تخلّع جسده، أخذوا من صرخ معترضاً وفعلوا به الأمر ذاته، ثم كرروا مع ثالث ورابع.. حتى أغمي على بعضنا. ما رأيت في حياتي موتاً أشنع ولا أبشع من ذلك!

أمرونـا بالجلـوس وداروا علينـا بالماء نشـرب، ثـم انتقى جنرالهم الملتحـي خمســة منـا، وأمر ســائق جرافة أن يحفر فـي المتصف، ألقوا بهـم فـي الحفرة. كانت صرخاتهم وتوسـلاتهم المُســترحمة تمزق قلب ســامعها وإن كان صخـرة، أخرسـوها بـأن أهالـوا عليهم التـراب أحياءً. اجهش صديقي بهنام بالبكاء، وهو طبيب مـسيحي من قرقوش، حرصنا على أن نبقى متجاورين دائماً.

أرادوا أن يكـون مـا فعلـوه عِبـرة لنـا، أنْ يخيفونـا، فـوق خوفنـا، منـذ الصدمـات الأولـى، وبالتأكيـد حققوا ذلـك. كنا رجالاً أشـد خوفاً مـن الأطفـال، مذعوريـن كفئـران في طوفان، وأكثـر فزعاً من دجاج في قفص ابن آوى. بالنسبة لي، أقرّرت في داخلي أنني ميت.. وما هي إلا مسألة وقت، لذا لـم تعد تهمني الإهانات والضربات والجوع والتعذيب. اعتبرت نفسـي ميتاً مؤجلاً، وأن كل ما يحدث لي من أوجاع وما أحظى به من وقت إضافي في الحياة، ما هي إلا إزعاجات زائدة، علي اعتبارها وكأنها غير حقيقية، وما المسـألة، بمجملها، إلا كابوساً في منام مزعج.. وسينتهي في أية لحظة بنوم عميق.. فأرتاح.

قيـدوا أيدينـا إلـى الخلـف، عصبـوا عيوننا ثم نقلونا في شـاحنات عسـكرية، وعندما أزاحوا العصائب السـوداء عن نظرنا خفضاً أو رفعاً، وجدنا أنفسـنا في مدينة، رتل استعراضي في شارع رئيسي. وكان الناس يحتشـدون على الرصيفين وفي الشـرف والنوافذ وفوق السـطوح وهم يصرخـون باحتفاليـة ويقذفونـا بالحصـى والقنانـي الفارغة والسـكاكين والأحذيـة والبيـض الفاسـد وأكياس الزبالة وبما فـي متناول أيديهم من فضـلات. تكسـر بعـض زجـاج السـيارات وجُـرح العديد منـا ولطختنا القذارة. سالت دمائنا في أحواض الشاحنات، تقطرت على بعضنـا وعلى إسفلت الشوارع.

أوصلونـا إلـى معسـكر خـارج المدينـة. منحونـا قطـع خبـز جاف

وجرعات ماء، ثم أجلسونا تحت سقيفة كبيرة من الزينكو وأمامنا منصة عالية نظيفة، سجاد، كراسي، أعلام، ميكروفونات.. وبعد قليل، اعتلتها مجموعة رجال يتوسطهم ملتح معمَّم عرفنا أنه أكبرهم، فيما الباقون مساعدون وحرس وحاشية. قيل لنا أنه مدير الأمن العام. جلس، حيّانا بالسلام ثم بدأ يخطب بنبرة هادئة مُهدئة مُرحبة مطَمْئِنة، وقال: أهلاً وسهلاً بكم بين إخوتكم، نعلم بأنكم أُجبرتم على قتالنا، ونحن هنا لا نعتبركم ولا نسميكم أسرى، وإنما أنتم "ضيوف الجمهورية الإسلامية" وسوف تعاملون وفق مبادئ وأخلاق ثورتنا المجيدة...

استرسل طويلاً على هذا النحو المطمْئِن، لذا حين انتهى وأشار لمن لديه سؤال أن يسأله، انبرى له أحدنا شاكياً ببراءة:

- هل تعلم يا سيدي كم قُتل منا بلا ذنب منذ أُسِرنا ولحد الآن؟.. لماذا، ونحن لا نعامل أسراكم على هذا النحو؟!

وفجأة، انقلبت سحنة ونبرة المُعمم، فراح يصرخ غاضباً، ولحيته ترتج، بانفعال راعِد حتى صرّت وصَفرت مكبرات الصوت:

- اخرس يا حَشَرة، يا كلب، يا خنزير، يا علماني، أنت كافر ولسانك طويل يستحق القطع.

وعلى الفور، حمله الحراس بعنف من فوق رؤوسنا، ثم سحلوه حتى اختفى ولم نره بعد ذلك أبداً.

في صباح اليوم التالي، نقلونا إلى طهران، في قطار ثبتوا ستائره المسدلة بأشرطة لاصقة. أدخلونا إلى معسكر كبير يُدعى (استاديوم تختي) وهو في الأصل ملعب رياضي يحمل اسم (تختي) أحد ملاكميهم المشهورين. هناك قسمونا وأدخلونا إلى قاعات واسعة. سلمونا كل منا بطانية وصحن ونعل وبدلة خاصة بالأسرى، وعلى الرغم من سعة القاعات إلا أنها كانت تضيق بنا لكثرة ما أدخلوه منا في كل واحدة، يصل العدد أحياناً إلى مائة وأكثر. هناك مرحاض واحد في أقصى

الزاوية، ولسوء الحظ وبحكم التدافع كان نصيبنا أنا وصديقي الدكتور بهنام أمام باب المرحاض، فنضطر لتجرع الرائحة وسماع الضراط وبقبقة الخراء ليل نهار، وثمة من يتعثر بأقدامنا في ظلمة منتصف الليل وهو في طريقه إليه. كنا نفترش إحدى البطانيات منعاً للرطوبة ونتغطى بالأخرى معاً حيث ننام متلاصقين.

بعد أيام، انتبهنا إلى وجود بضعة وجوه بيننا لم نكن قد عرفناها من قبل. عراقيون مثلنا، ويعامَلون على أنهم أسرى، لكنهم يختلفون في بعض تفاصيل السلوك ويخطئون بتسميات تشكيلاتنا العسكرية والألوية وحتى الفيالق أحياناً وبأسماء قادتنا وأمور أخرى في داخل العراق، فأدركنا بأنهم من الذين سبق وأن طردتهم الحكومة العراقية بحجة أنهم تبعية ومن أصول فارسية، وقد تم، منذ اليوم الأول، دس هؤلاء (المُسَفَّرين) بيننا للتجسس ومعرفة الضابط من الجندي وصنوف اختصاصاتنا العسكرية، من أي محافظة أو دين أو مذهب، من هو المسؤول أو التابع لحزب الحكومة... وكل ما بإمكانهم جمعه من معلومات عسكرية واجتماعية وغيرها. ولأننا تهامسنا بيننا بعد تشخيصهم، كنا حذرين بالتعامل معهم، تحاشيناهم.

بعثوا إلينا برجال من الأجهزة الأمنية والاستخبارية والحكومية الدينية وممن يسمونهم (المُبلِّغون). يلقون علينا المحاضرات يومياً وكان من بينهم كائن بدين اسمه (أبو زلفى). قال لنا: أبشركم بأن الحرب لن تنتهي أبداً إلا بتحرير العراق ومراقد أئمتنا المقدسة من أيدي كفاركم لتصبح بأيدي مؤمنينا، واعلموا أن لا سلام مع طواغيتكم. بعدها راحوا يفرقون بيننا، والفرز حسب مناطق ولاداتنا والطوائف، ووفقاً لآراء كل منا عن الحرب وعن النظامين العراقي والإيراني. كنا نحاول تجنب كل ما يتعلق بالسياسة والدين لكنهم لا يهدأون. أعادوا تفتيشنا ومزقوا أية صورة وجدوها، سواء أكانت لأشخاص من أهل وأقارب أو مناظر من

العراق، حتى وإن كانت صورة لشاطئ نهر أو نخلة أو مبنى أثري أو تمثال. طلبت من صديقي الدكتور بهنام أن يعلمني بعض الأشياء عن المسيحية لأني ادعيت بأنني مسيحي مثله، تخلصاً من امتحاناتهم. هو الآخر لم يكن متديناً لكنه علمني بعض العموميات التي يعرفها. صنفونا مع الكفار وكان الضغط علينا أخف من غيرنا في البداية ثم سرعان ما راحوا يعذبوننا كالآخرين ويجبروننا على نطق الشهادتين والصلاة وحفظ القرآن والدعاء لإمام ثورتهم وترديد شعارات جمهوريتهم كي نؤمن!

عزلونا عن العالم الخارجي تماماً. لا راديو، لا تلفزيون ولا صُحف، وبالمقابل أكثروا من جلب الكتب الدينية وكراسات إمام الثورة، حتى أقاموا مكتبة خاصة بها داخل المعسكر. أُفضل تسمية معسكر على تسمية (قفص) الشائعة، لا أدري لماذا بالضبط، ربما كنوع من العناد.. أو لأنها حقيقية وقاسية تشعرني بالاختناق أكثر، ربما لأن الأقفاص تدل صراحة على أننا حيوانات، وإن كنت قد صرت على اقتناع بأن الشر والجانب الحيواني في داخل البشر هو أضعاف ما فيهم من إنسانية. يضمر الآدمي في أعماقه حيواناً بدائياً متوحشاً، مربوطاً بحكم المنظومة الخارجية، ولكنه سرعان ما ينفلت في ظروف طارئة يضعف فيها الرقيب، كانقطاع الكهرباء مثلاً أو الفوضى، الحرب أو السُلطة وما شابه ذلك.

كانوا يحصوننا أول الفجر، تليها أربع مرات أخرى في اليوم. يجبروننا على حضور المحاضرات والصلوات وقراءة الكتب الدينية تحت إشراف ما يُسمونهم بـ (المُبَشِرين).

بهنام يقرأ بشكل جاد وبفضول معرفي حقيقي، وفي الليل يهمس لي بكل شكوكه وانتقاداته لما قرأ في النهار. كان يحدثني ويسألني أنا، لأنه لا يجرؤ على طرح ما يفكر به على المحاضرين، أذكر من بين ما قاله:

أنهـم قـد خلقـوا ديناً كاملاً اسـتناداً على أحداث وأقاويل تاريخية جرت بعد رسـالة الرسـول ووفاته، إنه تاريخ وليس دين يا أخي، ولو فصّلت كل مـا هـو دينـي أصلي عمـا هو تاريخي لزالـت كل كتبهم وتنظيراتهم هذه كفقاعة. فقلت له: أنتم فعلتم ذلك في المسـيحية أيضاً. فكر قليلاً وقال: نعم، معك حق، يبدو أن كل الأديان كذلك. أما أنا فكانت قراءتي تختلف، بالأحرى لم أكن أقرأ بشكل حقيقي. كنت أحدق لساعات في أشـكال الحـروف والكلمـات متأمـلاً هذه الرموز الغريبة المدهشـة التي تتكلم بصمت، فكنت أقلدها، أقلد الكتب، الكتابة، الحروف، أي أتكلم بصمت. أفكر بمن اخترعها وكيف ومتى وأين عظامه الآن وبالتالي؛ ما معنـى كل ذلـك لـه. أتخيل عامل المطبعـة الذي صفها، ظروفه العائلية، هواجسـه ومعاناتـه مـن رب العمـل مثلاً. أفكر بالورق كيف أصبح ورقاً ومـن أيـة شـجرة أتـى وما كان لتلك الشـجرة من حياة وظـل وعصافير واحتمالهـا مـن بـرد وحـر.. يعني أشـياء كهـذه كانت تشـط بذهني عند القـراءة، وحيـن أقـرأ فعلاً. أقلب الصفحـات بحثاً عن كلمات وعبارات جديدة أو قوية محبوكة الصياغة، أتأمل جمال بلاغتها، صوتها وأسلوبها أكثر مما أهتم بمعناها. كنت أستفيد من ذلك في تقوية لغتي كي أستطيع التفاهم مع نفسي بشكل أفضل.

كانـوا يجبرونـنا علـى طقوس اللطم والتطبير والبكاء في عاشـوراء بما في ذلك المسيحيين منا. وبالطبع، يحرموننا، نحن الممانعين لاعتناق ما يسـمونه (ولاية الفقيه)، من الماء والطعام والنوم والسـجائر وصغائر يوميـة، كنـوع مـن الضغط علينا، فاعتدنا على ذلك. أما الذين اسـتجابوا فلهم حصة أكبر من الأكل والشرب وتعامل أفضل. بل وراحوا يوكلون إليهم مهام داخل القاعات والمعسـكر، مثل المشـاركة في توزيع الطعام وإدارة المكتبـة، وترتيـب الوضـوء والصـلاة ومراقبة النظـام في الطوابير وداخـل القاعـات والوسـاطة للحديـث بيـن الأسـرى والحـراس وإدارة

المعسكر، ثم صاروا يصنفونهم إلى درجات، فمنهم من يُدعى (الأرشد) والأعلى منه يسمونه (الأرشد كُل) ثم (الدزبان) وهكذا.

وبالتدريج أعطيت لهم صلاحيات الآسر على المأسور فإذا بهم قوة داخل المعسكر، أما من خارجه فيجيء (المبشرون) أو (المبلغون) بشكل يومي، رجَال دين إيرانيون أو عراقيون أو باكستانيون أو لبنانيون أو خليجيون أو أفغان يسوطوننا مباشرة بمواعظهم وخرافاتهم وحكايات وأسماء من التاريخ حتى صرنا نحفظها. يمطروننا بأجمل الإطراءات للنظام الإيراني تقابلها أقذع الشتائم واللعنات لنظامنا، أو يقومون ببثها عبر الإذاعة الداخلية للمعسكر. كان أكثرهم حضوراً ذاك الذي اسمه (أبو زلفي)، وذات مساء، بعد عودتنا من محاضرة له إلى القاعة، همس في أذني بهنام قائلاً وهو يتأفف: والله يا أخي أهلكونا بـ.. أبو زِبي هذا!. فأضحكني، ولا أدري كيف علقت لحظتها: هو بالفعل يشبه زبك غير المختون، معمم وملتح. فانفجرنا بالضحك حتى التفت من كان في القاعة، وكانت تلك أول ضحكات تند عن أحد منذ أسرنا. بعدها صرنا نرى ونسمع المزيد من الابتسامات والضحكات والتعليقات الساخرة التي كانت بمثابة اكتشاف يشيع جواً من الاسترخاء، الراحة والآدمية.. ويخفف من ثقل قهرنا. كنا، أنا وبهنام، ننظر إلى بعضنا كلما ذُكر أبو زلفي ونبتسم. لا تزعل يا طارق، كنا نقصد أبو زلفي هذا بالتحديد وليس نقصد أياً كان غيره ممن التحى وتعَمم. بعدها تم تقسيمنا بين مؤمنين وهم الذين يلينون لهم ويُظهِرون الاعتقاد بما يعتقدون، فيحسنون معاملتهم ومكافأتهم بالمزيد من السجائر والطعام والشراب والبطانيات ونصبوا بعضهم علينا مشرفين. تدرج هؤلاء حتى أخذ بعضهم دور المبشرين ذاته.

أما ما سواهم فهم ضالون أو علمانيون أو كفار أو أتباع أيديولوجية نظامنا الكافر حتى وإن صاموا وصلوا وتجمعهم مع الآخرين قِبلة واحدة.

سيل جارف من الدعاية حول نقاء وطُهرانية الشعب الإيراني الذي يصوررونه لنا على انه المجتمع الذي حلم به الشعراء والفلاسفة والأنبياء وبأنه المدينة الفاضلة والنموذج لتطبيق الشريعة الصحيحة. صار لكل مبشر داخل المعسكرات منافقين ومقربين ومريدين. ينقلون المعلومات عن كل تحركاتنا وهمساتنا إلى السجانين. فيما نحن يتم تجويعنا وتلويعنا نفسياً وجسدياً، ترغيب وترهيب. كنت أضطر أحياناً لغسل الجوارب أو الألبسة الداخلية لأحدهم من أجل بضعة سجائر. تزداد العقوبات على المقاومين للتحول فيوقفوننا في العراء حفاة على الحصى الساخن تحت شمس الصيف، وفي الشتاء، تحت الثلج أو يغرقونا بالماء البارد، الضرب بالعصي، التجويع، الزحف على الكونكريت، السجن الانفرادي، الضرب بالسياط وأسلاك الكهرباء.. والإهانات المذلة الدائمة. وكم منا من سقط ميتاً بسبب التعذيب!. فيما شكلوا من تابعيهم الجدد من الأسرى نظاماً أو جماعات، يسمونهم (التوابين). أجازوا لهم التحكم بنا، فأصبح هؤلاء أشد قسوة وعنفاً علينا من الإيرانيين أنفسهم. يسمحون لهم حتى بالخروج من المعسكر، المشاركة بالاحتفالات العامة، الذهاب لحضور صلاة الجمعة في الحسينيات القريبة أو في الجامعة ومقابلة المسؤولين الكبار ونظموا لهم زيارات للمراقد الدينية فأخذ هؤلاء يمحون حياتهم الماضية ويدخلون في حياة جديدة. يختارون من شاؤا ليعمل في البناء مجاناً طوال اليوم مقابل زيادة بالأكل من فضلات حرس الثورة. وكان منهم معنا شاب صغير اسمه ماجد، من كربلاء، لم يكن ليتردد حتى في معاقبة والده الذي أُسر معه، ويقول: إني أريد مصلحته وخيره ولكنه يصر على طريق الضلالة والمعصية. رأيته بعيني يفرك أذني والده ثم يستعمل الكلابة لهرسها وهذا يصرخ.

كان بعضهم أشد تعصباً لولاية الفقيه من الإيرانيين، رفضوا ماضيهم، تنصلوا منه وخلقوا في أنفسهم تاريخاً شخصياً يتناسب وما

يعتقدونه من نقاء الأفكار الجديدة. نبتت في أرواحهم بذرة مقت لبلدهم الأصلي وكل ما يمت له بصلة، فترى أحدهم يسمي المرحاض باسم بغداد والضراط النشيد الوطني والنعال بسميه عَلَم العراق، ورأيت منهم من يتعصب لكل ما هو إيراني بما في ذلك الهواء والقطط والكلاب والشجر والذباب والمزابل الإيرانية. كانوا يخرجون في دورات مكثفة للتدريب في معسكر (ورامين) جنوب طهران يشرف عليه ضابط متحول اسمه أحمد عبد الأمير، يراقب خلالها سلوك كل واحد منهم حتى يتيقن من صدق تحوله، فيرسله بعدها إلى جبهة القتال، وهكذا اشترك بعضهم في معارك حاج عمران وحلبجة والفاو وغيرها.

قال طارق: لم يحدث شيء كهٰذا في التاريخ أبداً!.

قال عبدالله: بل هو يحدث كل يوم منذ آدم وولديه.

قال طارق: أقصد عملية غسل مخ كبيرة كهذه بحيث يقاتل بعدها الأسرى ضد بلدهم.

قال إبراهيم: يقصد أنه يقرأ كتب التاريخ مؤخراً أكثر من سواها، أنا أعرفه، دعك من تفلسفه الآن وواصل حديثك.. أرجوك.



- 10 -

صخرة الموت

وقال:

كانوا ينقلون بعض التوابين الناجحين في الضغط على الأسرى إلى معسكرات أخرى فيها استعصاء أكبر، ويسمون هذا النقل عملية (فتح). وبالمقابل ينفون الذين لم يتحولوا، إلى معسكرات أسوأ من حيث المبنى والخدمات وأشد قسوة، فكان نصيبنا، أنا والدكتور بهنام، معسكر (سمنان). مُخيم مُحاط بالأسلاك الشائكة، في وادي بين جبال مكتنزة بمادة حديدية، لذا كانت الأرض التي تحتنا وحولنا جرداء قاحلة تماماً. لم نر فيها ولا حتى شجرة واحدة، لا طيرَ في السماء ولا حيوانات باستثناء بعض العناكب والسحالي الخشنة والعقارب والأفاعي والحشرات الغريبة.. وفي الليل نسمع، بين حين وآخر، أصوات ذئاب بعيدة يتردد صداها في الجبال المحيطة. قسمونا، ثمانية في كل خيمة، ننحشر فيها بحيث يتعذر النوم، لكننا، في الليالي الحارة، كنا نترك أنصاف أجسادنا خارجها وفي الباردة نلتم حد الاحتضان. في أغلب الأحيان، وعندما يتأخر مجيء الأغذية، تكون الوجبة ملعقة رز واحدة، أو يقومون بجمع أية حشائش أو عروق نباتات يجدونها بين شقوق الصخور، ويطبخونها لنا في ماء مع قليل من الزيت والملح ورأس بصل، حساءً غريباً كان يدر إسهال بطوننا في البداية إلى أن اعتدنا عليه. كنا نفرح بمجيء الربيع، لأننا نجد نباتات نعرفها أو متنوعة بينما في الصيف والشتاء نتضور جوعاً. أما الجانب الأفضل هناك، هو أننا صرنا أبعد عن العيون اليومية للمخابرات الإيرانية وعمن جندوهم من

المسفرين الذين صار بعضهم ضباطاً.

كان اسمُ آمر المعسكر (فرج الله)، كان ضابطاً بلا قلب، أمضى جل حياته يعمل في إدارة السجون منذ عهد الشاه. وبعد أن تردت أحوالنا بشكل جحيمي لا يطاق. طالبنا بمجيء لجان الصليب الأحمر الدولية، إلا أنهم كانوا يرفضون، فهم يعتبرونها (منظمة كافرة)، كما لا يريدون أن يصبح للأسرى أرقامٌ وأسماء مثبتة تتم مساءلتهم عنها لاحقا. أخبرناه ذات مرة أننا لن نتعاون، ولن نستقبل المزيد من الزائرين من المخابرات و(المبشرين) إلا بعد أن تزورنا لجنة من الصليب الأحمر، لأننا كنا ندرك بأنهم سيواصلون قتل المزيد منا ما لم يتم تسجيلنا فيها. وهكذا كان حتى قمنا بمظاهرة، فقمعوها. دخلت إلى المعسكر فصائل من الجنود واشتبكنا معهم بأيدينا والحجارة وأوتاد الخيم، فقتل بعضنا وجرح الكثيرين. عندها هدد فرج الله أنه سيعدم الذين لا يطيعون الأوامر. وأمر بمعاقبة كل من شارك في المظاهرة. فربطونا من أطرافنا الأربع على أسرتنا وراحوا يجلدوننا بالسياط وبالعصي، أو بأسلاك الكهرباء الغليظة مشقوقة الرأس عن أسلاك نحاسية أرفع كالمخالب. تراوحت الجلدات بين ثمانين ومائة، فكان يغمى على المجلود بعد الجلدة العشرين وينز الدم من ظهره. كانوا يجلدوننا أمام بقية الأسرى بقصد أن يعتبروا. بالطبع لم يتحسن حالنا بل زاد سوءً... آه، إني أكره حتى ذكر تفاصيل تلك المعاناة.

انتشرت بيننا الأمراض والعاهات، وتواصلت تنقلات الأسرى منا إلى معسكرات أخرى والعكس، فكانت هذه التنقلات مصدراً وحيدا لمعرفتنا بعض الأخبار والحكايات الجديدة وأسماء وطبيعة المعسكرات الأخرى. عرفنا أن بعضها كان في جبال خراسان، وأن أشدها رعبا يسمى (بست سنك) أو (سنكة بست) أي (صخرة الموت)، سجن خرافي تحت الأرض، لا يرى نزلاؤه الشمس أبداً، يعذب فيه الأسرى بأشد

ما يخترع خيال ابن آدم من طرق التعذيب وحشية، أهونها قلع الأظافر والأسنان وتقطيع الأطراف والأعضاء. يعذبونهم نفسيًّا، ويهملونهم لاستشراء الأمراض في أبدانهم وللجرب يأكل جلودهم، عن هذا حدثنا المتقول إلينا أبو جمال البغدادي، الذي كان قد أُسِر في قاطع الشوش في آذار سنة 1982؛ يقول: إنه حقًّا صخرة الموت، إنه بئر، نفق إلى عالم سفلي.. إنه باب الجحيم. فيما حدثنا آخرون عن معسكرات أخرى مثل: واراك مخصوص، برندك، الداوودية، كركان، منجيل، ساري، قصر فيروزة، بروجند ومعسكر الحشمتيه، ودزبان ومعسكر جرجان الذي أراد الصليب الأحمر زيارته فبادر الإيرانيون إلى إبدالِ الأسرى بغيرهم فتفاجأ وفد لجنة المنظمة بأن الأسرى يرفضون استقبالهم. وما أن دخلوا حتى اشتعلت مشادة عنيفة بين الأسرى فتم إطلاق النار وقتل بعضهم كما أصابوا موفدا من الصليب الأحمر، مما دعا إلى تشكيل لجنة من قبل الأمم المتحدة لتقصي الحقائق. بعد الحادثة وقبل دخول لجنة التقصي تم تغيير أسرى المعسكر بآخرين لطمس الحقائق.

المظاهرة الثانية كانت أكبر، قمنا بها بعد ما يقارب أربعة أعوام من مظاهرتنا الأولى، فواجهوها بالرصاص وقتل فيها ضياء وعلي ونايف ويعقوب وزنكنة والمسكين أبو ماجد الكربلائي، الذي كان قد شاخ أضعافا. أما الجرحى فكنا نعالجهم بطرقنا الخاصة. يستخرج الدكتور بهنام الرصاصات بالملعقة ويضطر لخياطة الجروح بإبرة ترقيع ملابسنا وبالخيوط التي نستلها من جواريب النايلون. منعوا عنا الماء والطعام ثلاثة أيام، حتى عاد الضابط فرج الله من إجازته، فأمر بمحاصر المعسكر وإطلاق الرصاص المطاطي و(الصَجْم) علينا وهو يصيح عبر مكبرات الصوت: أيها الكفار ستموتون هنا كالكلاب.. واعلموا بأن التعليمات تبيح لنا بأن تكون نسبة الخسائر خمسة وعشرين بالمائة منكم. منعونا من الخروج إلى المراحيض، أو حتى قضاء حاجاتنا خارج

الخِيم. تساقط البعض مغمى عليه لشدة العطش والجوع والإنهاك. وفي اليوم الرابع هجم علينا الجنود ضربا بالهراوات بلا رحمة، كسروا لي ضلعين.. و.. وقتلوا بهنام. الدكتور بهنام صديقي.

صمت عبدالله، طأطأ رأسه مختنقاً. دمعت عينا إبراهيم وتمتم طارق بكلمات ترحُم وعبارات دينية. طال الصمت حتى ظنوا بأن عبدالله لن يواصل حديثه بعدها، ولكنه بعد برهة، أخذ قطعة بطيخ بلل بها ريقه، وأشعل سيجارة جديدة سَحب منها نفسًا عميقًا، كأنه لم يكن يدخن طوال الوقت، ثم واصل:

بعد مقتل بهنام صار سجني مضاعفا وموتي الداخلي أعمق، عافت روحي الكلام والاستماع وأي شيء، ورحت أنعزل تماما. أحيانا، لا أنام على مدى أيام طويلة وأخرى أنام فيها كالقتيل. لا أشارك أحدا في شيء، ولا أنتبه أو أعير اهتمامًا لشيء. كنت كأنني مغلّف بعلبة حجرية. لا أشارك زملائي بسمة أو حزن أو حديث.. كأنني فقدت أي حس، بحيث صاروا ينادونني أحياناً بـ(صخرة الموت). ثم علق بلمحة مداعبة: بالطبع، لم يكونوا على معرفة بتسميتك لي (كافكا) يا طارق.

ابتسم على إثرها صاحباه، وربّت طارق على كتفه ضاماً إياه بحنو. ثم واصل عبدالله: بهنام كان الوحيد الذي يناديني بهذا الاسم أحيانا، فهو يعرف كافكا، قرأ له وعنه، وحدَّثني عنه كثيرا، حتى أعجبني أكثر من خلال حديثه.

- يقال بأن إيران بلد جميل.

- يقال، وما رأيته من طبيعتها الجغرافية هو جميل بالفعل.

- يقال بأن نساءَها جميلات جداً.

- لا أدري، فلم أر أية امرأة، ولا حتى صورة امرأة على مدى تسعة عشر عاماً.

قالها عبدالله بريق ناشف.. بغصة استشعرها إبراهيم فقال:

- دعك من هذا يا طارق، ألا تستطيع الكف عن سوالفك حتى ونحن نتحدث عن المصائب!؟.. ها.. وماذا بعد يا عبدالله؟.

- كان بعضنا يكثر من قراءة القرآن والصلاة والأدعية من أجل مجيء الصليب الأحمر، وبالفعل جاءتنا لجنة أذكر من بين أعضائها ضابط سويدي وأطباءُ نفسيُّون. للوفد طائرته الخاصة وطيارها يتمتع بحصانة دبلوماسية، له أن يهبط في أي معسكر شاء. فجأة سمعنا هبوط الطائرة. تعالت الزغاريد وتبشيرات أحدنا للآخر وصيحات الفرح. دخل الوفد للمخيم فاستقبلناه بما لدينا بحفاوة لم يتوقعوها. كان بيننا من يتحدث الإنكليزية، فأخبرناهم بما حصل لنا وبعدد وأسماء الذين قتلوا منا بالرصاص أو الهراوات أو تحت التعذيب أو بالأمراض، وحينما هم الإيرانيون المرافقون بالتدخل، طلب رئيس الوفد (الضابط السويدي) بأن يخرج جميع الإيرانيين! فخرجوا. شعرنا بلحظة حرية عجيبة ورحنا نتسابق بإخباره بالتفاصيل كأطفال أمام عودة أبيهم من سفر. ومن بين ما ذكره لنا؛ أن الإيرانيين قد أخبروه بأن هذا المعسكر خاص بالمجانين. كتبنا له شهاداتنا على عجل وبما أتيح لنا من وقت وورق، ثم قدمنا له شريط فيديو كنا قد صورناه بالتعاون مع أحد الحراس الإيرانيين الساخطين على النظام. كان من (عربستان) سبق للحكومة أنْ شنقت والده. جلب لنا كاميرا صغيرة، صورنا بها العديد من مشاهد التعذيب، وحتى لقطات من جحور السجن الانفرادي فتعجب الوفد لذلك. وفي الحقيقة هم أيضا كانتْ لديهم الكثير من المعلومات الدقيقة عن معسكرنا، فحال دخولهم سألوا عن أسماء بعض الأسرى؛ ومنهم الدكتور بهنام وسامي وحمزة عزوز والأستاذ سالم الراهب. سجلونا جميعًا، وقالوا لنا أن نكتب رسائل، موجزة قدر الإمكان، إلى أهلنا وذوينا. حينها، بعثت لكم أنا برسالتي الوحيدة تلك. وقال لنا الضابط رئيس الوفد: أرغب بالذهاب إلى سجن (صخرة الموت) فأين يقع؟!

فأعلمه أبو جمال البغدادي وآخرون بما يعرفون. وبعد انتهاء الزيارة أبلغَنا الوفدَ بما سنناله من عقاب بعد مغادرتهم، فاكتفوا بهز رؤوسهم دليل توقعهم لذلك. كما قال بعضنا باكيًا للوفد، في اللحظات الأخيرة: سلامنا إلى العراق الحبيب وقبلاتنا لكل ذرة من ترابه. أنا لم أقل شيئا، ولم أقبل التراب أو الأعلام حتى عند عودتنا، كما فعل آخرون، لم يعد شيء يقنعني، وأستغرب قناعات البعض المتعصبة لأفكار وأشياء يخلقها غيره ويصل به الأمر حد الموت أو القتل من أجلها، ولا أرى في عَلَم أي بلد سوى خرقة قماش ساذجة الألوان والمعنى. هناك، كانت صور زعيمهم تملأ الشوارع.. وهنا أيضاً، الطرفان يدَّعيان الصح والحق والحقيقة، ويحاولان حشو رؤوس الناس المساكين بها وإلا قطعها. لا أدري كيف لا يكتفي شخص بما يشغل رأسه فيحرص على امتلاك رؤوس أخرى.. ما أكثر ما أتساءل؛ ترى إلى أين ستذهب أوجاع التعذيب بعد انتهائها؟! وما هي مادة العذاب والوجع بالضبط؟ بماذا يفكر الجلاد في ساعات هدوئه؟ ما معنى كل هذا الألم.. ولماذا؟. ما الذي يشعر به القاتل حين يتذكر قتلاه؟ كيف يبذل البعض كل هذا الجهد ويرتكب كل هذه البشاعات بسبب اختلاف الآخر عنه بالتفكير؟

- وماذا حل بالتوابين بعد ذلك؟

- تعددت مصائرهم، منهم من قُتل في جبهات الحرب ودُفن هناك أو في مقابر قُم وبهشت زهراء ومشهد، وبعد توقف الحرب خرج عدد منهم ليختلطوا بالحياة الإيرانية. ذهبوا إلى الأرياف ليتزوجوا من القرويات ويجدوا عملاً ما. مُنحوا بطاقات لاجئين. بعضهم أنجب واستقر في إيران متخلّيا عن ماضيه إلى الأبد، ومنهم من بقي خائضا في طين السياسة متقلباً بين صفوف المعارضة بانتهازية صار محترفا لها. دخل بعضهم إلى العراق عام 1991 بعد اندحار الجيش العراقي في الكويت، واتصل قسم من التوابين بالأمم المتحدة مستعينين بأرقامهم

عند الصليب الأحمر، فحصلوا على اللجوء في بلدان أخرى. منهم من أراد التخلص من إرث التوبة فتدبر هربه الخاص وصولاً إلى بلدان العالم المختلفة، وقدم هناك طلبا للجوء كعراقي، ومنهم من ظل حتى اليوم يعمل منظماً سياسياً وعسكرياً لصالح إيران.

- وهل بقي أسرى حتى الآن؟

- نعم.

- هل عاد معك كثيرون؟

- دفعتنا فيها ما يقارب الثلاثمائة أسير، أغلبيتُها ممن كانوا يُحسبون مفقودين، سُلِّمنا عند مركز حدود (المنذرية). اصطف حراس الحدود على الجانبين كل يحمل أعلام بلده، العراقيون صفقوا وهتفوا، سرنا بخطوات بطيئة ومتعثرة واستقبلتنا عوائلُ بعضنا بالدموع والزغاريد، بعد أن باتت في العراء ليلتين تنتظر، وكان بعضنا يرون أبناءهم لأول مرة، أحدنا أُسر في السنة الثالثة من الحرب، بعد أسبوعين من شهر العسل، وكان استقباله مؤثراً من قبل زوجته وابنته. والإيرانيون، كي يعطوا صورة مختلفة عما عاملونا به جعلوا بعض ضباطهم، أمام الصحفيين، يحملون المُقعدين من الأسرى عند تسليمهم إلى نظرائهم العراقيين. في الحقيقة كلنا كنا نعاني من عاهة ما، بعضنا فقد السمع، وبعضٌ آخر إحدى عينيه، أو أصابه العمى، وآخر السل، وآخر السرطان، وآخر الجَرب، وآخر قولون هائج.. وغيرها، وأنا عدا الضلعين الكسيرين لدي انزلاق غضروفي مزمن. منحنا العراقيون مغلفًا فيه 50 ألف دينار قائلين هذه هدية السيد الرئيس. فابتهج بعضنا ظانًّا بأنه قد أصبح ثريا، لأن آخر عهدنا بالدينار أن قيمته كانت تتجاوز ثلاثة دولارات، وسرعان ما أصابتنا الخيبة، وأدركنا حجم الهول الذي حل بالبلد حين علمنا بأن الموازين قد انقلبت، وقياسها أن قيمة الدولار الواحد قد تجاوزت الألف دينار. أنا اشتريت بربعها سجائر على الفور. والإيرانيون اهدوا

لكل منا سجادة صلاة صغيرة وزوج أحذية، هو لك يا إبراهيم والسجادة لك يا طارق، فأنا لم أجلب هدايا كما تعلمان.

قال إبراهيم: هديتنا الحقيقية هي عودتك سالماً.. وحالك أفضل من كثير ممن عادوا، بعضهم ينفجر بالبكاء لمجرد أن تُذكره بأعوام الأسر. هل تذكر المجنون الملتحي الذي سألتنا عنه؟.. إنه صبري ابن الحاج رضا. كانوا قد جلبوا لأهله جثة محترقة ومشوهة، قائلين إنه ابنكم، فدفنوه وأقاموا العزاء، وبعد فترة تزوج أحد إخوته من زوجته حفاظا عليها وعلى أبناء أخيه، وفجأة بعد 15 عام عاد إليهم، فلم يحتمل أخوه الموقف فانتحر، أما صبري "المَكرود"، فبعد أن عرف بما حدث، صُدِم، وفقد عقله.

قال طارق: أحد أبناء عمومة صديق لي من (حمام العليل) كان طيارا حربيا، وقد أُسقطت طائرته في إيران أواخر عام 1981. لم ترد أية أخبار عنه إلى أهله، واعتُبر مفقوداً لفترة طويلة، ولكن في عام 1998 تم التبليغ بأنه أسير.. تصور بعد 17 عاماً!! وبعدها بخمس سنين أُفرِجَ عنه. المسكين لم تدم حياته طويلاً. مات بعد شهرين من وصوله نتيجة إصابته بالسل الرئوي، والبعض يقول أنهم قد زرقوه بالثاليوم.

وراحا يسردان له العديد من حكايات الأسرى العائدين بقصد إشعاره أن حاله أحسن من غيره، حتى طلب منهما عبدالله أن يتوقفا عن ذلك، فهو يعرف وعايَش ما هو أشد قسوة وهولاً، عندها قال طارق: هيا بنا نذهب إذاً، قلت لزوجتي أن تعد لنا غداءً خاصاً فيه لحم طيور القطا، هل تذكر أيام كنا نصطادها ونشويها في البراري؟

- 11 -

شوكة البحر

لم يستطع عبدالله كافكا النوم، على الرغم من أن هذه هي ليلته الثانية في القرية. كان بحاجة إلى مزيد من الوقت كي يتكيف مع وضعه الجديد. لم ينم في الليلة الثالثة أيضا، فكلما هدّه الإرهاق وغفا، رأى سياطاً تهوي عليه فيفز، أحيانا يقفز واقفا، ظانّا بأن عليه حضور تِعداد، أو يشعر بمرفق بهنام يلكزه في الخاصرة، وما أن ينتبه إلى أنه في البيت وليس القفص، حتى يسارع لغسل وجهه ورأسه بماء بارد. يفتح النوافذ والأبواب ويشرع بالتدخين، مفضلاً عدم النوم على أن يرى في المنام صورا من أعوامه الماضية. قرر البقاء فترة أطول في البيت بغية الاعتياد عليه، فكان يجد نفسه يغفوا ظُهرا. الباب والنوافذ مفتوحة والضوء يسطع في المكان، لذا عزم على استغلال فسحة تمكنه من النوم نهارا، ولا ينام الليل، وهكذا راح يسهر في مقهى القرية إلى أن يغلق أبوابه فيما بعد منتصف الليل.

في صباح اليوم الثالث سمع طرقاً على الباب، ينصت أكثر، إنه طَرق، طرق على الباب، ثم صوت إبراهيم يناديه، فقال:

- الباب مفتوح.

- نعم، إني أرى الباب مفتوحاً.

- فادخل إذاً.

وحين دخل، سأله: هل أعد لك شاياً؟

قال إبراهيم: لا، جئتك بالفلاح الذي سيستثمر أرضك، فاوضته على أن يكون له النصف ولك النصف.. هل هذا يرضيك؟

- نعـم، نعـم بالتأكيـد. خـلاص، أنـت اتفـق معـه على كل شـيء بالطريقة التي تراها وأنا موافق.

- إنه شـاب ممتاز وشـغول وأخلاقه عالية، يمكن الثقة به تماماً، وهو بحاجة لهذا من أجل إعالة إخوته، إنه أنور ابن المسكين صبري.. تعرف صبري، الأسير المجنون الذي رأيته.

- أوه، نعـم، صبـري؟! صمـت برهة ثـم انتبه وأضاف: نعم، نعم، خلاص، قلت لك أنا موافق.

- ولكن، ألا تراه؟

- لا داعي لذلك مادمت أنت قد اتفقت معه على كل شيء.

- يجب أن تراه، على الأقل كي تعرفه، فربما يحتاج لأن يسألك أو يستشيرك في شيء مستقبلاً، أو عندما يأتيك بحصتك... إنه هنا.

- هنا؟!

- نعم، في الحوش.

- ولماذا لـم يدخل معك؟

- إنه خجول، أخرج أنت إليه.

فخرج عبدالله ورأى وسط الباحة شاباً، ربما في الثامنة عشرة من عمـره أو أكبـر، نحيفـاً طويلاً، مطأطئ الرأس شـابكاً كفيه أمامه، فحياه. سارع الفتى بالتقدم إليه بضعة خطوات على استحياء وصافحه قائلاً:

- مرحبا عمي.

فقـال عبداللـه: أهـلاً بـك.. تفضـل ادخـل واشـرب الشـاي معنا، تفضـل، ثـم لا حاجـة لأن تناديـني بعمـي، قـل لـي عبداللـه أو حتى يا كافكا وخلاص.

دخـل وجلـس على حافة الـسجادة جوار إبراهيـم. قدم له عبدالله سيجارة فقال: لا أدخن.

شـعر عبداللـه تجاهـه بعطف وهو يستشـف من ملامحـه، ونظراته

المُطرقة أغلب الوقت، حجم انكساره. ذهب ليعد الشاي، وحين عاد به لاحظ مدى انسجامه مع إبراهيم، كأنه ابنه، بل شعر حتى بتشابههما، يبدوان متفاهمين، يجمعهما حسن الإذعان للمصير. وهكذا تعمقت ثقته به أكثر، فقال له وهو يقدم إليه قدح الشاي:

- هل أنت راضٍ بما حدثك به أبو قسمة.. أقصد النصف؟

قال: نعم، إذا كنت أنت موافق.

- أنا موافق، ولك مطلق الحرية فيما تزرع وتفعل. كم أخ عندك؟

- سبعة؟

- وأنت أكبرهم؟

- نعم.

لاحقاً حين غادر الشاب، قال إبراهيم: هو وأخت واحدة فقط هما وَلَدَا صبري، أما الستة الباقون فهم من عمه الذي تزوج أمه.. الذي انتحر.. مسكين.

عند الظهيرة، كان عبدالله مستلقياً لوحده في الصالون ويدخن بعد أن ارتشف ما تبقى من الشاي بارداً. انتظر أن يداهمه النوم ولو قليلاً، لكن تفكيره بسميحة ظل يحول دون ذلك، ومع هذا ظل يفكر بها كما كان يفعل في أعوام الأسر بحيث لم يكن ليغفو مرة إلا وكان وجهها آخر ما يتذكر، وما صحا إلا وكانت أول من يتذكر. فكر بأنه لم يخبر إبراهيم وطارق بأكثر شيء كان يشغل به نفسه في تلك الأوقات الطويلة، لم يقل لهما إن أكثر من نصف الزمن الذي أمضاه هناك قد كان استعادات متكررة، بلا ملل، لتفاصيل كل ذكرياته مع سميحة، ابتسامتها، نظراتها، رائحتها، صوتها، لمسة يديها، احتضانها، قبلتها وهي القبلة الوحيدة في حياته كلها. ولم يقل لهما بأن ذكراها فقط هي التي كانت تبقيه حياً. ود لو أنه كان قد سأل إبراهيم بعد مغادرة الشاب أنور وبقائهما لوحدهما. هل جاءت ضمن المهنئين مساء الاحتفال بعودته؟ هل كانت هنا ولم

أعرفها يا إبراهيم؟

فجأة سمع طرقات على الباب، فقَز جالساً، بلع ريقه، وقال: تفضل.

وبعد برهة صمت. تكررت الطرقات الخفيفة ذاتها. فقال بصوت أعلى: تفضل، الباب مفتوح.

لكن برهة الصمت تكررت وتكررت بعدها الطرقات ذاتها، فنهض. وجد طفلاً في حوالي العاشرة من العمر واقفاً يشبك أصابعه بقلق، فسأله: من أنت؟

- أنا سامر.. جدتي تقول تعال لتتغدى عندنا.

- ومن هي جدتك؟

- زينب.

فتذكر اتفاقه معها، وهذا الطفل كان دليلها إلى بيته ويجلس جوارها.

- الآن؟

- نعم الآن، لقد ذبحنا لك دجاجة وطبختها أمي مع بامياء وطماطم.

- حسناً، انتظر لحظة.

- وثوم أيضاً. جدتي تحب الثوم.. وأنا لا أحبه.

دخل ليحسن من هندامه، غسل وجهه، مشط لحيته أمام المرآة ووضع في جيبه علبتي سجائر، ثم خرج. راح يمشي جوار الطفل في الأزقة التي غطاها الحصى الناعم، فيسمع الهسهس تحت قدميه ويتطلع إلى المنازل على الجانبين. لم يبق من البيوت الطينية إلا القليل، فقد شُيِّدت الكثيرُ من البيوت الإسمنتية في غيابه، بعضها على أنقاض الطينية السابقة وأخرى جوارها أو لصقاً بها بشكل مكمل، ولم تبق إلا قلة من هياكل البيوت التي عرفها. كان الطفل يسبقه أحياناً بالخطوات، وتمنى

للحظة لو يمسك بكفه ويجعله يقوده كما يفعل مع الجدة.. ترى كيف هو ملمس كف الطفل؟ وأي شعور يوحي به المشي معه يَداً بيد؟ لكنه سرعان ما تخلى عن هذه الفكرة، وراح يحاول شغل الصمت بالأسئلة ومن أجل ألا يبتعد الصغير عنه أكثر من اللازم:

- قلت لي.. إنك لا تحب الثوم؟

- لا أحبه إلا إذا كان مطبوخاً.

- وأنا أيضاً... ما اسمك؟

- سامر؟

- هل والدك في البيت أيضاً؟

- لا.

- ماذا يعمل؟

- في مصفى النفط في البيجي.

ثم لم يجد بعدها أسئلة أخرى، فعاد إلى صمته والاكتفاء بالاستماع إلى هسيس الحصى والتحديق إلى الجانبين.. إلى أن دخلا في فناء واسع، عرفه في الحال؛ أنه بيت المختار. لازالت شجرة اليوكالبتوس العالية تتوسطه، وتعرش حولها كرمة عنب على شكل سقيفة تحتها زير ماء كبير. في الزاوية البعيدة زريبة البهائم، أمامها محراث حديث وعجلة تراكتور خلفية كبيرة. إذن، فلازال لديهم تراكتور. جوار الزريبة بيت إسماعيل الراعي، كما هو؛ غرفة من طين. وفي الزاوية الأخرى عرف مخازن المحاصيل التي كان يتاجر بها المختار. رأى الميزان الكبير في مكانه القديم وقد تصدأ أكثر. في الواجهة شرفة البيت، المدخل الواسع، البوابة الكبيرة التي صبغوها بالأزرق بعد أن كان يذكرها باللون الرمادي، وإلى جوارها بوابة المدخل إلى صالة الضيوف أو ما كانوا يسمونه بالديوان؟

هناك رأى عدداً من الصبية وامرأةً يخرجون لاستقباله، ثم ظهرت

في باب الديوان الحاجة زينب على عكازها، مُرحبة بصوت عال، صادق الغبطة، ثم عانقته بقوة كما فعلت في المرة الأولى. قادته إلى داخل الديوان، فوجده أكثر رفاهية مما كان يذكره، وأن كراسي وكنبات ثمينة قد صُفت بمحاذاة الجدران الثلاثة، وأمامها فُرشت سجادات زاهية على الأرض ووسائد كثيرة.

أما في الواجهة، على الجدار، فقد عُلقت صورة كبيرة للمختار بالأسود والأبيض، صورة من شبابه، حيث شارباه الكثان فيها شديدا السواد، وتحت الصورة سيفان متقاطعان، وتحت تقاطعهما درع دائري تلمع مساميرها الفضية البارزة كوردات ثلاث.

قالت السيدة زينب وهي تخطو جواره ببطء، دون أن تفك تعلق ذراعها بذراعه: إن شئت، اجلس على الكنبة ولكني أفضل الجلوس على السجادة، وأفضل أن تجلس معي. ففعل وهو يقول بأنه هو الآخر لم يعتد الجلوس، حتى الآن، سوى على الأرض. جلست جواره، ثم مدَّت كفها تبحث عن وجهه، فكانت أصابعها تقرأ في ملامحه التفاصيل إلى أن ختمت بالقول:

- ألم تحلق لحيتك بعد؟!.. ربما تكون أحلى وأكثر شباباً بدونها، لا بأس.. المهم هو ما يريحك أنت. بالمناسبة، أنا أعرف الفارسية قليلاً، منذ أيام الطفولة في كردستان، عموما، نسيانها أفضل.

لا يذكر أنه قد أكل وجبة طعام ألذ من هذه في حياته، لذا أكل بشهية لم يعتدها في نفسه، متنقلا بين صحون الرز باللوز والزبيب وبين مرق البامياء والطماطم وحبات الثوم، وقِطع الدجاج المشوية والسَلَطة وجرّة اللبن. ثم أتوه بعدها بأقداح الشاي المُهيّل التي أحس معها بدخان سجائره كأعذب ما يكون.

سألته الجدة زينب فيما لو كان مرتبطاً بموعد أو عمل هذا المساء، وعندما نفى ذلك، قالت: إذاً.. نحن بحاجة إلى سيارة تقلنا إلى المقبرة.

فقال لها دون أن يسألها لماذا.. إن بإمكانها أن تبعث بأحد الصغار إلى طارق ولن يتأخر بالمجيء. فقالت: لا.. نريد غيره. ثم صمتت قليلاً، ونادت على أحد الصبية قائلة له أن يذهب إلى جارهم (أبو محمد)، ويخبره أن يأتي بسيارته لأن جدتي تحتاجه في أمر بسيط. بعد دقائق سمعوا زامر سيارة داخل الباحة، فقالت لهم: ادعوه ينزل ويشرب الشاي.

دخل أبو محمد وصافح عبدالله. قبّل رأس الحاجة زينب، وجلس جوارها، فقالت له وهو يرتشف شايه:

- نريدك أن توصلنا إلى المقبرة، أنا وعبدالله، وحدنا. تتركنا هناك ثم تعود إلينا مع غروب الشمس.

حين نزلا من السيارة وبقيا لوحدهما، أجال عبدالله ببصره فيما حوله والسيدة زينب متعكزة على ذراعه صامتة. كانت تدرك بحكمتها ضرورة الصمت في لحظة كهذه. كأنها كانت ترى عبدالله وهو يتأمل كل الجهات، التل والسفح والوادي والأفق والحقول والسماء والقرية عن هذا البعد المرتفع. مرت في ذهنه مشاهد لذكريات صباه حين لعب في كل هذه البقاع. كان يعرف كل حجر وشجر هنا. ولا يدري الآن كيف يقيّم كل ذلك.. هذا إذا ما كانت له قيمة حقيقية فعلاً، وحين انتبه إلى إطالة صمته ووقوفه، قال: لقد كبرت المقبرة كثيرا.

فردت العجوز: نعم، والقرية أيضا. الأموات يكثرون والأحياء يكثرون.. لا أدري لماذا يخلق الله كل هذا العدد من البشر.. ألا يكفي نصفهم مثلاً؟.. له حكمة في ذلك سبحانه..

صمتت، ثم استرسلت كي تُخرجه من صمته: بالنسبة لي، فإن الذي أعرفهم من الأموات أكثر من الأحياء. كلهم رحلوا ولم يبق سواي وأم إبراهيم.. كأني زائرة غريبة بين الأحياء.

قال: لقد صارت المقبرة أضعاف ما تركتها عليه، إنها تغطي التل كله تقريبا.

- نعـم، ولهـذا فهـم يفكرون بضرورة إيجـاد مقبرة جديدة للقرية. إنهم متفقون على التل الكبير في الجهة الشرقية، ولكن، حتى الآن، لا أحـد يريـد أن يَدفـن ميّته هناك وحيدا، ويقول أريده مع بقية العائلة، لذا تطوعـتُ أنـا لأكـون الأولـى. قلت لهم أن يدفنوني هنـاك. بيني وبينك، فأنـا لا أريـد أن أكـون مـع المختار في مكان واحد في موتنا بعد أن كنا كذلك في حياتنا.

جعلت نبرة كلامها في آخر ما قالت مشفعة بالسخرية. ثم غيرتها نحو الجدية:

- والآن.. هل تعرف القبور القديمة؟.. هل تراها؟
- نعم، إنها التي هناك في منتصف القمة.
- هل ترى شوكة البحر؟ هل تذكرها؟
- نعم، هي الأخرى قد كبرت كثيراً.
- خذني إليها.

لا أحد يعرف بالضبط من أسـماها (شـوكة البحر)، ولكن.. هكذا شـاعت التسـمية مبكـرا، علـى الرغـم مـن أن أيًا منهم لم يـر بحرا في حياته. شجرة شوكية واطئة وعريضة تشبه أشجار الزيتون، أوراقها أشد اخضراراً ونصاعة على مدار السـنة، شـوكية لكنها لا تشـبه أية نبتة شوك أخـرى ممـا يعرفـون. بين أعوام وأخرى تثمـر قروناً رقيقة مائلة للصفرة تشـبه قرون اللوبياء. يذكر عبدالله أنهم كانوا يمصونها، صغارا، يلعبون فـي ظـل الشـوكة. طعمها مزيج من الحموضـة اللاذعة والعذوبة، مذاق ما.. شـبيه بطعم الليمون ولكن حين تكبر هذه القرون، تجف وتسـقط فتنثـر حبوبهـا أو هـم مـن ينثرونها، لكنها أبداً لم تنبت أخرى مثلها، لذا فهي وحيدة دائماً، بطيئة النمو. صارت أحد أبرز معالم القرية ونسـجوا حولهـا الحكايـات والأغانـي، ذلـك أنهـا نبتت تماما عنـد رأس قبر من يسـمونه (الشـهيد)، فمن مات غرقا يُعد شـهيدا أيضًا. الشـباب يسـمونه

(شـهيد الحب) ويتعاهدون هناك تحتها على الوفاء. إنه والد إسـماعيل الراعي، هَب لنجدة زوجته التي كانت تغسل وتستحم على شاطئ النهر فأخذتها سـورة مـاء، أراد أن ينقذهـا لكنـه غرق معها حيـن انحدرا معاً وجرفهما الموج إلى منتصف النهر العميق. لاحقا، لم يتم العثور سوى على جثته هو، سـاكنة بين صخرتين على الشاطئ البعيد جنوب القرية. دفنوه هنا، وتبنى المختار طفليه الأبلهين إسماعيل وزكية. البعض يقول إن هـذه الشـوكة التـي نبتـت عند رأسـه إنمـا هي اعتذار مـن الماء عما فعـل بهمـا. آخـرون يقولـون بل هي دليل على أنه من أهل الماء، وربما الأصح، أنهم أسموها بشوكة البحر تذكيراً بموته غرقاً وحسـب. البعض الآخـر يقـول إنمـا هـي روح زوجته جاءت من الماء ونبتت هنا لأنها لا تريـد الافتـراق عنـه. يذكرون أنهمـا كانا يحبان بعضهما كثيـراً ولحبهما حكاية طويلة.

حين وصلا الشوكة، قالت زينب:

- خذنـي إلـى يميـن قبر الشـهيد. هل ترى فرقاً بين الفسـحة التي على يمينه والتي على يساره؟

قـال: هـا، ربمـا.. فرق بسـيط، على اليمين توجـد بعض النباتات، جذور وبقايا متكسـرة لعشـب جاف، كأنها كانت مزروعة، أما اليسـرى فهي كبقية أرض التل، يغطيها الحصى.

قالت: تعال واجلس معي على اليمين، ولكن ليس فوق الفسـحة بالتحديد.

فقادهـا خطوتيـن وجلسـا هنـاك، بعد أن نظـف الأرض تحتها من بضعـة حبـات حصـى وأعـواد. كانت أوراق شـجرة شـوكة البحر تتدلى فوقهما كسـقيفة، فهي تمتد حتى تغطي ربع الفضاء فوق القبر، وبحكم كثافة أوراقها الصغيرة فلا ترى أغصانها إلا من الأسفل.

قالت: اسمع يا بني.. أرجو منك أن تقوي قلبك، وتقوي إيمانك

باليقين بحكمة الله ومشيئته في تقدير مصائر البشر.

شعر بجدية الموقف أكثر من أية لحظة مضت. كف عن التحديق بالشوكة والمقبرة وما حوله، مركزاً انتباهه إلى ملامحها وتحديداً على فمها الذي لم يبق فيه إلا بضعة أسنان متآكلة.

قالت: ما أكثر ما تخيلت هذه اللحظة. كنت أنتظرها، ولم أمت لأنني كنت بانتظارها، بانتظارك.

ركنت عكازها جانباً. كانت تجلس ملتصقة به ساقاً بساق وتتلامس الركبتان. مدت كفها المحاذية له تبحث عن كفه حتى وجدتها، قبضت عليها بقوة، ثم مدت كفها الأخرى وفرشت أصابعها على الفسحة التي تفصلهما عن القبر، وقالت:

- هنا ترقد أمك.. أمك الحقيقية التي ولدتك من رحمها.. هذا قبرها.

ابتلعت ريقها، وزادت من ضغط كفها التي على كفه، فيما مسحت بالأخرى على الأرض بحنان.

- إنها زكية، وهذا الشهيد هو جدك، والدها. وإسماعيل الراعي هو خالك.

بالطبع، لم تكن تنتظر تعليقاً أو سؤالاً الآن، وهي تتصور مدى وقع ما فاجأته به، لذا كانت تواصل حديثها بمفردها، وعلى الرغم من هدوء نبرتها، إلا أنها كانت تبدو كمن يصرخ. رأى دمعاً يفيض من عينيها وأدرك أنها تفيض بما تحبسه من كلام.

- هؤلاء هم عائلتك من أمك، أما عائلتك من أبيك، فأنا والمختار جَدَّاك، ووالدك هو ابني البِكر (جلال).

صمتت، مسحت فمها بمنديل قماش عتيق أخرجته من جيب إزارها، فقد كان بعض رذاذ لعابها يطفر على شفتيها من الفراغات الواسعة بين ما تبقى من أسنانها المتفرقة. وقالت:

- من الآن.. هذا الأمر في عهدتك أنت، إنه سرك أنت وأنت حر في أن تخبر به من تشاء متى وكيف تشاء، أما أنا فلم أُخبر به أحدا أبدا، ولن أفعل، إلا إذا طلبت أنت مني ذلك. سأخبرك بكل شيء، سأخبرك بـكل مـا أتذكـر، ولك أن تسـألني عما تشـاء. قلبـي كان ينفطر لأنك لا تدري، وكنت أظن بأنه سـيلتئم عندما أعلمك، ولكنني أشـعر به الآن، وأنا أخبرك، وكأنه يتقطع أكثر.

- 12 -

سر الفضيحة التي لم تُفضَح

هنـاك، تحت شـوكة البحـر الزاهية الخضرة دائماً، وسـط المقبرة، في قمة تلها، كان الهواء نظيفاً وشمس المساء هادئة بضوئها المزيج من بياض وصُفرة، فبدا كل شيء جميلاً ومسـالما تحت نورها. جدران بيوت القريـة، عـن بعـد، تبدو كصفحات وجوه ينعكـس عليها الضوء، والنوافذ سـوداء فيها كالعيون، كذلك الظلال الشـفيفة للسفوح على الوديان. ثمة طيور تحلق بشكل دائري منساب، لا تبحث عن شيء، تتنزه في الفضاء.. وكأنها تنظر وتـستمع إليهما. أصوات رعاة بعيدة تأتي عبر جهة الحقول المتنوعـة بتدرجـات خضرتهـا. عجيب هـدوء الكون في ذلك المسـاء! بحيـث بـدت حتـى القبور جميلـة وراضية مطمئنة، كأن الحياة أو الكون خيمـة كبيـرة لا تعبـأ بمـا يحدث فيها وما يقال تحتها.. ومما قالته زينب لحفيدها عبدالله:

- جدك المختار كان شاباً حين ورث المشيخة والمَختَرة بعد موت أبيـه، الـذي كان هـو بدوره مختاراً وشـيخاً للقرية طوال حياته. يقال إنه أول طفـل ولـد فيهـا حين بدأت القرية هنا بثلاثة بيوت. ورث الأراضي الواسعة أيضا، الأغنام والأبقار والعَربة والمحراث.. والهيبة. وكان يجيد إدارة كل ذلـك، يُشَـغل غيـره فـي حقوله ورعـي دوابه فيما يكثر هو من السـفر والتجارة بالمحاصيل والتبغ والسـلاح، ومن بين الذين كان يتعامل معهم بتجارة السـلاح هم الأكراد، هناك عرفني وعرفته وتزوجنا. كنت صغيرة حينها ويتيمة، مثلك لم أر والديّ في حياتي أبداً وقامت بتربيتنا، أنا وأخي، جدتي حتى ماتت. عموما، ليس المهم تفاصيل حياتي السابقة

أنا. ولكن يمكنك أن تعتبر منها إن شئت. حيث كنت بلا أهل ولا عائلة، وانظر الآن ما أكبر عائلتي. حين جئت إلى هنا لم أكن أعرف كلمة عربية واحدة، بل ولا أي شيء عن الحياة سوى بعض خدمات البيت كالطبخ والخبز والكنس وغسل الملابس. كان المختار قد تزوج قبلي مرتين دون أولاد.. لذا صار ابننا الأول موضع حبه وتدليله، وأنا التي أصررت على أن يكون اسمه جلال، على اسم أخي، الذي ذهب للقتال في الجبال حين كبر ولم يعد أبداً، قيل لي إنه قد قتل هناك.

أول من عرفتهما في هذه القرية هما جداك، والِدَا أُمِّك وخالك إسماعيل. كانا شابَّيْن لم أر في حياتي حباً كحبهما لبعضهما. أخبرني المختار أنهما غريبان، جاءا منذ عام على حصان من قرية بعيدة، لاجئين وقالا: "نحن دخلاء عندك". طلبا منه الحماية، فهما هاربان من إشكال عشائري بسبب زواجهما رغماً عن رغبة عائلتيهما اللتيْن هددتهما بالقتل، فرحب بهما وأعطاهما هذه الفسحة المجاورة التي بنيا عليها غرفة طينية واحدة كبيت لهما، الغرفة التي يسكنها إسماعيل. كانت جدتك غاية في الجمال، اسمها لطيفة، وجدك، شهيد الماء هذا، اسمه ناصر، لا يكل من الحركة، ولا يكف عن الابتسام، ولا يفوت أية لحظة يستطيع أن يكون فيها مع لطيفة، يرعاها ويعاملها بشكل لم تعهده امرأة في القرية، لذا كانا موضع غيرة كل النساء وصورة لأحلامهن، فيما يتغامز الرجال حوله بسبب ما يصفون أنه خنوع للزوجة وإن كانوا في دواخلهم يحسدونه على جمالها وتهذيبها. كانا سعيدين جداً، هو يعمل مع المختار في حقوله ورعي مواشيه وهي تعمل في غسل الثياب والسجادات لأهل القرية ممن تكون امرأته حاملاً أو مريضة. كانت أكبر مني وترعاني بمحبة وصبر. هي أول صديقة لي، وربما الوحيدة. علمتني كيف أرتدي أزياء الفلاحين العرب هذه، وعلمتني اللغة العربية. كانت تكرر علي الكلمات بلا كلل ولا ملل كأنها أم. أنجبا توأماً فَسمَّيا الذكر

إسماعيلَ على اسم المختار كنوع من الشكر له والبنت زكية على اسم أم لطيفة، التي أخبرتني أنها كانت ابنة باشا عثماني أحبت فلاحا، هو والد لطيفة، وهربت معه، تزوجته وظل رجال والدها الباشا يبحثان عنهما إلى أن وجداهما وأحرقاهما حيَّين، فيما أخذوها هي طفلة إلى قصر جدها. كانت تضحك وتقول (يرحمها الله): فكررت أنا حكاية أمي، ليس عن قصد طبعاً، وإنما عن حب، ولكنني كنت أشعر بدم أمي في داخلي يحترق، وكانوا يقولون لي إنني أشبهها جِدا، في كل شيء، خاصة في العناد، ربما أردت أيضاً، وبشكل ما، أن أثأر لأمي أو أن أنتصر لها على الباشا.

إسماعيل وزكية منذ ولادتهما، كانا صغيرين جدا كفرخي بط بلا زغب، مريضين دائماً وبطيئي النمو عقلياً. فكان والداهما يرعيانهما بدقة ليل نهار، يداريانهما كمداراة الماء في صحن متحرك. لا يتركانهما وحيدين أبداً، فيحرصان على أن تتفاوت أوقات عملهما ليكون أحدهما مع الصغيرين دائماً. وفي أول مرة اضطرا للعمل في الوقت نفسه تركاهما معي، فكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة حيث لم يرجعا بعدها أبدا. ما أكثر ما أستعدتُ ذكرى لحظات توديعهما للطفلين بين يديَّ! كانا يبتعدان خطوتين ثم يعودان لضمهما إلى صدريهما شماً وتقبيلاً، ويكرران توصياتهما لي مرات ومرات بالتفصيل، كأنهما على سفر بعيد، كأنهما كانا يهجسان بأنها المرة الأخيرة، على الرغم من قولهما بأنهما لن يتأخرا أكثر من ساعة.. وها هما قد تأخرا.. وإلى يوم قيام الساعة.

قيل، إنها كانت تغسل كعادتها، على الشاطئ الذي تحت جرف الحقل الذي يعمل فيه ناصر، وكان هو يطل عليها من فوق الجرف بين برهة وأخرى يمازحها ويغني تغزلاً. كان يغني لها كثيراً، له صوت رخيم قوي وعذب وفيه بحة حزن عميقة تبكي الحجر. وحين كانوا يطلبون منه الغناء في الأعراس أو حفل ما، يقول: أنا أغني لها وحدها،

فإن أردتم فاطلبوا الإذن منها هي ونادوها أمامي، فكانت تأذن ضاحكة، ويأتون بها لتجلس قبالته فيصدح هو بالغناء وسط إصغاء جمع الناس، دون أن يحول عينيه عنها ولا هي تحول عينيها عنه، كأنهما لوحدهما. شهدت أمرا كهذا مرتين.. مشهد يستحيل نسيانه لكل من رآه.

قيل إنه في إحدى إطلالاته، رأى الماء يسحبها مع سجادة كبيرة، فقفز من أعلى الجرف ورما نفسه نحوها بملابسه وجزمته ثم جرفهما الماء إلى منتصف النهر المنحدر ولفهما موج سريع لم يتح، حتى لمن كان قريباً من الفلاحين أن يفعل شيئاً لنجدتهما. لاحقاً عثروا على جثته هو ولم يعثروا منها على شيء. حتماً كان سيتمنى لو بقي معها في الغياب، قبرهما المشترك ماء النهر، أو هي تتمنى لو كانت معه، ولكن على الأقل ها هو أحدهما يبقى مع ولديهما. ها هي أمك زكية الشهيدة لصق أبيها شهيد الماء ترقد بسلام. لقد أحسنوا دفنها هنا.. قتلوها يا حبة عيني.

بقيا في رعايتنا كولدين آخرين من أولادنا. كانا هادئين، طيبين وأبلهين. حيث تأخرا وتعثرا في النطق والمشي والكلام والتعلم، وظلا هكذا ينموان ببطء دائما. إسماعيل أنت تعرفه، ها هو الآن شيخ ومع ذلك فيه من الطفولة أكثر من البلوغ.. لله في خلقه شؤون. وما أن أصبحا صبيين حتى راح إسماعيل يرافق الرعاة، يساعدهم، ثم صار راعيًا مستقلاً بالقطيع، وزكية تساعدني في أشغال البيت وتتكفل بغسل ملابسها وملابس أخيها.. وأشياء كهذه.

كانت معنا في البيت أغلب الوقت فيما راح إسماعيل يسكن في الحجرة التي هي بيت والديهما، تذهب هي في النهار لتنظيفها وترتيبها وفي الليل تعود للمبيت عندنا.. وهكذا حتى بلغا السادسة عشرة أو أكثر.. لا أتذكر بالضبط، ولكن زكية صارت صبية ممتلئة وصدرها ممتلئ وفيها الكثير من جمال أمها، لكنها تريل أحياناً وشعثاء لا تعتني

بشعرها وزينتها أو ثيابها، ولو لم تكن بلهاء لتقاتل الرجال من أجل الزواج بها. أنا كنت أعتني بها قدر استطاعتي، أحممها وأغير لها ثيابها أحياناً، وفجأة انتبهت إلى أن بطنها منتفخ، في البداية، ظننت أن الأمر عادياً لأنها في الأصل كانت بدينة، ولكنني حين راقبتها ثم تحسستها أدركت أنها حامل، وربما في شهرها الثالث حتى، أخبرت المختار بشكوكي، فقال لي حققي معها بطريقتك.. أنت امرأة وتعرفين.

اخترت لحظة كانت فيها بمزاج طيب وأخذتها من بين أطفال لاعبين في الرمل، طالما كنت أقول لها أنت كبرت فلا تلعبي مع الأطفال الصغار، لكنها، كما تعرف، لا تزال طفلة في قلبها وعقلها، وإن كانت تبدو امرأة في الجسد. انفردت بها ورحت أسألها: هل احتضنك أحد، هكذا، رجل أو ولد؟ هل لمس أحدهم هذا؟ (الصدر)، هل فعل كذا وكذا؟ وهل.. وهل..؟ في البداية ترددت، لكنني وبعطف ما وبالكثير من الإقناع والاحتيال والتخويف وجدتها تفاجئني بكونها تعترف ببراءة، وتصف اللذة التي عرفتها: أوه.. نعم، جلال يحب صدري كثيراً، يقول لي أنت حلوة ويلاعب زبيبات صدري بلسانه، يقول إن هذا اللعب يعجبه، وأنا أقول أيضاً يعجبني. هو يقول: لا تقولي لأحد أبداً عن هذا.. هذا سرنا أنا وأنت فقط، ويعطيني حلوى ونقود، وإن مانعت لا يعطيني. ويمد يده إلى هنا.. وهل؟.. وهل؟.. نعم.. نعم.. نعم..ووو آه.. يا لمصيبتك يا أم جلال!.. يا للفضيحة!. وركضت إلى المختار أخبره. يا إلهي كأنني رششت على وجهه زيت يغلي، جن جنونه وهو يكرر عليّ فيما لو كنت متأكدة وأنا أؤكد له... تأكّدي بالتفاصيل. كان الوقت مساءً، مثل الآن. وجلال ليس في البيت. كان يتأنق ويتعطر من عطر أبيه ويخرج في المساءات، قيل إن له بضعة علاقات صبيانية مع بعض صبايا القرية، مع أكثر من واحدة ومع الجميلات، وكان ذلك يغبط ذكوريّة والده الذي يُكثر من تدليله ويحميه، ويجلب له المزيد

من العطور والثياب والأحذية الجديدة في كل سفرة، ويعطيه المال ولا يطالبه بعمل، طالباً منه أن يواصل دراسته وحسب. لكن الذي لم يكن ليخطر على بالنا أو على بال أحد أن يفعل ذلك بالمسكينة زكية، لأنهما تربيا معاً كأخوة.. عدا أنها لا تعتني بنفسها وبنصف عقل.. وربما أيضاً هـذا هـو الـذي دفعـه ليفعل بها مـا فعله.. من يدري!.. كانـا مراهقيْن.. ولله في خلقه شؤون.

لدينا حجرة سـرية، مخزن أو سـرداب، سـمه ما شـئت، عرضه في طوله مترين في مترين. حفره المختار تحت غرفة نومنا ليخبئ فيه المال والأسلحة وبضائع، لم تكن كثيرة، ثلاثة أو أربعة صناديق، لكنها تحتوي على أمواله وما هو ثمين وسري. الباب إليها صغير جداً ومغطى بمرآة طويلة، سأريك إياها.. لا أحد يعرف شيئاً عن هذه الحجرة أبداً.

انتظـر المختـار حتى نـام الجميع وتجاوز الليل منتصفه، فقال لي: اذهبي إلى جلال وأيقظيه بهدوء واهمسي له أنني أريد التحدث إليه في أمر مهم، واجلبيه إلى غرفة نومنا، هنا.

توسـلت بـه أن يسـتعمل العقـل معه ولا يؤذيه، فأنـا أعرف طبعه، قلـت لـه: إنـه طفل. فقال: أي طفل هذا الذي يُحبل بنات الناس؟! كان الشـرر يتطايـر مـن عينيـه، والغضـب يعصـف به بحيث لو أنـه كان أمام أسـد مفترس في تلك اللحظة لافترس هو الأسـد بيديه. قال: اطمئني. ولكني غير مطمئنة. زدت من توسـلاتي، فوجدته ينفجر بوجهي لائماً؛ أن ذلـك نتيجـة تربيتـي الفاسـدة لأولادي، وأن مسـؤولية مراقبة ومعرفة كل شيء هي على عاتقي كونه غائباً في أغلب الوقت. إنه مثل الجميع فـي لحظـة الغضـب يلقـي باللائمـة على أي كان، وعلـى الأقرب عادة. قلـت لـه: بـل إنه تدليلك الزائد له. بالطبـع لم يكن الوقت لنقاش كهذا حينهـا. أمرنـي أن أذهـب وإلا سـيذهب هو بنفسـه ويأتي به سـحلاً من شـعره الطويـل ـ لـم يكـن يحب فيه شـعره الطويل فقـط، لأنه لا يعتبره

من سمات الرجولة، ولكنه كان يتغاضى عن ذلك كونها كانت موضة عند عموم الأولاد آنذاك.

حين دخل جلال غرفة نومنا، كان يفرك عينيه نصف نائم، أغلقت الباب خلفنا، وقال المختار له بنبرة تحكم بهدوئها بشكل عجيب، وأنا أعرف أنها تكبت خلفها صراخاً مفزعا. قال: أنت ابني الكبير، وأردت أن أريك بعض أموري الخاصة. وأزاح المرآة، تنفتح كباب، وخلفها باب من قطعتين سميكتين حديد وخشب، ثم درج ملتو إلى ما تحت غرفتنا وباب آخر من خشب وحديد. طار نعاس الولد بالطبع حين وجد المرآة بابا، وخلف المرآة باب بقفل، فتحه وقال ادخل، فانحنى ودخل وهممت أنا بالدخول أيضاً، لكنه دفعني بعنف وأوصد الباب خلفهما. فجلستُ على السرير أنتحب بصمت. ثم تذكرت أن لديه عشرين مسدسا في الداخل كان ينوي حملها إلى الأكراد في سفرته القادمة، وارتعب قلبي لأنني فكرت أنه سيقتله. فهرعت وألصقت أذني على باب السرداب. لم أكن أسمع شيئاً مما يحدث أو يقولان بالطبع. فلأجل هذا جعل البابين هكذا من خشب وحديد، لكن ثقوب المفاتيح والفراغ الذي بالكاد يرى تحت الأبواب كان ينقل إلي وقع ضربات مكتومة كسقوط حجارة في قعر طيني لبئر عميق، كذلك كنت اسمع شبه صرخات، تبدو بعيدة كأنها خلف جبل. قررت أن أصرخ وأدق الباب بقوة إذا ما تأخرا في الداخل. وإن كانت الدقيقة الواحدة، حينها، تبدو لي دهراً من الذعر. حين خرج المختار لاهثاً، منكوش الشعر، كفيه وثيابه ملطخة بالدماء، شهقت باكية: قتلته؟.. قتلت ولدي؟. قال: ليتني فعلت.. بل سأفعل، سأقتله هذا العار.

واندفعت إلى السرداب، تعثرت وتدحرجت على الدرج دون أن أعي، حتى وجدت نفسي في القاع قرب جلال الفاقد لوعيه، غارق بدمه، ثيابه ممزقة، الكدمات في كل بقعة من جسده وجراحه تنزف. احتضنته، كان يتنفس والحمدلله. لم يكن باستطاعتي حمله طبعاً، فخرجت مسرعة

كي أجلب ماء وخِرق أو أي شـيء أسـعفه به. وجدت المختار يغتسـل في طشت في الزاوية ويستبدل ثيابه. قال:

- لقد أقر واعترف بجريمته.. هذا العار ابن العار.

ثم مد لي بالمفاتيح وقال: اسـمعي، أنا سـأذهب الآن إلى الشـيخ ظاهر وأستشـيره بالأمر، وأنت اغسـلي ابنك.. وإن كانت بحار الأرض كلها لن تكفي لغسـل عاره وعارنا.. وإياك إياك أن يعلم أحد بشـيء.. وإياك إياك أن يخرج من هنا، وإلا فسوف أقتلك أنت.

ظاهـر، كان صديـق المختـار الـروح بالـروح، شـريكه بالأسـرار والضحـك والتجـارة والذكريـات وكل شـيء. لـم يكـن ليمـر يوم دون أن يريـا بعضهمـا، وكانا يسـافران معـاً في أغلب الأحيان، فمثلا من بين الأسرار التي حدث بها ظاهر المختار، على الرغم من قَسَمه على كتمها، حكايته وسهيل الدمشقي أيام حرب فلسطين، وجعلنا نُقسـم ألا نبوح بها لأحد. كانا لحظتها في سهرة نشوى والحديث يجر الحديث.

عـاد المختـار بصحبـة ظاهـر بعـد أقـل مـن سـاعة، وكنـت أنا قد فعلت ما اسـتطعت من غسـل جلال واسـتبدال ثيابه ووضع الكمادات علـى مواضـع الكدمـات وربط الجراح. لا أدري إن كان قد كسـر شـيئاً من عظامه، لذا حرصت على عدم تحريكه قدر الإمكان. كان شبه ميت يا حبة عين أمه.

دخلا صالة الديوان. كان المختار قد هدأ إلى حد ما، وقال ظاهر: هل أستطيع رؤية الولد؟

فنظرت إلى المختار منتظرة إجابته، وما كنت لأتوقع بأنه سيسمح لأي كان بمعرفة أمر السـرداب، ولكن يبدو أنه قد سـبق له إخبار ظاهر به أو إطلاعه عليه، أو ربما هو فكرة ظاهر أصلا، وقد يكون لديه سردابه الخاص في بيته أيضاً.. من يدري!. فأشار إليّ أن أصحبه وبقي هو في الصالة. في طريقنا رجوت ظاهر ألا يدع المختار يؤذي جلال أكثر، وأنا

أعرف ما له من تأثير عليه. قال:

- لا تقلقي يا امرأة، هذه فورة غضب، مشكلة وتنتهي.

في السرداب، أخرج من جيبه كيساً فيه قنينتا دواء، أحدها سائل، ربما معقمات أو لا أدري، وأخرى فيها مرهم، وراح يسكب من السائل على الجروح، ينظفها، ويدلك بالمرهم الكدمات التي ازرقّت، قائلا: افعلي هذا مرة كل يوم. وراح يقلب بدن جلال ويردد عبارات دينية، ثم قال:ـ ليس فيه كسور والحمد لله. تنفس جلال لحظتها بقوة وتوجع. وواصل ظاهر قوله: لا تخافي، سيشفى سريعاً ويعود كما كان. ثم خرج. وضعت القنينتين على الصناديق وتبعته.

في الصالة أمرني المختار أن أعد لهما الشاي، وحين عدت بالشاي وجدت ظاهر يحدث المختار على أن الأمر وسوسة شيطان وبدافع منه للفتنة، فالشيطان يفتن بين المرء وزوجه والوالد وولده وبين ابن آدم ونفسه، وأن على المختار أن يتصرف بتعقل مثلما اعتاد أن يفعل دائما في حل قضايا الناس. والمختار يقول له، بأنه لو يفعل مع هذه القضية كما يفعل مع قضايا الناس فسيعني هذا أن يجعلها علنية وعقوبتها وحلها علني. وظاهر يخبره أن لأية مشكلة الكثيرَ من الحلول، وما عليه الآن إلا أن يهدأ وسنجد الحل المناسب، فيما المختار يواصل تعبيره عن شعوره بالصدمة وبأنه لا يحتمل هذا الخزي الفظيع الذي يمرغ سمعته وسمعة عائلته وأصله إلى الأبد. وراح ظاهر يسوق له العديد من الحكايات الشبيهة من التاريخ ومن ذاكرته مع العديد من حلولها، وقال: يمكننا تزويجهما مثلاً، وهكذا تنتهي المشكلة. ثم نظر إلى ساعته وقال: أنا أذهب الآن، وسأراكم غدا.

بعد ذهابه بقينا أنا والمختار صامتين لا ندري ماذا نقول، ولكني رأيته قد عاد إلى تماسكه. ثم أمرني أن آتي له بفراش له لينام هنا في الصالة. ففعلت، ومنذ تلك الليلة ظل ينام هناك، ولم يبت معي في

غرفة نومنا أبدا حتى موته. كما أنه لم ير جلال أبدا. وعلى مدى أسبوع قاس تماثل فيه جلال للشفاء وصار يجلس ويتحرك ويأكل ويتحدث، لم يقل لي المختار إلا شيئا واحدا هو: تأكدي جيدا من أن الصناديق مقفلة. أما جلال فكان شعوره بالذنب والندم كبيرين. كان يبكي ويود لو يذهب إلى أبيه أو يأتي إليه هو كي يعتذر له بنفسه، كي يقبل كفيه وقدميه راجيا منه العفو والمغفرة. كان يحب والده كثيرا وشعوره بأنه قد خيّب أمله فيه يدمره. وأخبرته إن شاء أن يهرب فسوف أدعه يفعل ذلك، لكنه رفض وقال أن لن أفعل إلا ما يأمرني به أبي ويُرضيه حتى لو أراد قتلي.. بل إنه فكر بقتل نفسه.. فكنت أهدئه وأقول له بأن عليه أن يصبر، وأن والده سينتهي بمصالحته ومسامحته، أما الآن فهو غاضب.. وهو محق في غضبه.

لم نخبر أحدا بشيء، قلنا لبقية العائلة أن جلالاً قد سافر لزيارة أخواله في كردستان لبضعة أيام وسيعود. وبعد الأسبوع الذي تحسن فيه، عدنا للسهر وتداول الأمر، نحن الثلاثة. وكانت الفكرة أن يتم تزويجهما، فأمراني أن أذهب إلى جلال وأخبره، لكن المفاجأة كانت رفضه القاطع. بالطبع، كان فتى في أول شبابه ولم يكن ليحتمل فكرة الزواج من زكية فيما أجمل بنات القرية يحلمن به وفيما الناس ينظرون إليهما كإخوة. ذهب إليه ظاهر ليقنعه ولم يفلح، أجابه بأنه سيقتل نفسه لو أجبرناه على ذلك. هم المختار أن ينزل إليه هو الآخر ويوسعه ضربا كالمرة السابقة حتى يجبره على الموافقة، لكن ظاهر منعه قائلاً: لا يمكن إكراهه على الزواج.. ثم حتى لو أننا زوجناه فسيبقى المولود ابن زنا لأنه تم خارج الزواج، ثم إن الناس سيتقولون أكثر حين يرون زكية تنجب بعد سبعة أشهر من زواجها، ومنهم من سيهمس؛ انظروا كيف أهدى المختار هذه اليتيمة المسكينة لابنه كما يهدي نعجة.. علينا أن نفكر بحل آخر.

تعتمت أرواحنا مرة أخرى، حلقت الحيرة حول رؤوسنا وبدأ قلق المختار يتعاظم. أطلنا الدوران في حلقة التفكير بالبحث عن حلول ما، وهما يقلبان الشرع والأعراف والتقاليد والحكايات الشبيهة والاقتراحات والاحتمالات. قال: نجهضها ونسقط الطفل. فقال ظاهر: هذا حرام فهو الآن جنين وله نَفْس ونفخ الله فيه الروح، سيكون قتله جريمة، وإذا كان لنا أن نعاقب والديه بما اقترفا من ذنب فما ذنبه هو أن نعاقبه؟ في نهاية الأمـر توصـلا إلـى أن تتم معاقبة جلال بالنفـي بعد أن عوقب بالضرب والجلـد، أن يُطـرد مـن القريـة ولا يعود إلا بعد أعـوام أو لا يعود أبدا، وأن تُعزل زكية وتُخفى عن أعين الناس إلى أن تضع مولودها ثم تُعاقَب. على أن يتم كل ذلك بسـرية تامة وكتمان، درْءً للفضيحة وحفاظاً على سـمعة المختار، وسـمَّيا الأمر على أنه من باب السـتر لا باب التسـتر.. والله قد أمرنا بالستر، كما قالا!

اقترحـت أنـا، أن يُبعَـد جـلال عند أقارب لي فـي بلدة (رانية) في كردسـتان، وهكـذا نسـتطيع زيارتـه والاطمئنـان عليـه، كما يسـتطيع هو مواصلة دراسـته، إلى أن تمر بضعة أعوام ثم يعود. لكن المختار أصر علـى أن يُبعـد خـارج العـراق تماما، وألا يعود أبـدا، وأنه لا يريد رؤيته ولا معرفـة شـيء عنـه مـدى الحياة، فطلب من صاحبـه ظاهر أن يأخذه في ظلام الليلة التالية ويسـلمه إلى أصحاب لهما من الأكراد المهربين للأسلحة والبضائع والبشر على الحدود كي يقوموا بتهريبه إلى أي بلد مجـاور أو إلـى الجحيـم، كمـا قـال، وليتدبر هو أمره بعدهـا، أو ليمت ككلـب أجـرب.. قـل لـه ألا يعـود إلينا أبـدًا، وألا يكتب لنا أية رسـالة وألا يحاول الاتصال بنا.. قل له أن ينسانا إلى الأبد ونحن أيضا بدورنا سـننسـاه منـذ الغـد، لـن نعتبره ابناً ولدناه.. وإنما خـراء، كأي خراء آخر تغوطناه ونسيناه.

ما أكثر ما بكيت وتوسلت حينها ولم ينفع بكاء أو توسـل. أمضيت

الليلة مع جلال أحتضنه، أقبله وأبكي وأوصيه، وهو يبكي فقط لأن والده لا يريد حتى رؤيته أو توديعه.. أرأيت كيف هم الرجال وما فيهم من قسوة؟! كانا فقط يفكران بنفسيهما وببعضهما البعض ولم يفكرا بنا نحن: أنا وزكية والجنين أنت.

نفّذ ظاهر المهمة حرفيا، وانطلق بسيارته آخذا جلال في جنح ظلام الليلة التالية، وكذلك العشرين مسدساً التي كان يخبئها المختار. حتى اللحظات العصيبة، لم ينسيا استثمارها بتجارتهما! قالوا للناس إن جلال سافر لإكمال دراسته في روسيا. بعدها لم نعرف عن جلال شيئاً أبدا، ونسِيَه الناس بالتدريج بعد أن ظهرت شائعات متعددة ومتباعدة وخفيفة لا أعرف حتى مصدرها، منها ما يقول بأنه عبر الحدود الشمالية إلى بلد مجاور، سوريا أو إيران أو تركيا، ذهب إلى ألمانيا وتزوج هناك واستقر، وأخرى تقول مات في حادث سيارة في باريس، غرق في مضيق جبل طارق حين حاول العبور تهريباً من المغرب إلى إسبانيا، تحول إلى رجل دين في إيران، ذهب إلى أفغانستان وقتل في صراع قبلي، وصل إلى كولومبيا وانضم لمسلحين وصار له منصب بينهم، يتاجر بالمخدرات في البرازيل، عمدة في قرية هولندية.. وتاهت عليّ خيوط الحكايات أو أنني تهتُ بين الأقاويل ولم أعد أعرف الحقيقة أو ما يفترض بي أن أصدقه منها، بل حتى إن قلبي الذي ظل ينبئني دائما بأنك حي لم يحدثني عنه بأي شيء محدد على الإطلاق. المختار منعني حتى من ذكر جلال أو البكاء عليه أمامه. فجأة وكأنه لم يكن موجوداً بالنسبة له.. وإن كان قد اعترف لي، قبل موته، في لحظة ضعف بأنه لم ينسه أبداً وبأنه بكاه سرا لأكثر من مرة.

- 13 -

حياة في قبو

قالت:

أما زكية... فبعد بضعة أيام من ترحيل جلال، قام خلالها المختار بإخراج صندوقين من السرداب تاركاً الثالث فارغا، وصنع حوضاً إسمنتياً مثقوباً في الزاوية ليكون بمثابة حمام. أمرني أن أفرش لزكية في هذا القبو ويكون الصندوق الفارغ لملابسها والحاجيات، أن أُنزلها وأحبسها هناك وأداريها إلى أن تضع مولودها، فيما أشاعا، هو وظاهر، بين الناس بأنهما قد زوجاها إلى بدوي في صحراء الرمادي، وعدّ الناس فعلتهم هذه بكونها من أعمال الخير في أن تدبروا زوجا وعائلة لهذه اليتيمة المريضة التي ما كانوا ليتخيلوا بأنها ستتزوج في يوم ما.

كان الحبس قاسياً عليها. مكان ضيق بلا نافذة ودون تمييز ليل من نهار، عزلة بلا رؤية أحد سواي، وهي الطفلة المعتادة على الحركة واللعب مع بقية الصغار. لقد كلفها وكلفني التأقلم على هذا الحال كثيراً. كنت أسليها وأخدعها بالحكايات. أعلمها الحياكة والتطريز وأحثها على استغلال وقتها الطويل بتجهيز ملابس لوليدها القادم وأعلمها صنع الدمى وألعب معها طويلاً، حتى إني نفسي قد استهوتني لعبة الدمى هذه، لأنني حرمت منها في طفولتي، فكنا نصنع من القصب عائلات كاملة، نجمع قصبتين، الغليظة، بطول شبر تقريبا، تمثل الجذع، وأخرى رفيعة أقصر، تمثل الذراعين، نربطهما على شكل صليب. من قطع القماش القديمة نفصل للدمية ثياباً، ونرسم لها وجهاً بقلم الكحل. كنا نخلق عالماً كاملاً بديلاً عن العالم الخارجي، ولكل دمية اسم وعمل

وعائلة وبيت هو علبة كارتون.. وهكذا، فيما إسماعيل المسكين ظل يسأل عن زكية ويبحث عنها حتى بعد أن أخبروه بزواجها. كان يذهب إلى الأماكن التي أعتادت اللعب أو الجلوس فيها، ويجلس هناك صامتاً، تائه الذهن لأوقات طويلة، وراح بدنه يَنحَل من شدة شوقه إليها، وبما أن أحداً لم يحدثه عنها، اضطر إلى كبت وجع غيابها داخله والتظاهر بتناسيها. صار أقل مرحاً. كانت الأيام الأولى لاختفائها شديدة الوطأة عليه، ثم شيئاً فشيئاً أخذ، هو الآخر، يعتاد على غيابها بصمت.

كنت أبقى جل الوقت الذي أستطيعه مع زكية ولا أكاد أتركها لوحدها إلا وهي نائمة، ومن أجل التوفيق في ذلك وكي أكون حاضرة في الخارج في الوقت نفسه، وبما أنها لم تعد تُدرك الليل من النهار، قلبت لها المواقيت بحيث صارت تظن النهار ليلاً والعكس، فتنام أثناء النهار وتصحو في الليل، أما أنا فقد طبّعت نفسي بسرقة ساعات نوم في تقاطعهما. لم أخرجها من القبو إلا مرتين أو ثلاثا، وفي وقت يكون فيه المختار غائباً، وإلى غرفة النوم فقط وليس إلى الخارج. فعلت ذلك حين وجدتها تشعر أحياناً بأزمة اختناق حقيقية وتبكي، فأتركها تتجول في غرفتي وتظل تمشي دائرة بخطوات واسعة متلذذة بالمشي كنعمة نادرة، أو تتمدد على سريري الواسع وتتقلب فيه متمرغة في وثرته، سعيدة كبطة في ماء. كانت تحدثني عن أحلام نومها والكوابيس، تحدثني عن جلال بشوق ومتعة وتفاصيل في علاقتهما، أخجل من ذِكرها، وما قاله لها. كنت ألمس فيها.. وكأنها تحبه دون أن تعرف تسمية ذلك، لأنها بلا أية فكرة عن الحب كما يفهمه الناس، ولكنها تستشعره وتعبر عنه بأحاديث الذكرى وبالإشارات وبريق عينيها.. بخدر وصفاء. وأنا بدوري أحدثها عنه وعن طفولته وكل ما أتذكره. كنت، على هذا النحو، أنفس عن شدة شوقي إليه، وخاصة، أن لا أحد، غير زكية، صار يذكُره أمامي. بعض الجارات يسألنني عنه بين أوقات متباعدة، فأدعي أن المختار على

تواصل معه عبر رسائل شفهية ومكتوبة وبأنه بخير ويواصل دراسته وما إلى ذلك. أجيب بأقل الكلمات وأكثرها تعمية وتهرباً، وأسارع إلى تغيير الموضوع.

لـم أكـن أحـدث زكية بأي شـيء عـن الخارج، وإنمـا أخلق معها عالمـاً جديـداً عبـر الحكايـات والأحـلام والدمـى، وحيـن تسـألني عن شـقيقها إسـماعيل، أقول لها بأنه بخير ويسـلم عليها وأنه مشـغول جداً لأن القطيع الذي يرعاه يزداد وحصته من الغنم والماعز تكبر، لديه الآن عشـرون نعجة واثنا عشـر تيـــاً وعنزة، كلها مُلك له، ويقول لكِ بأنكِ، بعد أن تلدي، ستكونين أنت وطفلك، شركاه له بهذه الماشية وسيكون لديكما زبد وصوف وحليب كثير.

من حسـن حظنا، هي وأنا، أن ولادتها كانت طبيعية ويسيرة، وأنها كانت في الليل، أي في النهار بالنسبة لها. قمت أنا وحدي بكل شيء، وحيـن أطلقـتَ أنـت أول صرخـة لـك، احتضنتك بدمـك على صدري وبكيت، فيما نامت هي طويلاً بعمق عجيب.

في اليوم التالي، عندما وضعتك على صدرها نظيفاً، وعلمتها كيف ترضعك، قالت ببراءة وشهقة فرح: أوووه، هذا ابني!.. ما اسمه؟. قلت لها: سـميه أنت كما تحبين. قالت على الفور: جلال. ثم أعقبت: لا.. لا.. إسماعيل.. أو جلال.. ما رأيكِ أنتِ؟.

وحين وجدتني غير متحمسة لأي من الاسمين، لأنني في الحقيقة ما أردت لها أن تكرم أسماء من آذوها، المختار وابنه، وإن كنت أعرف بأنها تقصد بإسماعيل شقيقها.

فقالت: ماذا؟

قلـت: لا.. فـي رأيـي لا.. لأن عندنـا جـلال وعندنا إسـماعيلين. الأفضل أن تفكري له باسم جديد لأنه جديد أيضا، اسم خاص به يعني. فكَّرت قليلاً ثم هتفت: قَمَر.

قلـت: نعـم، هـذا اسـم جميل لطفـل جميل، قمر، إنـه قمرك أنتِ وقمري أنا.

فـي طفولتهـا، كانت مولعة بالتحديق إلى القمر، وخاصة في ليالي الصيف حين ننام خارج البيت، على السطوح أو في الباحة. تظل تنظر إليه وأحيانا تحدثه وتغني له إلى أن تنام، لذا أسمت أحب الدمى إليها وأصغرهـا، قمـر. كانت تكلمهـا وتغير ثيابها وتختار لها كوالدين وأخوة أفضل الدمى التي عندها.

لـم يكـن المختار ليسـألني عن تفاصيل حالنـا طوال وقت الحمل ولكنه كان يوفر لنا كل ما أطلبه منه، بصمت، أدوية وثياب أو طعام ومما كانت تطلبه تشهيا عند التوحم وما إلى ذلك، وحين أخبرته عن الولادة لم يسألني حتى عن جنس الطفل. بادرتُ وقلت له أنه ذكر ولم يسألني عن اسـمه. كان يبتلع ريقه بحسـرة جارحة، أنا أعرفه، وأعرف مرارة ما كان يخطـر فـي ذهنـه بيـن الحلـم والتمني وبين ما يعتقد أنه مشـكلة أو واجب محتوم.

ولادتك جعلت من حياتنا في القبو عالماً آخر، عالماً حياً.. وحتى جميـلاً أحيانـا. لـم يعـد خانقـاً أو مملاً كمـا كان، بل كنا ننسـى حدود جدرانه الضيقة، وننسـى المشـكلة التي نحن بسـببها هنا. صرنا نتحدث إليك ونعتني بك ولا نكف عن مراقبتك والتحديق بكل حركة تتحركها. كانت هي أكثر امتلاءً بالسعادة مني، فأنا حين أنتبه، وأتذكر سبب وجودنا وما يمكن أن يحدث لاحقاً وفي أية لحظة، وجلال ابني الذي لا يدري عـن ابنـه شـيئاً، مثلـي تماماً لا أدري عنه، عن ابني شـيئاً.. كانت تصعد مـن صـدري، مـن قلب القلب، موجة حامضـة حارقة من الحزن وتقف في بلعومي، لا هي خارجة كبكاء ولا هي نازلة منسحبة.. فأبقى ذاهلة في سكوني المُر.. إلى أن أنتبه إلى زكية وهي تناديني مشيرة إلى حركة ما قد بدرت منك..

بعد عشرة أيام، سألني المختار عن صحة زكية، وأخبرته أنها تحسنت تماماً، فقال: إذا استعدي لوضع نقطة النهاية لهذه المصيبة.

ارتعد قلبي ونشف ريقي فسألت بتلعثم: ماذا؟.. كيف؟.. أقصد ما الذي فكرت به؟

قال: قررنا أنا والشيخ ظاهر أن تنال هي عقوبتها على ما اقترفت، أما الرضيع فيذهب في نصيبه لأنه لا ذنب له.

- هي أيضاً لا ذنب لها، إنها معتوهة!

- القانون لا يحمي المغفلين.

- ماذا تعني؟.. ما الذي ستفعلانه؟

وبنبرة جادة وقوية ناهرة، قال: اسمعي يا امرأة.. هذه مسائل لا تفهمينها أنت، تتعلق بالأعراف والتقاليد والأصول والشرع، وعلينا نحن الرجال تقريرها والقيام بها بأقل الخسائر أو الفضائح.. أما أنت، فليس عليك سوى الطاعة، وإياك إياك أن تفتحي فمك بكلمة واحدة لأي مخلوق عن هذا الأمر، وإلا قطعت لسانك، هل تفهمين؟

لم يكن أمامي حينها إلا الوقوع على كفه أقبلها، أبكي وأتوسل به أن يؤجل الأمر ولو لبضعة أيام على الأقل، من أجل زكية ومن أجلي، وبشكل أكبر من أجل الطفل الذي يحتاج إلى الرضاعة من أمه. صمت طويلا، وأدركت أنه قد تأثر أو اقتنع، فقال: حسناً، سأتشاور بالأمر مع الشيخ ظاهر. وخرج.

عندما تلاقينا في اليوم التالي، لم يتطرق إلى الأمر بأي شكل، وأنا الأخرى لم أسأله عنه، وحين وجدت الأيام تمر دون إشارة، عرفت أنهما قد أجلا المسألة، أو فكرا بحل آخر أو تخليا عما قرراه. فكنت أعيش موزعة بين القلق والأمل، ولأكثر من مرة، راودتني فكرة أن أصطحب زكية والطفل ونهرب في ليل، ولكن كيف؟ وإلى أين؟ فكرت بكردستان، من حيث أتيت، ولكن في الحقيقة ليس لدي عائلة مباشرة أو

أحد هناك أصلاً، وعلاقاتي وذاكرتي تكاد تكون قد انتهت، فمنذ زواجي صغيرة لم أرجع، حتماً أن الأشياء قد تغيرت ونسوني. ولا شيء في ذاكرتي سوى صور متناثرة، مشوشة عن طفولة قاسية ولحظات حنان موجزة مع جدتي قبل موتها، لم أعد أعرف حتى كيف الوصول إلى هناك، صارت حياتي كلها هنا، وكأني ولدت في هذه القرية، وبالمقابل، كنت أمني نفسي بأن تسير الأمور على نحو مغاير، فأميل للتخلي عن فكرة الهرب غير مضمونة العواقب. أحياناً، كنت أحلم أن يرجع جلال فجأة وقد أصبح رجلاً حقيقياً وأن يجد حلاً بعد أن يرى طفله، كأن يقبل الزواج بزكية ولو كزوجة ثانية.. وهكذا أكون أنا مع ابني وحفيدي وزكية التي هي ابنتي أيضاً، فأنا من ربتها طفلة.

بعد أسبوعين من صمت المختار وقلقي المتضاعف، وذات سهرة من سهرات المختار وظاهر المعتادة، وجدت نفسي لبرهة مع ظاهر على انفراد بعد أن ذهب المختار إلى الحمّام، فسارعت بسؤاله عمَّ اتفقا عليه. قال: قررنا تأجيل المسألة لشهر، أي لم يبق إلا أسبوعان، فجهزي نفسك يا أم جلال بحكمة وصبر.

ومن فوري قفزت قربه ورحت أقبل كفه متوسلة، وهو أمر ما كنت لأستطيع فعله لو كنت في كامل عقلي لحظتها. كان قلبي هو الذي قفز قبلي والدموع. توسلت به، استحلفته بأبنائه وشرفه أن يجد حلاً لا يؤذي زكية وطفلها، وإن لم يكن، فعلى الأقل، أن يقنع المختار بالتأجيل لشهر آخر بعد انتهاء هذا الشهر. لقد فوجئ الرجل وشعر بالاضطراب والحرج وهو يسحب كفه من أمامي فزعاً، وبالطبع يخشى أن يدخل المختار فجأة ويجدنا على هذا الحال، لذا وعدني على الفور دون تفكير، فقلت له: اقسم بالله. فأقسم.

أجلو الأمر إلى أن أصبح عمرك شهريْن وعشرة أيام بالضبط، حيث حلت تلك الليلة المشؤومة. قبلها كانت زكية قد تعلمت الكثير

من تفاصيل رعاية الطفل وانفتح قلبها على الحب بأوسع ما يكون، ولا أستطيع أبداً نسيان فرحتها وهي تراك تبتسم لأول مرة، فصاحت بي حين كنت أرتب الثياب في الصندوق.

- هيي تعالي، تعالي لقد ابتسم قَمَر، والله رأيته يبتسم.

كانت ابتسامات غير مقصودة ضمن حركات كثيرة يقوم بها أي رضيع، لكنها بكت وصفقت من شدة فرحها. في البداية كانت تُلقمك الثدي كله حتى توشك تخنق أنفاسك، فعلمتها كيف تقوم بالرضاعة جانباً.. وأشياء كهذه. كنت تمثل لها حياة حقيقية. تسألني، أحياناً، عن جلال وأخبرها بما نخبر به الجميع: سافر للدراسة. وكنت أزيد في الكذب عليها، وأقول: سيعود عندما يصله الخبر الذي بعثناه له.

ذات مرة دخلتُ عليها، وقالت: أريد أجمل ثلاث ريشات في ذيل أجمل ديك. لم أسألها وأتيتها بها في اليوم التالي. بعد يومين، أرتني قبعة جميلة، صنعتها لك بقص زاوية أحد الأكياس القماشية وقامت بتطريزها وربط خيطين لها على الجانبين لشدهما تحت الحنك، وفي الزاوية العليا ثبتت الثلاث ريشات، وعند الجبهة علقت قلادتها الفضية التي ورثتها عن أمها، فكنتَ تبدو رائعاً كطاووس ملكي حين تضع القبعة، تدير رأسك فتهفهف الريشات بحزمة ألوانها كقوس قزح وتهتز القلادة. وظلت، كل يوم، تضيف تفصيلاً جديداً وطرزاً جميلاً على هذه القبعة، كأنها تحفة لا ينتهي العمل فيها أبداً، وهي أهم ما بقيت احتفظ به في الصندوق حتى اليوم... إن شئت أعطيك إياها والصندوق هذه الليلة، حال عودتنا.

صمتت زينب، تحسرت زافرة، وواصلت: آه.. يا إلهي، ما كنت أظن أبدا بأنني سأقص على أحد تفاصيل تلك الليلة التي لم أنسها في كل الليالي اللاحقة، الليلة التي طعنت بالوجع كل ما أعقبها من ليالٍ. حتى لك أنت، ما كنت أفكر بأنني سأقص عليك تفاصيلها،

ولكن سأفعل، فأنت الآن رجل ورأيت الأهوال. وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي سأروي فيها تلك المشاهد التي حُفرت في ذاكرتي وقلبي كجراح دائمة الوخز والنزف.

ربما كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. دخل عليّ المختار كالقَدَر المُستعجل. كان متوتراً، عصبياً، حاداً وناشفاً أكثر من أية لحظة أخرى عرفته فيها، وقال بنبرة آمرة قاطعة مخيفة: اسمعي جيداً، لثمي زكية وغطي عينيها وهاتيها الآن بسرعة. قولي لها بأننا سنأخذها لمفاجأة سارة وعليها أن تطيع في كل ما نقوله لها.. هل فهمتِ؟

أدركتُ أن اللحظة المجهولة التي كنت أخشاها قد حانت، وأن أي قول أو فعل من قبلي لم يعد مجدياً، ولو بادرت بأية ممانعة، فلن يتردد المختار، وهو على تلك الحال، من صفعي، بل وحتى قتلي.

بشكل ما، غير مباشر، رحت أحاول قول أو فعل شيء، لا أدري ما هو على وجه التحديد، ولكنه نوع من المواصلة في المحاولة حتى النهاية بقدر ما متاح وأستطيعه، فتمتمت: والطفل؟ إنها سترفض أن تتحرك ولو لخطوة واحدة بدونه، إنها متعلقة به بجنون.

قال: ها.. لا بأس.. هاتِهِ أيضاً، ولا شيء آخر على الإطلاق.

قلت: وأنا، عليّ أن أذهب معكم أيضا، لأنها إذا تلثمت، قد يسقط الطفل من يدها أو يبكي، أو قد تسأل أو تحتاجني بشيء ما.

صمت مفكراً للحظة، ثم قال: المهم الآن، افعلي ما قلته لك، وتعالي معها إلى السيارة بسرعة وبلا أية ضجة، وعندها سنرى، أنا والشيخ ظاهر بانتظاركم.. هيا.. هيا.. بسرعة. وخرج.

عرفت أنه سيستشير صاحبه في مسألة رفقتي، وحين خرجنا كان باب السيارة مفتوحاً، مباشرة لصق باب البيت المفتوح، فأشار لي بكفه أن نصعد بسرعة، في المقعد الخلفي. أعنت زكية حتى أجلستها، وضعت الطفل في حضنها، وأشرت إلى صدري قاصدة؛ هل أصعد،

فأشـار بالإيجـاب وصعـدت. مـد ذراعـه وأغلق الباب بـلا ضجة، لكنه سـحبه فـي النهايـة بقـوة حتى تأكد مـن إغلاقه. كانـت النوافذ موصدة، ظاهر خلف المقود.. وانطلقت بنا السيارة.

في السماء قمر مكتمل، ليت زكية تراه. كانت صامتة كما أوصيتها، تحيطك بذراعيها ضمًا إلى صدرها، مُلصقة ساقها بساقي كي تتأكد من وجـودي بجانبهـا، مثلمـا أفعل أنا الآن معك، وكأنني الأخرى أتأكد من وجودك.

كانت القرية هاجعة، وسـكون غريب يخيم على كل شـيء.. مما يجعل لحفيف عجلات السيارة حضوراً أكبر. هرسها للحصى والتراب. حفيـف يشـبه خربشـة أظافـر علـى ورق. كنـت أحـس بها علـى جلدي فينكمش وأشـعر بشـعره يقف. حين خرجنا من القرية، خلا الكون، بدا هوة من فراغ، صفحة واسـعة معتمة يتوسـطها القمر أمامنا مباشـرة. لم يكن في الوجود سوى قمر عالٍ ومتعال والظلمة تطوقه وتطوقنا. وشيئاً فشـيئاً، تحـت ضوئـه، صـارت الرؤيـة تشـبه الفجر بحيث إن الأشـجار صـارت تُـرى علـى حافتـي الدرب سـوداء، ومن ثم يتوالى السـواد من خلفها حتى يطبق على الآفاق البعيدة.. والأبعد.

كسر ظاهر الصمت بسؤال زكية عن حالها، فقالت: بخير يا عمي. وقـال لهـا: رددي بعـدي كل مـا أقولـه. وراح يقـرأ أدعية واسـتغفارات ونصـوص قرآنيـة. عبارات دينية كالشـهادة بالله والتوبة إليه وإقرار بحق المـوت، فكانـت تـردد بعده كل ما يقول، ثم وجدته يلقنها ما يتم تلقينه للمحتضر أو الميت، فشعرت باحتباس أكثر في أنفاسي وبانقباض أشد فـي صـدري. اختنـق صوتـي واسـتحال علـيّ النطق... إلـى أن وجدت السـيارة ترتفـع سـفح تـل المقبـرة هـذا، لتقـف هنا في قمتـه. هنا جوار شوكة البحر. كانت حينها أصغر مما هي عليه الآن بكثير.

نـزلا وأمرانـا بالنـزول. فتح المختار الصنـدوق الخلفي وحمل من

هناك ما رأيته في البداية عكازين وعلبة، عرفت لاحقاً أن ما رأيته علبة كان وسادة والعكازين، بندقية ومجرفة. قادنا ظاهر بضع خطوات، فوجدت حفرة مستطيلة، هذه، جوار قبر شهيد الماء، حفرة، قبر، قال: أنزليها.

ولا أدري ما فعلت. كنت غير مصدقة، مصرة في ذهني على أن هذا الذي أشهده ما هو إلا كابوس وسينتهي في أية لحظة، وإن كان واقعاً فهو فعل دروشة ومعالجة سحرية ما، فما أكثر ما سمعنا عن حكايات معالجة المجانين في المقابر. أنزلها هو دون أن يكف عن الكلام بنبرة مهدئة لينة ومتدينة. قال: توجهي هكذا، قفي هنا. أوقفها في منتصف الحفرة وتناول من تحت إبطه قطعة قماش بيضاء، وحين فتحها كانت على شكل كيس كبير. كانت كفن. ألبسه في رأسها فبدت كشبح واقف في وسط الحفرة، وسرعان ما رأيته يبدأ بلف حبل على جسدها والمختار يعينه في التوثيق، فارتعبت هي حين أحست بقوة الشد والربط على جسدها، تململت محاولة التملص لكن المختار صرخ بأذنها عالياً أن تتوقف، ففعلت، سكنت وهي تلهث وتشهق بالبكاء فيما ظاهر يقول لها: اهدئي يا ابنتي.. هذا من أجلك أنتِ، ومن أجل روحكِ.. ما هي إلا لحظات قليلة وينتهي كل شيء فتجدين نفسك في عالم أكثر راحة.

كان القمر البدر بكل سطوعه في مواجهتها تماماً، فوجدت نفسي أقول: على الأقل، دعوها ترى القمر.

وهتفت هي حين سمعتني: نعم، أريد أن أرى قمر، أريد أن أرى قمر.

فسارعت، ووضعتك لصق وجهها المُدثر، ولأنني تعثرت وكدت أسقط حتى ارتطم وجهي بوجهها، قبلتها وبكيت وبكت هي. ووجدت المختار يسحبني إلى الخلف بقوة، يدفعني لخطوات بقبضة كادت تخلع كتفي ويضغط حتى أجلسني على الأرض وأنا أبكي. ثم رأيتهما يتناولان

حجارة ويشرعان برجمها وهي تصيح، حتى سقطت أو أسقطوها ممدة في الحفرة، وحين علا صوتها راحا يبحثان عن الوسادة والبندقية فعرفت أنهما سيطلقان النار عليها، وآخر ما رأيت؛ ظاهر يحمل الوسادة والمختار يحمل البندقية. نهضت أحملك ورحت أركض هاربة، خفت عليك منهم. أنزلُ سفح التل بأسرع ما أستطيع والشوك يخمش قدمي والحصى يدميني.. أنزل.. أنزل.. بل أهوي وأنحدر سقوطاً. كنت أسمع صراخ زكية المكتوم يبتعد، ثم خرس، سكون، بعد أن سمعت انفجار إطلاقة مكتومة.. وبعدها أخرى أشد وضوحاً ودوياً، فتعثرت وسقطت متدحرجة لمسافة، راصة إياك على صدري، أتدحرج، حتى أوقفتني صخرة ساندة في عمق الوادي.

لا أدري كم طال بي المكوث هناك وأنا أحاول تهدئتك من الصراخ أكثر من تحسس ما أصابني من كدمات ورضوض وجروح... كنت، في نفسي، مصرة على إنقاذك أو الموت معك، وبشكل ما، مصرة على أن ما يحدث هو مجرد كابوس، فأستعيذ بالله من الشيطان وأتوسل إلى الله أن ينهيه فأصحو. وفجأة رأيت السيارة تجول في الوادي والمختار يمشي أمام ضوئها الذي تسلط عليّ واقترب، فدنا المختار ورفعني، فيما نزل ظاهر وأخذك من بين ذراعي المتشبثين بك. كنت لا أقوى على الوقوف فقادني المختار سانداً، وشبه حاملاً إياي، إلى أن وضعني في السيارة وهو ينهرني: أأنت مجنونة؟!.. ما هذا الذي تفعلين؟.. خلاص، لقد انتهى كل شيء.

أخذك المختار بين ذراعيه لأول مرة، فيما جلس ظاهر خلف المقود وساق السيارة وهو يقول لي: هذا افضل لروحها يا أختي، أن ينال ابن آدم عقابه على ذنبه في الدنيا الفانية خير له من أن يقع عليه عذاب الله الأبدي في الآخرة. صدقيني إنها ستشكرنا في الآخرة. أنت مؤمنة وما عليك إلا الرِّضا بحكم الله والصبر والاحتساب لقَدر الله

ومشيته.

بل هي جريمتهما وهما يعرفان تماماً بأن ما فعلاه ليس من الدين في شيء. لم أقل شيئًا. كنت أرتجف وأنشق مخاطي، أنشف دمعي وأتحسس مواضع الألم التي بدأت بالوخز الموجع في أنحاء جسدي، بدأت أشعر وكأن عظامي قد تحطمت وجلدي تمزق. أحس برطوبة الدم تبلل ثيابي وحلقي.

حين وصلنا بيتنا، قال المختار: هيا انزلي واذهبي إلى غرفتك مباشرة، وإياك إياك أن تثيري أية ضجة.. وأنا سأعود إليك بعد قليل.

قبل أن أنزل، مددت ذراعي إليك كي آخذك، فقال:

- خلاص، إنسي هذا الطفل، سنمنحه لأبوين يرعيانه. هيا انزلي.. اغتسلي وتوضئي وصلي كي تهدئي وتنامي.. هيا.

- 14 -

طفولة في صندوق عسكري

لم يقاطع عبدالله حديث زينب بأية كلمة، لم يسألها عن شيء، كما توقعت. كانت تشعر بصمته ثقيلاً كشعورها بثقل أعوامها. تحس بهذا الصمت وتسمع تنفسه ونفثه لدخان سجائره المتلاحقة. تعرف، من خلال اعتيادها لحساب الوقت داخليا واستشعار الضوء، أن الشمس قد غابت خلف الجبل أو توشك، ثم أكد لها ذلك سماعها لصوت زمار سيارة أبو محمد على مقربة منهما في أسفل أو منتصف السفح. لذا قبل أن تنهض كررت على عبدالله فيما لو كان لديه سؤال أو إن شاء أن تريه القبو وتعطيه صندوق أشيائه وقبعة طفولته التي صنعتها له أمه، وإن شاء أن يُعلن، وهي إلى جانبه، أمام كل الناس حقيقة نسبه وأصله وهي بالمقابل ستحفظ له حقه بالميراث بين أبنائها وأحفادها. لكن عبدالله لم ينطق بشيء. ساعدها على النهوض بصمت، فقالت له وهي تسمع انسحاق بقايا النباتات الجافة تحت أقدامهم: كنت آتي إلى هنا وأزرع وأسقي نباتات مزهرة فوق تربتها، ولكني توقفت عن ذلك منذ أن فقدت بصري.

أسند إحدى ذراعيها على ذراعه فيما سلمها عكازها باليد الأخرى، وانحدرا بخطوات حذرة وهادئة، مجارياً طبيعتها الواهنة في المشي إلى أن أصعدها في السيارة، وجلس إلى جوار أبي محمد في المقعد الأمامي وليس إلى جانبها كما فعل أثناء المجيء. وبعد انطلاق السيارة، حاولت هي، مرة أخرى، كسر الصمت فسألت أبا محمد عن صحة طفل له، وجاراها هو في الحديث متنقلاً إلى وصف موسم هذا العام وقرب

زواج ابنته الكبرى وعن إحدى بقراته التي قطعت حبلها في الليل وظلت تأكل من مخزن الشعير حتى انتفخت وحين جاءها بالبيطري نصحهم بأن يسقوها ببسي كولا، فاشترى صندوقاً كاملاً من القناني، وسكبه لها في سطل وأجبرها على الشرب بتغطيس أنفها.. ثم راحت تطلق فواقها وخوارها غازاً والأطفال والجيران غارقون بالضحك، وضحكا هما أيضا فيما كان عبدالله ساهماً كأنه لم يسمع شيئاً، وواصلا هما تعليقاتهما والضحك إلى أن دخلا القرية. سأل أبو محمد هل يوصلهما معا إلى بيت الحاجة زينب من حيث أخذهما أم يوصل كل منهما إلى بيته؟ سألت زينب عبدالله إن كان يقبل بدعوتها له على العشاء؟ فقال: لا.. شكراً. وكانت في نبرة سؤالها، ما أوحت به عن قصد، فيما لو كانت لديه أسئلة ما أو حتى إجابات على أسئلتها الأخيرة له، أو يريد إكمال الحديث معها. لكن إجابته بالرفض أوصلتها إلى يقين أن داخله يغلي براكين تجهل كنهها بالضبط، لكنها تتفهمها بلا شك. عندها قالت لأبي محمد: إذن أوصل عبدالله أولاً إلى بيته، فهو الأقرب، ثم نذهب أنا وأنت، فنحن جيران على أية حال.

ما أن توقفت السيارة أمام بوابة الحوش حتى ترجل صامتاً ودلف إلى بيته بسرعة. دخل وأغلق بابه عليه. جلس في إحدى الزوايا واضعاً كفيه على رأسه، يقول لنفسه: لا أستطيع البكاء. ثم يسألها: ولماذا أبكي؟

لم يشعل ضوءاً. مكث في الظلام، جامداً يعصر رأسه بين كفيه، ولا يستطيع التفكير في شيء محدد. لكن انفعاله غير الواضح يفور في داخله كأنه يوشك على التقيُّؤ أو الانفجار بالصراخ. أشعل سيجارة وأخرى وأخرى حتى هدأ قليلاً، فنهض وأشعل الضوء. جسده مُتعب لكن ذهنه في أقصى الصحو. وقف أمام صورتي والديه بالتبني صالح ومريم، تأملهما وقال: أنتما مخدوعان مثلي.. عشتما على وهم مثلي، خدعوكما أولاد الكلب.. القَتَلَة. وردد عبارة لفيلسوف فرنسي. أراد

تذكر اسمه؛ سرير، سرار، صرصار، سرتر، سرسري أو شيء كهذا، وابتسم، لغرابة رغبته بتذكر الاسم في هذه اللحظة! يذكر أن طارقَ كان يرددها أحياناً: "الآخرون هم الجحيم". ثم تنفس وقال: ولكن لا.. أنتما لم تُخدعا بشيء، كنتما بحاجة إلى ابن فجاءكما هكذا.. فما الذي سيعنيكما، من كيف، مَن هما والداه الأصليان ومِن أين أتى وإلى أين يذهب؟.. يا للعبة.. كلنا نريد أية كذبة أو وهم لنجد دافعاً أو تسلية تعيننا على احتمال الحياة، لنوهم أنفسنا بأن ثمة معنى لوجودنا.

اتجه إلى المطبخ يُعد الشاي. ومن النافذة تسلل إليه نور مباشر من الخارج، ثم زامور سيارة تقف على بوابة الحوش. فتح النافذة فرأى أبا محمد ينزل، يدفع البوابة وينادي عليه دون أن يطفئ محرك سيارته أو ضوءَها. فخرج.

أعطاه صندوقاً ومفتاحه وقال: هذا بعثته لك الحاجة أم جلال. اسمع يا أخ عبدالله، إن احتجت إلى أي شيء فلا تتردد بطلبه مني.. أنت واحد منا.

شكره وعاد يحمل الصندوق إلى البيت. انتبه إلى أن هذا الصندوق عسكري، لونه أخضر كاكي ومن الخشب القوي، ما أكثر ما تعامل مع هذه الصناديق أيام الحرب، وكرهها، فلماذا تلاحقه إلى هنا وبعد كل هذه الأعوام؟! متى سيستطيع التخلص ونسيان كل ما يتعلق بها؟ لماذا تطارده برموزها دائماً؟

وضع الصندوق في وسط الصالة وأتى بإبريق الشاي وقدح. جلس قربه، يحدق به، يتأمله. كان بحجم حقيبة سفر وعليه أرقام وحروف عرف منها أنه صندوق عتاد قذائف مدافع الهاون. كيف وصل إلى هذه القرية المجهولة؟ وماذا يفعل هذا الصندوق هنا؟ القفل المُضاف إليه كبير، من تلك الأقفال القديمة لأبواب الدكاكين. سحب المفتاح من جيبه. لا رغبه لديه بفتحه، أو بالأحرى، لماذا سيفتحه؟ ما الذي

ستعنيه له أشياء تافهة لطفولة لا يتذكرها، وضعتها أمٌّ لم يعرفها. لم يكن لها أي وجود في حياته، وفجأة يقال له إنَّ لك أم اسمها زكية، وأسمتك قمر وحكايتها كذا.. وهي أم قتيلة! ألقى بالمفتاح فوق الصندوق وظل يحتسي الشاي ويجتر دخانه والتداعيات. إنه يكره هذا الصندوق العسكري ولا يريد له أن يبقى هنا معه في البيت. سيحطمه أو يحرقه مثلما كانوا يفعلون في جبهات الحرب للتدفؤ بخشبه أو للطبخ وصنع الشاي، سيتلفه ويلقمه لشق الأرض. وماذا عن الذي في داخله؟ لماذا بعثه له هذه السيدة الجدة؟ لماذا أخبرته بكل هذه الحكاية؟. شعر للحظة أنه يمقتها، وانقلبت كل المودة التي عرفها منها طوال حياته إلى تاريخ من النفاق كانت تحاول فيه تهدئة ضميرها، أو معالجة شعورها بالذنب.. ولكن ما ذنبها هي؟! إنها ضحية مثله.. وعانت الكثير أيضاً..؟! تنتظر كل هذا العمر لتلقي عن كاهلها عبء هذه الذاكرة الموجعة على كاهلي أنا!؟.. وهل أنا بحاجة إلى المزيد من الوجع؟! ثم تسألني فيما لو أردت الكشف عن أصلي والاعتراف بي على أنني من سلالتهم علناً.. وحصة في الميراث؟! ينكرونني وهم أحياء ويعترفون بي أمواتاً؟! في حياتهم يتكتمون على حقيقتي، تستراً على جرائمهم في الاغتصاب والقتل، وكنت عاراً عليهم، ولا يريدون الاعتراف بعارهم أو ما يُذكرهم به.. والآن، بعد أن ماتوا يريدون أن يُحملونني هذا العار علانية بدلاً عنهم؟! زينب تقول: إن الله عاقبهما في الدنيا وسيعاقبهما في الآخرة على ما اقترفا. أخبرته أن موت المختار وظاهر قد كان تعذيباً حقيقياً. أصابهما مرض غريب.

ابتدأ بحكة بالجلد ثم تقيّح وجَرب وتقشط للجلد وسقوط للحم على مدى عام. كل في فراشه يتعفن، لم تنفعهما مراهم ولا أطباء ولا سحر ولا دراويش. أحد الأطباء الشعبيين العرافين قال لهما إنهما قد شربا من ماء واحد.. والله أعلم كيف وماذا كان هذا الماء وما فيه.

كانـت رائحتمهـا لا تُحتمـل وعذاباتهمـا مـن التصـاق الجلـد بالفـراش وتكاثـف الذبـاب علـى جروحهمـا المتقيحـة وجلودهما المقشـوطة... كان حالهمـا يصعـب حتـى على أشـد أعدائهما كُرهـاً لهما.. تقول، هذا عقـاب اللـه، ويقـول هو: وبماذا سـتنفعني عقوبتهما هـذه؟ وما ذنبي أنا لتكـون حياتـي كلهـا عقوبة؟... إنه لا يدري الآن؛ أيحب السـيدة زينب أم يكرههـا؟.. إنـه لا يـدري مـا هذا الذي يعتمـل في داخله.. وما الذي عليه أن يفعله بالضبط! يتعزز اقتناعُه أكثر بمبررات كآبته وعدميته وهذا الأسى الغامض الجاثم على روحه كحديدة ثقيلة.

وحيداً في هذا الليل برفقة صندوق عسـكري، وحتماً، أن ما فيه، أشـياء ميتـة، اعتادت الوحدة والعتمـة هي الأخرى... وحيداً، بعد رحلة حياته بأعوامها الطويلة هذه، وليس معه سوى أشياء ميتة، تخص بداياته التي لـم يعيها في الحياة. بداية ونهاية يلتقيان الآن.. على لا شيء، فما معنـى كل هـذا العـذاب الذي كان بينهما؟! يسـتعيد ما أخبرته به الجدة لأكثـر مـن مـرة، فيقـول لنفسـه: " إن حياتـي فيلـم هنـدي". ويتصـور التفاصيل، ومنها محاولة إيجاد وجه ما لأمه، بالاستعانة بتشبيه ملامحها بالراعي إسـماعيل.. تُرى كيف كان صوتها ورائحتها وابتسـامتها؟ تُرى، لو أنها حية، هل ستكون حياته بشكل آخر، فيه حنان أصدق، هو بحاجة إليـه. ومـاذا عـن أبيـه؟ أين هو الآن؟ هل تزوج وأنجب في أرض غريبة أخرى؟ هل يشبه المختار؟ يشبه صورته في شبابه التي رآها معلقة على حائط صدر صالة الضيوف بكل خشونتها ونظرتها الصقرية؟ أم تراه يشبه أمه زينب؟.. لماذا لم يسألها عن كل هذه التفاصيل؟ ولماذا يسألها؟ ما معنى معرفة كل ذلك؟ تشده العاطفة.. ويجره التفكير والتصور إلى أمه أكثـر مـن أبيـه، فخيـال الأب يكاد يخلو من الرغبـة بالمعرفة.. لا يغريه شـيء فيـه، ففـي النهايـة ما هـو إلا عابر مغتصِب، مُدلـل أب ثري ألقى شهوته في فتاة فقيرة يتيمة بلهاء ومضى، فما معنى أن يكون هذا والده

رغماً عـن أنفـه؟! يتخيل معاناة أمـه وخداع الجميع لها، ومن ثم قتلها، مكفنـة، مقيـدة، معصوبـة العينيـن تُريـد رؤية القمر أو طفلهـا، فيما هما يرجمانهـا بالحجـر (الشـرعي!) ثـم يُطلقان عليها النـار داخل حفرة قبر أُعد لها مُـسبقا. للحظة ود لو أنه ينتقم منهما ومن جميع ما خلفاه من ذرية وأملاك، يسـتخرجهما من قبريهما، ويعيد سـحق عظامهما والبول والتغـوط عليها ونثر هشـيمها في المزابـل، وأبناءهما والأحفاد، يخطف واحداً منهم كل ليلة، يكفنه، يربطه بحبل سـميك ثم يروي له الحكاية وبعدهـا يغتصبـه، ويرجمه ويقتله ويدفنه في مكان مجهول.. هكذا حتى يقضي عليهم جميعا، ثم يحرق حقولهم وبيوتهم أو يفجرها ويغادر هذه القرية الملعونة والبلد باحثاً عن المغتصِب الرئيسـي جلال، وسـيفعل به الأمر نفسـه ثم يُغادر.. يغادر.. لا يدري إلى أين.. أو أن يغادر هذا العالم الوحشي بأكمله وإلى الأبد، لتنتهي بانتهائه سلالة هذا الدم الفاسد.

هكـذا كانـت تداعيات انفعال عبدالله، ترتفع بروحه أحياناً كموجة من غضب حارق، لكنه سـرعان ما يحيد عنها، ينفضها عن رأسـه، إنها مجـرد خاطـر يعبـر فيه وليـس أصيلا في طبعه واقتناعـه، هو هارب من القسـوة وكاره لها.. وما أكثر ما تسـاءل عن سـر دافع هذه القسـوة في قلـوب بعـض النـاس، وعن أية لذة أو غاية تكمن فيهم لارتكابها. يفكر أن يتناسـى هـذا الأمـر.. يتجـاوزه.. أن يدفنه في ظلام قبو الماضي كأنه لم يره أو يعرف به، أن يتعامل معه كتعامله مع سنواته في الأسر..

السـعي إلـى النسـيان، إلـى الدفن.. كأنها لم تكـن، كأنه لم يعرف حقيقـة حكايتـه. لكنـه الآن يعرفهـا ومـن المسـتحيل إلغـاء المعرفـة أو حذفهـا... ولكـن فليتجاهلهـا، ليكتمهـا، ليتجاوزهـا على الأقـل. إنه لا يسـتطيع التوصـل الآن إلـى قـرار أو رؤيـة ما. كان حواره مع نفسـه فيه مـن الأسـئلة أكثـر ممـا فيـه من إجابـات. كانت ولادته فـي قبو، حبس، قفـص، زنزانـة، ومـن ثـم ما يقارب العشـرين عاماً من ريعان شـبابه في

أسـر آخر أشـد قسـوة. "سـجون هذا الوجود من مبتدئه إلى منتهاه.. أو إلى لامنتهاه، فلماذا يا أيها الحر المُرتفع؟.. أسـيرٌ من سـجن إلى آخر بعـد حريـة العـدم.. أيـن العـدم؟" بأي ذنـب، أو أي حق لهـم عليّ أن يقودوني من سـجن إلى آخر؟ لماذا؟ أهذا ما يمكن أن يسـميه البعض، مثل إبراهيم، بأنه قَدري؟ ما هو القَدر؟ ولماذا أنا تحديدا يكون قدري على هذا النحو؟ ما الذي جنيته؟.. لماذا.. لماذا؟

ودّ لـو أن أحـداً معـه الآن هنـا كي يحاوره.. كـي يعينه على تلقي هذا المطر المدرار من سـهام الأسـئلة.. كي يجيبه على شـيء أو على الأقـل يكـون صـدى يسـمع من خلاله أسـئلته. تُرى ماذا سـيقول غيري عما أنا فيه؟ كيف سـيفهمه؟ كيف سيستشـعره؟ وكيف سـيصوغ أسـئلته والإجابات أو المواقف؟.. تُرى لماذا يفكر على هذا النحو وهو اللائذ هرباً من الآخرين.. أليسـوا هم الجحيم نفسـه، وكل هذا الذي هو فيه من صنع أيديهم؟ لا أريد أحداً.. لا أريد معرفة شيء عن أحد بما في ذلك عمن أنجبوني. كل ما هو خارج ذاتي، كل ما هو غيري.. لا يعنيني ولا يمسـني.. لماذا لا يتركونني لنفسـي فقط؟ لعزلتي.. لكآبتي.. لسلام الوحدة الذي أتوق إليه؟ أهذا كثير؟! لماذا كلما صبرت عليهم واحتملت حتى ينجلوا عني، يعاودون اقتحامهم لحياتي بأشكال أخرى؟!

يهدأ قليلاً، يستلقي على ظهره دون أن يغير مكان جلوسه، ويقرع علـى جبهتـه بقبضتـه برفـق أو بقوة، يمسـد لحيته، يغمض عينيه فيشـعر بهما كحصاتين تَخِزانه لشدة ما أرهقتهما قلة النوم. ينتصب في جلسته مـن جديـد، يأخذ المفتاح مـن أعلى الصندوق، يتأمله، ينظر إلى القفل، ثم يلقي المفتاح في مكانه من جديد. يدخن مواصلاً هديره الداخلي.. وتقليـب شـعوره، المتناقـض اللحظـة، بحاجتـه إلـى أحد يحـاوره بدل التحاور مع نفسـه كأنه يجلدها. ود لو أن سـميحة هي التي معه الآن، ليبوح لها بكل شـيء.. بكل هذا العذاب المتعلق بحبه القديم والوحيد

لهـا وشـوقه الـذي تجـذر وعرش في داخلـه لطول انزراعـه فيه. يتجذر ويعرش ويكبر فيه كشوكة البحر في المقبرة. ليحكي لها هذا الذي سمعه اليوم عن نفسه لأول مرة. ود لو أنها هي الآن مُحاورته، سيشاطرها هي وحدها وليس أحداً سواها.. هذا إذا ما شاطر أحداً في هذا الذي يشتعل فيه ويحرقه.. ترى ماذا سيقول؟ كيف ستكون حياله عندها حين تعرف بأنه ابن زنا؟ وكيف سيكون موقفها تجاه أبيها حين تعلم بأن والدها هو قاتل والدته؟ هل ستخجل مثلاً؟ تغضب؟ تأسف؟ تعتذر؟ أم ستسعى لتفهم أبيها وإيجاد عذر له؟ أم أنها ستحقد عليه وتكرهه فيعزز كرهها لـه حبهمـا لبعضهمـا؟.. لكن عبدالله لا يكـره ويكره أن يكره.. لا يرى ولا يجد معنى للبغض.. الكره عبء زائد على النفس. إنه يريد السلام وحسب. يريد السلام...

أبصر أول ضياء الفجر من خلل شقوق خشب النافذة. مسح وجهه بكفيه، وعزم على تنفيذ نيته بالخلاص من هذا الصندوق العسكري. فكر أن يأخذه كما هو، مقفلاً، يصب عليه بعض النفط، يشعله ويلقيه مشتعلاً في الشـق بما فيه، لكنه سـرعان ما وجد نفسـه يعدل عن ذلك، ويفتح القفل فارتفعت إلى أنفه، حال رفع الغطاء، رائحة عتيقة وغبار. مد كفه. ثياب طفل قديمة، دمى مصنوعة من قصب، قلادة فضية، مناديل والقبعة (الطاقية) بريشـاتها الثلاث وتطريزها.. تأملها بأصابع مرتعشـة، تحسـس كل خيط فيها، وضعها على رأسـه.. فشـعر كأن يد أمه الغائبة تلمسـه، فأنزلهـا، شـمها، قبَّلهـا، وأخذ كل ما في الصنـدوق بين قبضتيه ووضعه على وجهه. كانت فيه رائحة غامضة، هي مزيج من قماش عتيق وغبار وخشـب.. ورائحـة آدميـة مـا.. لكنه تخيلها روائح أخـرى، كرائحة بدن طفـل رضيـع، رائحة لبـن رضاعته.. رائحة صدر وعنق وأصابع.. رائحة أم.. رائحة أم.. رائحة أمه زكية فتفيض في روحه حاجة للحنان، لامرأة، لأمه.. حاجته للمسة آدمية حانية طيبة.. إلى كف وأصابع، ملمس جلد

آدمي حيّ، وصدر وتنفس، حاجته إلى إنسان.. إلى أمه.. حاجته إلى البكاء، البكاء.. فانفجر بالبكاء وسقط منبطحا على السجادة، دافناً وجهه في كومة ثياب الطفل العتيق ومناديل رائحته... بكى مثل طفل حد الإعياء، وهو منهك بالأصل.. فغفا على هذا الحال، ونام بعدها بعمق ليومين متتالين...

- 15 -

سهرة شاي جَمر

طرقات على الباب، رفع رأسه. ظلام في الخارج وضوء في البيت. طرقات على الباب، صوت طارق يكرر اسمه. نهض. قال: نعم، نعم، لحظة. وسارع لحمل مخلفات الطفولة التي كان يتوسدها وركض بها إلى غرفة النوم، رماها على السرير، وطارق يواصل طرقه ونداءاته. فعاد وفتح الباب، ليجده برفقة إبراهيم، فاندفعا إلى الداخل.

- ما بك يا رجل؟ نائم؟ ومن ينام في هذه الساعة المبكرة؟! هل أنت دجاجة؟

- نعم كنت نائماً. تفضلا بالجلوس. سأغسل وجهي وآتيكما.

كان يشعر براحة عجيبة، راحة بمذاق خاص. غسل رأسه كاملاً، نشفه، مشط شعره واللحية أمام المرآة، فوجد وجهه أكثر انبساطاً وعينيه أوسع وأصفى. خرج إليهما وسأل:ـ كم الساعة الآن؟

- كم الساعة الآن؟! إنها التاسعة مساءً يا صديقي. هل أنت بخير؟

- نعم، يبدو أنني قد نمت طويلا. أنا جائع بعض الشيء. هل تأكلان شيئًا؟ هل أعد لكما الشاي؟

- كُلْ أنت ما تشاء وبعدها أعد لنا الشاي. نحن تعشينا في بيت العزاء.

- أي عزاء؟ من ذا الذي مات؟

فالتفت إبراهيم إلى طارق قائلا:

- ألم أقل لك بأنه لا علم له، وإلا لمن المؤكد أنه كان سيحضر الدفن.

وتوجه طارق بالكلام إلى عبدالله:

- البقاء في حياتك، لقد توفيت الحاجة زينب مساء الأمس.

- ماذا؟؟!.. لقد كنت معها أنا طوال مساء الأمس!!

- لا يا صديقي.. أنت كنت معها مساء أول أمس، لقد أخبرنا أبو محمد بذلك.. وقال إنها بعثت إليك معه بصندوق.. أهذا هو الصندوق؟

- نعم.

وأدرك عبدالله لحظتها فقط بأنه قد نام ليومين متتالين.

كان الصندوق لا يزال مفتوحاً وسط الصالة. رفع إبراهيم غطاءه وأغلقه. ظل يتفحصه من كل الجهات بدهشة.

- إنه صندوق عسكري!.. صندوق قذائف هاون!.. كيف.. ماذا يفعل هنا.. كيف وصل..

وسأل طارق: ما الذي كان فيه؟

- لا شيء مهم، أشياء من طفولتي، كانت تحتفظ بها عندها، تقول إنها أخذتها لتحافظ عليها أثناء غيابي حين كانت تأتي لتنظيف البيت.

فيما واصل إبراهيم تفحصه وتلمسه للصندوق وكأنه يكتشفه اكتشافاً.

- يا إلهي.. كيف؟!

حمل عبدالله إبريق الشاي والقدح الجاف الدبق متوجهاً إلى المطبخ. بينما راح طارق يُذكره بأن المختار كان يتاجر بالسلاح، وأن والده شريك له في ذلك.. بحيث إنهم، هم أنفسهم، لايزالون يحتفظون في بيتهم بصناديق وأشياء عسكرية كهذه.

من داخل المطبخ، وهو يعد لنفسه شيئاً وفي يده قطعة خبز يقضم من أطرافها ويلوك، كان عبدالله يتحدث معهما عبر الباب المفتوح.

- مسكينة، لم تكن تشكو من شيء!.. كيف ماتت؟

- ماتت كما تموت كل مخلوقات الله. يُقال إنها نامت بشكل

طبيعي وحين تأخرت وأرادوا إيقاظها لم تستيقظ. ماذا كنتما تفعلان في المقبرة؟

- لا شيء.. مجرد زيارة، قالت أنها لم تزرها منذ وقت طويل، وأنا أيضاً، فترافقنا إلى هناك نُسَلِّم على الأموات.

- يا سبحان الله، وكأنها كانت تعلم بحلول ساعة موتها وذهبت لتودعهم. لقد دفناها في التل الذي سيصبح منذ الآن: المقبرة الجديدة. هي التي كانت توصي بذلك.

وعقب إبراهيم على ما قاله طارق:

- يقال إن كثيراً من الناس يستشعرون اقتراب موتهم، وحتى إن البعض يستلم في منامه شيء يشبه رسالة.. تنبؤ.. خاصة الناس نظيفي القلوب، وهي كانت امرأة طيبة.. يرحمها الله.

- كانت تحبك جداً يا عبدالله.. كأنك أحد أولادها.. آه لو تعرف كيف كانت تبكي في غيابك وكثرة ما تسأل عنك.

- نعم، أعرف.

- كانت طيبة مع الجميع وكأنها من أبناء القرية فعلاً.. ثم إنها المرأة الوحيدة التي احتملت المختار وصبرت عليه.. لولاها لربما كان المختار شيئاً آخر.. ربما كان سيأكل لحم الناس ويُلقي عظامَهم للكلاب.

حين عاد عبدالله من المطبخ، وجد إبراهيم لا يزال مقرفصاً جوار الصندوق يتفحصه، يتلمسه، يكاد يشمه أو يفعل، وسأل:

- ماذا ستفعل به؟

- لا أدري، سأرميه، أحطمه أو أحرقه.. لا أريد شيئاً عسكرياً في بيتي.

- نعم، نحرقه ونصنع الشاي على جمره.. جمر هذا الخشب ممتاز. والطبخ والشاي الذي يُعد عليه من أحسن ما يكون. كنا نفعل

ذلك أيام الجيش.

فراقت لهم الفكرة. أخذوا الصندوق وخرجوا إلى الفناء. حطموه وجمعوا أخشابه في حفرة غير عميقة. رَشُّوا عليه بعض النفط من أحد الفوانيس، ثم أضرموا النار، وأتوا بثلاث أحجار صغيرة أحاطوا بها النار فصار الموقد جاهزاً. جاءوا بإبريق الشاي فأجلسوه على الأثافي. ثم ببساطين صغيرين جلسوا عليهما حول النار. كانت ثمة نشوة تدب في نفوسهم لهذا المناخ. هدوء الليل من حولهم ونور النار بينهم، يتسلون بمراقبة لهبها وتحريك الجمر، والأحاديث تتواصل بينهم بانسيابية ومودة وأمان.. عن الآخرين والذكريات وعن أنفسهم وكل ما يجر إليه الكلام.. وكان عبدالله يشعل سجائره بجمر يرفعه بالملقط، وإبراهيم يستدعي اللحظات الطيبة الوحيدة التي كان يعشيها أيام الحرب، كانت شبيهة بهذه تماما، تَجَمُّع جنودٍ من شتى القرى والمدن، منهكين وبعيدين عن عوائلهم، يطبخون الشايَ ويحتسونه، ويتحدثون عن حبيباتهم أو يغنون ويرقصون ويضحكون.. كانت تلك متعة خاصة ونادرة.

عاودوا الحديث عن الحاجة زينب لأكثر من مرة، وعبرها تطرقوا إلى المختار ومن ثم إلى الصداقة الخاصة والحميمة بين المختار وظاهر، وقال طارق لإبراهيم.

- أبي أيضا كان صديقاً حميماً لوالدك.. وشاركا في حرب فلسطين معاً.

- نعم، ولكنها لم تكن بمستوى علاقة أبيك بالمختار.

- أما والدك يا عبدالله فقد كان.. أكثر بعداً عنهما، هادئاً وطيباً، أمضى حياته بين حقله والبيت والمسجد.

في لحظة، خطر على ذهن عبدالله. ماذا لو أخبرهما بما عرف من حقيقة!... لكنه تخلى عن هذه الفكرة مفضلاً كتم ونسيان هذا الأمر.. وربما إلى الأبد.

إنه يشعر الآن براحة وخفة عذبة بعد أن نام كل هذا الوقت بعمق، ولا رغبة له بتعكير روحه باستعادة ذلك التاريخ الشائك القاتم. كان يبدو أقل كآبة وأكثر مرحاً بحيث يقهقه أحياناً.. الأمر الذي جعل طارق يفكر مع نفسه بأن هذه، ربما تكون هي اللحظة الأنسب للبوح له بما يتردد في ذهنه، وأن يجد مدخلاً ليطرح عليه مسألة زواجه من أخته سميحة، فهي لاتزال تعيش في البيت معه هي وابنتها، ترفض كل من تقدم للزواج منها، صامتة ومنطوية على نفسها. تبدو وحيدة مهما كان عدد وصخب المحيطين بها. وعبدالله يعيش وحيداً هو الآخر، مثلها يبدو صامتاً وكئيباً ووحيداً، فليجمعا كآبتهما إذن، سيكون من الرائع لو يجتمعا معاً، يتزوجا ويؤانسان بعضهما ما تبقى لهما من العمر ومعهما ابنة سميحة.. هكذا سيكسب طارق أيضاً إخلاء غرفة أخرى في بيته يمنحها لأحد أبنائه المتزايدين أو يستثمرها لخزن أشياء، كما سيتخلص من بقية المصاريف المتعلقة بسميحة وابنتها. والأهم من ذلك كله، الخلاص من هذا الذي ظل يحفر في نفسه منذ الصبا ويجلد ضميره.. دوره سراً في إقناع والده وإلحاحه عليه حينها برفض زواج عبدالله من أخته. كبر الآن، نضج وتغير، وصارت رؤيته وفهمه للأشياء مختلفة، لذا يشعر بالذنب كلما تذكر الأمر، بل ويشعر بالخزي وبتفاهته كلما تذكر السبب الحقيقي في نفسه حينها لفعل ذلك، والذي بالتأكيد، لن يستطيع البوح به لأحد، بل هو يخجل حتى من مجرد تذكره مع نفسه. كيف سيبوح لأي كان بأن رفضه قد كان بسبب رؤيته لعضو عبدالله، الأسمر الكبير، أيام كانوا مراهقين ويجرون مسابقات بممارسة العادة السرية وسرعة القذف أمام بعضهم البعض، وأحاديثهم عن الجنس وبقية البنات في القرية، صدورهن وسيقانهن ومؤخراتهن وفروجهن، وخيالاتهم في نكاح هذه وتلك. آنذاك، لم يكن ليحتمل مجرد تخيل أن عبدالله سيفعل ويمارس مع أخته كل هذا الذي يتحدثون عنه، لم يكن ليطيق تخيل صورة هذا

العضـو الكبيـر يدخـل ويخـرج في (...) أخته! كيف سـيقول لأحد عن هذا الذي كان في رأسه حينها؟!.. وهو يبرر لنفسه، لاحقاً، بأنه قد كان صغيراً ومراهقاً.. فيما هو إنسـان آخر الآن.

ضمن تناسل وتشعب الأحاديث، حاول لمرتين جر عبدالله لمسـألة التفكير بالزواج، وإبراهيم كان يؤيده في ذلك، لكن عبدالله سـرعان ما يلـوذ بالتهـرب من الموضوع ويتحاشـاه بأجوبـة وتعليلات مبهمة توحي بعدم الرغبة أو باللاجواب، تاركاً المسألة هكذا معلقة... فيه من الرفض أكثر مما فيه من القبول.. فيجدان أن هذا الموضوع لا يشـغله كثيراً أو لا يهمه.. أو أنه لا يريد الحديث عنه، وربما ولا حتى التفكير به أصلاً. فيعمد إلى تغيـر الحديث بالسؤال عن عائلتيهما. طارق يعبر عن رغبته الدائمة بالزواج مرة أخرى، على الرغم من أنه ليسـت لديه مشـكلة مع زوجته، شـيء ما في نفسـه، ومنذ وقت مبكر يُشـعره بالحاجة لأن تكون لديـه أكثـر مـن امـرأة واحـدة. وهـو كلما تطـرق لهذا الشـأن ذكر والده الذي تزوج بثلاث. أما إبراهيم فقد راح يبوح بهمومه المتزايدة بسـبب مرض زوجته وتكاليف علاجها التي صارت ترهقه، وتعطل زوجته عن مساعدته بالعمل في الحقل. عندها اقترح عليه طارق أن يبحث له عن مصدر آخر غير الزراعة، عن عمل في المدينة مثلاً، يتناسـب مع عوقه فيوفر على نفسـه تكاليف الذهاب إلى المدينة كل عشـرة أيام من أجل الجرعـة الكيميائيـة، ثـم قـال لـه بأن لديـه صديقاً في الموصل، شـقيقه يعمل في ديوان رئاسـة الجمهورية وهذا الشـقيق سـاعد في إيجاد عمل أو وظائـف مدنيـة وعسـكرية للكثيريـن، لذا راح يقنـع إبراهيم بأن يأتيه بـكل وثائقـه وتقاريـره الطبيـة وغيرها من المستمسـكات والأوراق التي تؤكد على مشـاركته في الحربين ونيله نوط بسـالة، وبأنه قد فقد إحدى قدميه في الحرب الأخيرة، مرفقة بعريضة يشرح فيها حاله باعتباره معيل لعائلة كبيرة، وتقارير طبية عن حالة زوجته.. وهو سيعطيها لصديقه الذي

سيعطيها لشقيقه، عله يحصل له على مساعدة مالية من الحكومة، أو يتم توظيفه في عمل يناسبه ويكون أكْسَب، ثم عقب؛ أن:

- أعطني أنت كل الوثائق والتقارير وهذه الأوراق، وأنا سأكتب الطلب بأسلوبي.. ها، وأنت تعرف كيف هو أسلوبي البليغ. ثم سأوصي صديقي أن يتشدد في توصية أخيه بشأنك.. ها، ما رأيك؟

ظل إبراهيم فاتحاً عينيه باهتمام كبير وكأنه يصغي بهما، ثم التفت إلى عبدالله محاولاً قراءة ملامحه لمعرفة رأيه فيما اقترحه طارق، وحين وجده صامتاً هو الآخر مواصلاً تدخينه بلا أية علامات تعبير واضحة في وجهه، سأله مباشرة:

وأنت ما رأيك يا عبدالله؟

تأخر عبدالله بالرد قليلاً كعادته، فبان أنه يفكر أو يريد صياغة ما ينوي قوله، حتى قال:

- لا أدري، ولكن بالنسبة لي شخصياً، أفضل أن أكون بعيداً دائماً وقدر الإمكان عن رأس الأفعى.

فيما ظل طارق يدعم ما اقترحه بحماس وحكايات سمع بها عن أناس حصلوا على أعمال هناك في حراسة القصور، زراعة حقول الرئاسة، العناية بالحدائق، رعي الحيوانات الرئاسية، في المطابخ، في البناء، في الزخرفة، في السياقة ووو.. كان يبدو وكأنه ملتذاً بهذه الفكرة التي طرأت له.. وظل يُقنِع إلى أن أقتَع، فقال: لنجهز ذلك غداً وبعد غد عندي زيارة إلى الموصل.. خير البر عاجله.

كانت تلك الأمسية هي آخر سهرة جميلة جمعت أبناء شق الأرض الثلاثة على هذا النحر الحميم، حيث تحدثوا وتذكروا وتمازحوا وضحكوا وباحوا بالكثير حول إبريق الشاي الصاعد والهابط فوق موقد جمر الصندوق العسكري.. كان بالفعل شاياً خاصاً كما توقعوا وأرادوا. وسيعمر طعمه في ذاكرتهم طويلاً.

- 16 -

أول الحدائق

لم يمض أسبوع حتى جاء طارق المندهش، مندهشاً حقاً. دخل فناء بيت إبراهيم بسيارته مسرعاً وهو لا يكف عن التزمير الصاخب والمُلحَّن أحياناً. خرجت قسمة مسرعة ونزل هو ملوحاً بورقة في يده ويهتف: أبوكِ موجود؟

وما أن أنهى سؤاله حتى ظهر إبراهيم في الباب فهرول إليه طارق وحمله بين ذراعيه من تحت الإبطين ودار به بفرح، كمن يحمل طفلاً أو دمية.. حركة شبيهة بما كانا يفعلان في صباهما احتفالاً بفوز، وهو يردد: مبروك، مبروك.

ثم أنزله وقال له أمام وجهه المنتظر للخبر: لقد قبلوك للعمل في بغداد، في الأسبوع القادم ستكون في القصر الجمهوري يا بطل، خلاص، ستُحل كل مشاكلك، ستتغير كل حياتك.

وبالفعل.. إثر ذلك راحت تتغير حياة إبراهيم كليّة، أما المشاكل فلا وجود لحياة كائن تخلو منها بشكل مطلق. أعان طارق صاحبه على الانتقال إلى بغداد. أجَّر له بيتاً متواضعاً من غرفتين وصالون ومطبخ وحديقة صغيرة. الجديد هذه المرة، أن الحمام داخل البيت وليس كما اعتادوا في القرى أن يكون خارجه كي يبعدوا روائح البطون، وكونهم يخجلون من سماع ضراط بعضهم. قسمة التي أصبحت شابة جميلة هي أكثر مَن كان غبطة بهذا الانتقال الذي طالما حلمت به، وهناك سجلت لمواصلة دراستها في معهد المعلمين، وفي البيت أصبحت لها غرفتها الخاصة، تعلق على جدرانها صور من تشاء من المشاهير، تستمع

إلى الموسيقى التي تحب، تحلم بحرية وهي مستلقية في سريرها شبه عارية، وهو أمر لم يكن بمقدورها فعله عندما كانت في القرية، وسط عائلة كبيرة لا تترك هامشاً كافياً لفردية فرد، وإنما تجبره على أن يكون جزءً من المجموع، كتلة تشترك وتتشابه في كل شيء وتحكمها منظومة وتقاليد ثقيلة جامدة.

لم يتركهم طارق إلا بعد ثلاثة أيام، حيث رتب لهم كل شيء، الإيجار، التسوق، تسجيل قسمة في المعهد، إيجاد طبيب لمراجعات أم قسمة ومواصلة علاجها، وأعطاهم أرقام هواتف معارف له في بغداد فيما لو احتاجوا إلى شيء، ووعدهم أنه سيتصل بهم للاطمئنان كلما ذهب إلى الموصل أو أية مدينة أخرى مادام قد أصبح لديهم هاتف الآن. شكروه جميعاً بجزالة وصدق، وكانت قسمة أكثر الممتنين له بحيث ودت لو تشكره احتضاناً وتقبيلاً على هذه المعجزة التي كانت تحلم بها ولم يخطر على بالها أن تتحقق على هذا النحو وبكل هذه السرعة.

قبل صباح موعد المقابلة في القصر الجمهوري، لم ينم إبراهيم لشدة القلق والانفعال وكثرة الهواجس، ظل طوال الليل يكرر مراجعة أوراقه التي سيأخذها معه، يتأكد فيما لو كانت ناقصة، ويعيد تأكده كل عشرة دقائق، واضعا في واجهة الملف الورقة الرئيسية/ الرئاسية التي فيها قبوله وموعد المقابلة ومكانها، محدقاً بنسر شعار الجمهورية في أعلاها برهبة. حلق ذقنه وأخرج بدلته الوحيدة التي يحتفظ بها، منذ أيام عرسه، للمناسبات المهمة فقط، ولم يلبسها لأكثر من مناسبتين أو ثلاث. كوتها قسمة وعطرتها، صبغت حذاءه حتى صار يلمع ونظفت له قدمه الصناعية وهي تشير له بأكثر من تعديل في هندامه. وراجع معها، وأمام زوجته طويلا، ما يمكن أن يجيب به حول مختلف الأسئلة المحتملة، لكن الذي لم يتوقعه أبدا هو أنهم لم يسألوه شيئا على الإطلاق، وباشر

عمله منذ اليوم الأول. فبعد المرور بالكثير من السيطرات العسكرية والمدنية وغرف ومكائن التفتيش وصور وطبع بصمات وفحص طبي. وصل مع ما يقارب خمسين شخصاً آخرين، رجال ونساء من أعمار مختلفة. أجلسوهم في قاعة واسعة فارهة بكل تفاصيلها، ثم دخل عليهم ضابط برتبة عقيد، بشاربين كثين وملامح شديدة الصرامة، برفقة مجموعة من العساكر خلف ظهره وعلى الجانبين. خاطبهم بالقول: إننا نعرف عن كل واحد منكم كل شيء، وربما أكثر حتى مما يعرف هو عن نفسه، ولذلك اخترناكم من بين آلاف الطلبات التي تصلنا يومياً. يعني أنكم نخبة ومخلصين للقائد والحزب والثورة والوطن، وسجلاتكم نظيفة وشريفة، وتدل على ولائكم، وأغلبكم كانوا أبطالاً أيام الحرب، لذا فأنتم أهل للثقة. والمطلوب منكم أن تواصلوا هذا الإخلاص، وأن تكونوا بمستوى المسؤولية.

فجأة تغيرت نبرته المادحة هذه إلى أخرى حازمة، مُهدِّدة ومخيفة: ستعملون في أماكن خاصة تتطلب السرية التامة والكتمان، لذا عليكم اتباع قاعدة: (لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم) ومن يفوه منكم بأية كلمة عن عمله خارج مكان عمله فسوف نقطع لسانه. والطباخ الذي يكسر صحناً سنكسر رأسه، والحدائقي الذي سيقطع نبتة أو وردة سنقطع رقبته، والمنظف الذي سيقصر في تنظيفه سنقصر عمره..

خطبة طويلة حافلة بالأوامر والتهديد والوعيد، مكرراً عليهم بأنهم يعرفون كل شيء، وأن هناك كاميرات في كل مكان تراقب وترصد أية حركة، بما في ذلك حركة نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء.. هكذا! وعلى الجميع أن يلتزم بعمله المحدد فقط، ولا يدس أنفه فيما لا يعنيه، وأن يطيع الأوامر بشكل أعمى.. الأمور هنا تسير بشكل أدق من أدق الساعات، ومن يُخِلّ ولو بشيء بسيط بهذه الدقة فالويل له.

بعدها نقلوهم في سيارات مظلَّلة، لا يمكن رؤية شيء من خلالها، إلى مكان يبعد مسافة قدروها زمنياً بكونها تقل عن الساعة بقليل. لم يركب إبراهيم في حياته سيارة أو أية عربة أخرى مريحة ونظيفة وسريعة على هذا النحو. كانت كأنها تنساب من تحتهم انسياباً على ماء. حين نزلوا وجدوا أنفسهم تحت سقائف كبيرة تشبه تلك التي عرفوها في معسكرات التدريب ولكنها هنا مصبوغة وأنظف ومكتظة بالسيارات الفاخرة وعساكر في الزوايا، وعلى بعد خطوات، يمتد جدار وكأنه بلا نهاية وبارتفاع عشرة أمتار تقريباً. قادوهم إلى بوابة حديدية عملاقة، سوداء اللون، في السور، وفي وسط البوابة ذاتها ثمة باب صغير، أسود، لا يتسع لأكثر من دخول الأشخاص فُرادَى.

على شكل رتل، خلف جندي، دخلوا من الباب الصغير المنفتح في الباب الكبير المغلق، ومنه في ممر فيه أكثر من جهاز فحص، أدى بهم إلى قاعة كبيرة، على جانبيها أبواب لا حصر لها، وفي أول القاعة مكتب خلفه عسكري أنيق، كان يسأل كل واحد منهم عن اسمه ثم يعطيه بطاقةَ هويَّةٍ خاصةً وباجًا ومفتاحا بميدالية مرقمة. وقال لهم: من اليوم فصاعدا على كل واحد أن يعرف رقمه. نظر إبراهيم إلى الميدالية في كفه وقرأ رقمه (42) وظل يكرره في نفسه كي يحفظه. وأضاف العسكري: لكل منكم غرفته هنا، حسب الأرقام، وتجدون فيها البدلات والأدوات الخاصة بعمل كل منكم. يغير فيها ملابسه عند دخوله وعند الخروج.. مفهوم؟. هزوا رؤوسهم وقلة منهم من ردد بخفوت: نعم سيدي. فحين سمعها قال: تخاطبون الجميع هنا بـ (أستاذ) وليس (سيدي) إلا الضباط فنعم، تقولون لهم: سيدي.. مفهوم؟. أجاب الجميع هذه المرة وبصوت أعلى: نعم أستاذ. قال: والآن: اذهبوا، كل منكم يبحث عن رقم غرفته، ويجهز نفسه فيها حتى يأتيه من يأخذه ويدله على عمله.. مفهوم؟.

وجد إبراهيم الباب رقم 42 على اليمين في منتصف القاعة تقريباً. فتحه ودخل ثم أغلقه وراح يتفحص. غرفة صغيرة فيها مقعد، مرآة، مشجب تعليق وخزانة ببوابتين. فتحها ووجد فيها ثلاث بدلات عمل زرقاء وثلاثة أزواج جزمات بالحجم والنوع ذاته، علبة مليئة بالقفازات البلاستيكية الصفراء، مجرفة صغيرة، منجل صغير وأكثر من شَفرة حَش أعشاب (مكزون) بأكثر من شكل وحجم، علبة أكياس، ثلاث قبعات.. وأشياء أخرى لم يستطع معرفتها كونه لم يرها من قبل. وراح يخلع ملابسه ويعلقها على أصابع المشجب. في تلك اللحظة تذكر ما قيل بأن ثمة كاميرات تراقب كل شيء، وإن لم ير أية كاميرا في الغرفة، فربما تختفي خلف ثقب بحجم أست النملة، كما سمع ذات مرة، لذا حرص على أن يتصرف باحتشام وحذر. عاقداً العزم في قرارته على ألا ينسى هذا الأمر ولو للحظة واحدة، كي يتصرف بحذر دائم.. وأن يتذكر في كل لحظة أن ثمة من يراقبه.

ارتدى إحدى البدلات فوجدها على قياسه تماماً، ثم الجزمة كذلك والقبعة. نظر في المرآة فوجد نفسه أنيقاً. ثم جلس يستمع إلى دقات قلبه المضطربة وينتظر.

بعد قليل، دق أحدهم الباب ثم دفعه، حتى قبل أن يرد إبراهيم الذي وجد نفسه واقفاً أمام شاب يملأ إطار الباب، بالغ الوسامة ببدلة عسكرية زيتونية غاية في الأناقة وبلا أية رتبة على كتفيه أو في ذراعه. عيناه ترمشان كثيراً، ثمة توتر ما في كل كيانه. قال الشاب: خلاص؟ أنت جاهز؟

وقبل أن يجيب إبراهيم، الذي اكتفى بالنظر ولمس بدلة العمل التي ارتداها. دخل الشاب وسحب سلة من تحت المقعد وراح يأخذ شيئاً واحداً من كل شيء في الدُرج ويواصل الكلام: سيكون عملك حدائقي، وتحديداً العناية بحديقة ورد. ضع كل يوم، في هذه السلة:

قُفّازا، منجلا، مكزونا، كيسَ زبالة.. و.. و.. وكان يذكر أسماء الأشياء كلما سحب منها واحدا وألقاه في السلة.. حتى انتهى ونهض قائلا: عند الانتهاء في الساعة السادسة مساءً، تعيدها كلها هنا في السلة كما أخذتها، تغير ملابسك وتخرج. وستجد السيارة التي ستقلك إلى (كراج العلاوي) وسط بغداد.. أوكي؟ تفهمني؟ والآن اتبعني.

فتبعه إبراهيم حاملاً السلة حتى خرجا من باب جانبي آخر للقاعة، وحال خروجه رأى ما لم يكن ليخطر له على بال أبداً إلا في بعض ما كان يتخيله عن الجنة.

وجد نفسه، فجأة، أمام حلم متجسد.. أو أنه في حلم. فضاء واسع لا تُرى حدوده، مفروشاً بالحدائق والنافورات والقصور والتماثيل. يبدو كل شيء مرتباً بعناية فائقة ودقيقة. الدروب بين الخضرة، تراصف الأشجار، التلال، البحيرات الصغيرة، توزيع المباني، الألوان.. بل حتى الضوء والهواء بديا وكأنهما خاضعين لهذه الهندسة المذهلة.

أيقظه من شروده وتحديقه المندهش صوت الشاب، يناديه: هيا.. يا عم إبراهيم، هيا اركب هنا معي.

كانت قربهما مركبة مكشوفة صغيرة بمقعدين وحوض في مؤخرتها. أخذ السلة من يده وأشار إليه بالجلوس على المقعد الآخر بجانبه ثم راح يقود العربة بانسيابية كأنها تنزلق بلا أي صوت، تسير بهما في دروب مبلطة، نظيفة، مترابطة كشبكة بين الحدائق والماء، وكلما مرا بجوار نافورة شم إبراهيم عطراً نفاثاً مختلفاً عن سابقه، وحين انتبه الشاب إلى ارتفاع صوت تشمم واستنشاقات إبراهيم المبهور وبَحلَقَة عينيه، راح يوضح له..: ماء هذه النافورات مخلوط بالعطور، نصفها ماء ونصفها عطر. كل نافورة لها عطرها الخاص وأغلبه فرنسي.. أبو من يسمونك؟

- أبو قسمة.

- أهلاً وسهلاً بك عمي أبو قسمة، إنها حدائق الرئيس. اسمعني.. أنا سأوصلك كل يوم إلى عملك. أنت ضمن مسؤولية مراقبتي، وإن شاء الله كل شيء سيكون تماما.. تفهمني؟ واضح أنك رجل طيب. أنا ارتحت لك حالما رأيتك.. أنا اسمي سعد.

أوصله إلى ما سوف يكون مكان عمله. بيت طيني صغير، دائري، طراز جميل وخاص التصميم، مقام على منصة دائرية وسط بحيرة، فيما يوصل إليه جسر ضيق بامتداد سبعين متراً تقريباً. لهذا البيت طارمات وأبواب ونوافذ خشبية مطرزة بزخارف أخاذة لامعة، وحوله، دائرياً، حديقة عرضها ثلاثة أمتار وهي من الورود فقط، تكاد تكون فيها كل أنواع وألوان الورود التي يمكن تخيلها، منسقة بشكل دقيق وبالغ الروعة من حيث الألوان والارتفاعات، وثمة مقاعد بيضاء على الأطراف قرب سياج حديدي أبيض يفصله عن الماء المنخفض بمستوى متر تقريبا، وهو يكاد يشع من شدة نقائه وزرقته، بحيث تُرى في أعماقه بوضوح، النباتات والطحالب والأسماك والسلاحف والتماسيح وكائنات مائية شتى. كما أن هناك مجاميع منوعة من البط تسبح هادئة حول بيوت خشبية صنعت لها خصيصاً وسط الماء، ليست ببعيدة عن هذا البيت، وفي الطرف المقابل أشجار باسقة متراصة.

تتركز مهمة إبراهيم بالعناية بهذه الورود، سقيها، تنظيف تربتها، مراقبة ما قد ينحني أو يكسره الهواء منها وما قد يسقط عليها من غبار أو منها من وريقات.. كذلك أن تدير واجهة البيت مع استدارة الشمس دائما، بحيث إن أشعتها تكون منسكبة على الدوام في مدخله الرئيسي.. تفهمني؟

وقف إبراهيم حائراً، محدقاً في وجه الشاب سعد، حين سمع هذا الكلام، فكيف سيكون بمقدوره فعل ذلك، لذا قال: عفواً؟! ماذا؟! كيف؟! فأجابه سعد ضاحكاً: أوه.. لا تقلق، اسمعني، يبدو أنك تخيلت

بأن عليك تحريك البيت بذراعيك وتديره.. لا.. لا.. تعال.

قاده وهو لا يزال يضحك، حتى أوصله إلى لوحة أزرار في زاوية البيت وشرح له كيف يستعملها. اسمعني، بمجرد الضغط على هذا أو هذا أو هذا.. وهكذا سوف يستدير البيت أوتوماتيكياً.. أنظر. فتحرك البيت مستديراً وهما على أطراف أرضيته المرمرية، واستدارت معهم حديقة الورد والمقاعد، وأضاف سعد: إنه مُرَكَّب على قاعدة حديدية دائرية هي التي تتحرك، انظر، هناك قرب السياج أطرافها. وبالفعل لاحظ حافة الدائرة المتحركة بمجملها، وحده السياج ثابت. يمكن أيضًا تحريك حديقة الورد فقط أو البيت بمفرده في داخلها، إنها دوائر داخل أخرى وهكذا، تفهمني؟ يجلس السيد الرئيس هنا مثلاً ويحركون الحديقة أمامه كما يشتهي. عليك أيضاً مهمة تنظيف البيت من الخارج والمقاعد وقضبان السياج، أي كل ما تراه هنا وتلمسه، تكون العناية به وبنظافته وترتيبه ضمن مهمتك.. أما داخل البيت فهو ليس شأنك، مهمة خاصة بآخرين، وأنا بالطبع سوف أمر عليك كل ساعة ونصف، تقريباً.. أوكي؟

بعد أن غادر الشاب، بقي إبراهيم لوقت طويل ذاهلاً بلا حراك، مكتفياً بتفحص تفاصيل هذا المكان الذي وجد نفسه فيه. بتلك الجنان العجيبة المنتشرة حوله على أطراف الماء الأخرى. حدائق وقصور ومختلف الزوارق الراسية في أقصى البحيرة، وثمة زقزقات وتغريد طيور ساحر ومتنوع كتنوع هذه الزهور. دار حول المكان محاولاً فعل شيء ما.. كأن يمسح قضبان السياج مثلاً.. ففي الواقع، كان كل شيء نظيفاً ومرتباً أصلاً، وليس هناك ما يستوجب فعله، لكنه بالتدريج صار ينتبه إلى بضعة قشات أو ذرات تراب خارجة عن الخط الهندسي ودقائق أخرى، عرف لاحقاً أن الانتباه إليها، هو جل مهمة العناية الشاملة والفائقة لهذا المكان.

حين انقضى هذا اليوم، شعر إبراهيم وكأنه قد عاش حياة كاملة، حياة أخرى تماماً. كان يوماً طويلاً جداً بالنسبة له، أطول حتى من أيام الكمائن والهجومات في الحرب المشحونة بالخوف. كانت دهشته المتواصلة لما رآه وسمعه وشمه، هي الطابع الأغلب لهذا اليوم-الحياة، لذا حين عاد إلى صخب المدينة، ومن ثم إلى بيته ظل صامتاً، يخيم عليه الذهول والاغتراب والعجز عن الاستيعاب والتعبير. كان يشعر بنفسه وكأنه كائن غير واقعي.. وإنما هيئة سرمدية لمخلوق ما، من وفي عالم آخر مختلف، لا يدرك حقيقة تكوينه وأبعاده.. لذا نفعته هنا سمة الاستسلام والرضى القدري المتأصلة بروحه. ولكن، مع مرور الأيام صار يستعيد واقعيته شيئاً فشيئاً ويتمكن من استيعاب وتنظيم فهم ما وجد نفسه فيه فجأة، ونظام ونوع حياته الجديدة ويتكيف معه. وقد ساعده على فهم ذلك أكثر، هو ارتياح الشاب سعد له، ومجيئه إليه لقضاء أغلب ساعات العمل بالثرثرة التي نصفها تكراراً لكلمتي: "اسمعني" و"تفهمني؟" أو "أوكي؟" لقد وجد سعد فيه الإنسان البسيط، الطيب والأمين الذي يمكن أن يثق به ويبوح له بكل ما يعتمل في نفسه ويحتشد في ذاكرته، فحدثه عن عائلته المتواضعة، المتكونة منه ومن أخت واحدة وأمه الأرملة، وكيف ترك الدراسة واضطر للعمل في الملاهي والمراقص كنادل عادي، ليندرج ويصبح أفضل مختص عارف بفحص وتمييز وتقديم أنواع المشروبات مهما تكن مشاربها، ومن أين ما كانت، مطوِّراً معارفه بالاطلاع والقراءة والممارسة حد الهوس.. بحيث إنه صار يكتفي بشم رائحة أي قنينة شراب تُفتح، فيحدد نوع الشراب وأصله ودرجة الكحول ومم صُنع.. بل وفي أغلب الأحيان عمر تخمره بدقة، وهكذا تنافست، على التعاقد معه، أشهر ملاهي بغداد وفنادق الدرجة الأولى. تزداد سمعته انتشاراً حتى عرفه كبار التجار والأغنياء والمسؤولين.. إلى أن جلبوه في نهاية الأمر ليكون

المسؤول عن مشروبات الرئيس نفسه، وبعثه الحكومة لمدة شهر إلى لندن في كورس اختصاص مكثف، فدرس على أيدي نوادل شيوخ، منهم من عمل في قصر ملكة بريطانيا وملوك السويد وإسبانيا، فزادت خبرته أكثر، وتفوق هناك حتى على أعرق المختصين بحكم معرفته بمشروبات الشرق المحلية أيضاً. كان يحدث إبراهيم، أحياناً، عن ذلك الشهر الذي أمضاه في لندن كملك، لكنه، في أغلب الأحايين، كان يحدثه عن تجاربه هنا في العراق، متنقلاً بين قصور الرئيس وفي خدمة باراته وضيوفه، وكيف كان هو المقرر الأول لما يجب استيراده من مشروبات خاصة بالرئيس، والأوقات الأنسب لتناول كل منها وفق المناخ والحالات والطعام وطبيعة المزاج، وكان ما يدفعه للحديث، شعور بالمرارة لأنهم استبدلوه بشخص آخر، روسي وصاحب شهادات حتى في الطب وله مساعدون، فأحالوا سعد إلى مجرد احتياط ومراقب عمل هنا، بعدما كانت تنقلاته مع الرئيس وفي طائراته وزوارقه لا تنقطع ولا تنقطع معها الهدايا والمنح الكبيرة والمفاجآت التي يحبها بحكم شبابه، بينما عمله الآن بلا مفاجآت مهمة تقريباً، لذا يملأ، هذه التي تبدو رتابة بالنسبة له، باستعادة ذكريات ما عاش وما عرف وما يعرف، ويجد التعويض في رؤيته لوقعها كمفاجآت مدهشة في عينيّ هذا الفلاح البسيط، إبراهيم، وملامح ردود فعله المنذهلة لما يسمع.. فكان يمضي أغلب الوقت معه، يحدثه كل يوم عن أشياء رآها وأخرى سمع بها، ويأخذه أحياناً في جولات داخل الحدائق، أبعد من مجرد مكان عمله في البيت الطيني، وكلما زادت دهشة وانبهار إبراهيم بما يرى، زاد حماس سعد لأن يروي له المزيد...

- 17 -

من أحاديث قصور الشعب

عيناه ترمشان كثيراً، ثمة توتر في كيانه. يقول: اسمعني، حتى إني عملت في اليخت يا أخي. وحين وجده ينظر إليه بغرابة واستفهام، انتبه إلى أن إبراهيم لا يعرف معنى (يخت)... ها، يعني مركب بحري كبير مثل السفينة أو الباخرة، إنه في ميناء (أم قصر) واسمه (القاهِر)، نعم، اليخت له اسم أيضاً، طوله أكثر من مائة متر، سمعت أن كلفته قد بلغت 50 مليون دولار، كل زجاجه مضاد للرصاص، فيه مهبط لطائرات الهليكوبتر ومسبح ومسرح وبار وحديقة وعيادة طبية وأحسن أجهزة الدنيا الإلكترونية، ويحميه مئات من عساكر الحرس الجمهوري الخاص.

صنع في فنلندا وفق مزاج السيد الرئيس، بأجود أنواع الخشب. الأثاث مطعمة بالذهب والفضة. الصالون الزجاجي الذي في وسطه يتسع لأكثر من مائتي شخص. عندما يأتي إليه الرئيس، أو أحد أبنائه أو ضيوفه، بطائرة صغيرة، يتحول الميناء والماء والسماء إلى حراك أمني محموم فترى الدوريات المكثفة لرجال الأمن في كل الجهات وفي زوارق سريعة تجوب الماء كالملسوعة. تفهمني؟.. ها، من بين حجراته، خمس غُرف خاصة، فخمة لسيادة الرئيس وعائلته. ومطعم هذا اليخت، يبقى مزوداً بأرقى أنواع المأكولات والمشروبات. أنا من كان يقرر هذه المشروبات. آه، وفيه صالة رياضية. حتى ممراته جميلة، تؤدي إلى كل الغرف والقاعات وإلى السطح والشرفة المطلة على الماء والآفاق، مفروشة بالسجاد المنسوج بعناية خيطاً خيطاً والجدران مغلفة

بالزخارف الحلوة واللوحات، ومن السقوف تتدلى ثريات كل واحدة منها تحفة بحد ذاتها. أتذكر واحدة ذهبية تصلح لأن تكون كأساً لبطولة العالم في كرة القدم.

هـا، اسمعني. في حي المنصور ببغداد هناك قصر سري عجيب وهو خاص جداً جداً بالشؤون الخاصة جداً جداً بالسيد الرئيس. يذهب إليه في بعض الليالي عندما يريد أن يرتاح، يرفه عن نفسه قليلاً، تفهمني؟ يعني، حين يرغب بأن يسلي نفسه، يعني، أنت تفهمني. مبنيان مفتوحان على بعضهما. بعض غرف النوم مغلفة بالمرايا حتى السقف، لا أدري لماذا! حين دخلتها شعرت بأني قوي، بأنني جيش بأكمله. مصابيحها من شتى الألوان، وبعضها على شكل فتيات عاريات. المصابيح!. نعم، ورأيت لوحتين كبيرتين لأوضاع.. لأوضاع.. أنت تفهمني. الكثير من الجدران عليها رسوم أخرى خيالية لنساء.. بأوضاع. قرب الأسِرّة وفي الممرات، تشبه رسوم عصر النهضة في إيطاليا، هكذا يسمونها ربما، لأنني حين سألت اختي ذات مرة، وهي في الجامعة وتحب الرسم، عن تسميات رسوم تشبهها رأيتها في مجلة، قالت لي ذلك. وفي الرسوم رجال أقوياء يصارعون أسوداً ونموراً أو يقتلون بالسيوف تماسيحَ أو تنينات أو أفاعيَ عملاقة متعددة الرؤوس. رأيت تمثالاً برونزيًا لرجل بعضلات بارزة وشاربين كثيفين يصارع ديناصوراً ينفث النار من فمه، وصورا نادرة وكبيرة للقائد يحتضن نساء مكشوفات الصدور وجمالهن يأخذ العقل، يعانق إحداهن في سرير ملكي ويضحك. إنها في الطابق الثاني، الغرف واسعة، كل واحدة بحجم بيتي. آه.. كم أحلم ببيت أصممه على مزاجي! رأيت في بعضها أكثر من سرير واسع، تعلو زواياه الأربعة تماثيل حوريات بحر مذهبة، وطبعاً يوجد تلفاز في كل غرفة. الحمام كبير، صنابير المياه على شكل خناجر أو ورد من ذهب. الصندل وردي اللون، وسلال النفايات لها شكل القلوب. في الخزائن ملابس

نوم وأشرطة فيديو. الأسِرة من الحجم الذي يسمونه (كينغ سايز) يعني أعرض من السرير الزوجي، مثبتة بالجدران وعلى جانبيها وفوقها مرايا. حين دخلتها لمراجعة محتويات الثلاجة من المشروبات، كانت بعض الخزانات والأدراج مفتوحة، بيجامات وقمصان حريرية وملابس داخلية وشورتات وتي شيرتات وأرواب استحمام، وثياب أخرى لا أدري ما هي، ملفوفة بالبلاستيك.

الستائر من الشيفون الزهري، والوسائد حمراء وزرقاء وبرتقالية وزهرية على شكل قلب أيضاً، وفي إحدى الغرف رأيت لوحة تغطي الجدار كله لفتاة برسومات تشبه التي في كتاب "ألف ليلة وليلة" وهي تعزف على العود. هناك حمام رئيسي مع جاكوزي... لا تسألني ما الجاكوزي!

أحد أجنحة هذا القصر، كله مرقص، يعني ديسكو، ديكوره بموضة السبعينيات. سجاد بنّي، مرايا مظللة وكرات أنوار ملونة في السقف، رفوف من أشرطة وأسطوانات كل أغاني العالم ومنها (جوبي) عراقي ومادونا ومايكل جاكسن ولفرقة "بي. جيز". عندما تسمع مني كلمات غريبة فهي أسماء وكلمات أجنبية، أنا أعرفها هكذا، ولا أعرف كيف نقولها بالعربية فأنا لم أكمل دراستي، أو ربما ليس لهذه الكلمات مقابل بالعربية أصلاً.. لا أدري.. المهم.

في البارات الداخلية مختلف أنواع المشروبات، أحلم في المستقبل أن أجمع مثلها في بيتي، زجاجات ويسكي "جوني ووكر" وكونياك "أوتارد" و"سيفوين" و"ريوخا" و"جن" وغيرها وغيرها. بعض الزجاجات، بحد ذاتها، تعد تُحفاً فنية يا أخي. ذات مرة رأيت داخل إحدى الخزانات الزجاجية للكتب مجموعة ساحرة من الأواني الخزفية وعليها الخاتم الأميري لعائلة الصباح االكويتية، لابد وأنها من أيام الحرب هناك.

في المبنى الآخر ورود وأسلحة متنوعة، بينها كلاشينكوفات وبنادق (سيغ ساور) ومسدسات روسية وإسبانية وبلجيكية عيار 65.7 ملم ومسدسات من "بيريتا" و"سميث آند ويسون" وصناديق عتاد، يعني، هناك ترسانة كاملة في كل دار رئاسية، ورأيت في بعض الحجرات بنادق "ام. بي – 5" سريعة الطلقات مطلية بالذهب وعليها اسم الرئيس، "كولت دياموندباك" عيار 38 و"ماغنام" عيار 357 وأسلحة أخرى لا أعرفها، وكلها معها كراسات تعليمات الاستخدام. وفي بعض الحجرات صناديق مرصوصة حتى السقف. إلا أن الذي سيدهشك يا عمي أبو قسمة، هو الحديقة التي بين المبنيين، فيها مساحات ورد أجمل من هذه ومشاوي لحم رخامية، وبار تزدحم رفوفه بزجاجات النبيذ الأسباني والإيطالي والفرنسي والهولندي، وبعضها من أعوام الثمانينيات أو أقدم، مع فودكا روسية وزجاجات ويسكي اسكتلندي وشمبانيا فرنسية وجن ورام كوبي وعلب سجائر مارلبور وكِنت وسيجار كوبي.. المقاعد الخارجية على شكل محارات وتيجان وقلوب وأكياس فنية بحبيبات شبيهة بالقلوب وأخرى مطرزة بورود بلاستيكية. أما في الطابق الأرضي فيوجد المطبخ كأنه مستشفى لشدة نظافته وأجهزته الحديثة وغرف للخدم. هناك صالة سينمائية خاصة مصبوغة بالأزرق الفاتح، مقاعدها قليلة وثيرة والوسائد فيها ناعمة زهرية. أما الحمام الكبير ففيه يتحرك الماء على شكل دوامات.. دوامات.. دوامات.

يتساءل إبراهيم في داخله عن معنى ذلك، عن أشكال القلوب والأسلحة، عن الفرق بين الماء النازل من صنبور ذهبي وآخر عادي، عن معاني كل هذه الأسماء والألوان التي مجرد ذكرها يكاد يصيبه بالدوار، فيما يواصل سعد ضخ أوصافه بتلذذ:

في الضفة الغربية من نهر دجلة، "أكو فَد/ توجد" منطقة محجوبة عن عيون الناس العاديين بأسيجة عالية جداً، تعرفها؟. هذه منطقة فيها

أجواء ريفية لأن السيد الرئيس، ابن ريف ويحن إليه طبعاً، وهو أصيل ويحب البساطة، مثل ما نعرف كلنا، صح؟ هناك رأيت على الشاطئ قصراً آخر مكوّناً من سبع بنايات كبيرة. فيه أحواض سباحة وحدائق ونافورات وقاعات رياضية لممارسة القفز والركض ورفع الأثقال مثلاً، وأرضيات من الرخام اللامع وشاشات تلفاز عملاقة وزوارق صغيرة، مقدماتها تماثيل عرائس البحر أو دلافين قافزة، للتجول عبر سواقي مائية تتخلل داخل القصر وخارجه، حوافها مزخرفة بمنحوتات مرمرية وأحجار مصقولة. أعرف إحدى الموظفات اليونانيات هناك، حدثتني عنه أكثر، ربما ينقلونك إليه ذات يوم، تمتد حديقته الخلفية حقلاً فسيحاً حتى النهر، وفيها تماثيل لخيول وصقور ونساء شبه عاريات وأسود غاضبة مطلية بماء الذهب. هناك العز والبذخ على أوجه، حمام سباحة يتمنى المرء لو يموت فيه غرقاً لشدة جماله. مرآب واسع لكل أنواع السيارات القديمة والجديدة والغريبة والنادرة، والمرسيدس المحصنة ضد الرصاص، والشيفروليه والرياضية، وذات الأسقف القابلة للطي، ومنها ما هو مطلي بالذهب أو الفضة.. وحدائق، حدائق، حدائق أخرى شاسعة. وعلى بعض جدران العمارات أو رؤوسها صور للقائد بملابس وأوضاع مختلفة: يمتطي حصاناً، يطلق الرصاص من بندقية، يأكل بطيخة، يحمل سيفاً، يقطع كعكة ميلاد، يركب دبابة، يشرب شاياً، تماثيل له نصفية وكاملة، في بعضها يلوح بذراعه فوق. وفي الواجهة المرمرية لإحدى العمارات نحت كبير لوجه سيادته، وتماثيل أوطأ منها وأصغر لرؤوس نبوخذنصر، حمورابي وصلاح الدين الأيوبي. وفي الداخل، بالقرب من السلم الرخامي ذي السياج الذهبي، صورة لعائلته بملابس رسمية. أظن بأنه لإقامة النساء والأطفال. ففيه عدد لا حصر له من خزانات الملابس المليئة بآلاف قطع الثياب والأحزمة والأحذية النسائية، فيه من أزواج الأحذية ما يكفي للبس خمسة منها يومياً على

مدى العمر، ولعب الأطفال في كل الأرجاء، بما فيها سيارات ودبابات وقطارات وطيارات وسفن ودراجات صغيرة من فضة. هكذا تقول اليونانية، نتكلم بالإنكليزية، تفهمني؟ يعني، أنا أعرف شوية إنكليزي من أيام لندن، آه.. ما أحلاها أيام لندن! أحيانا أتمنى العودة إلى هناك ولكني لا أستطيع ترك أمي وأختي وحدهما هنا، لا نستطيع الانفصال عن بعضنا. أختي تريد الذهاب معي للعيش في لندن، لكن أمي ترفض تماما، وتقول: لن أغادر بغداد، لن أغادر بيتي. العراق بلدي ولدتُ فيه وسأموت فيه.

للحظة فكر إبراهيم أن هذا الفتى حالم، يعيش في حلم ويحلم بالعيش في أحلام يحلم فيها بأحلام أخرى.. تخيله كتلة أحلام يلف بعضها بعضا.

الأثاث من أفخر ما صنعته أيدي الناس، والديكورات كذلك، الأبواب والشبابيك والشرفات والسلالم والسقوف والجدران مطرزة بأروع الزخارف والحمامات والمغاسل بصنابير مختلفة الأشكال ومقابض الأبواب من ذهب وفضة، والمسابح الداخلية كل منها له تصميمه الخاص، وفيها طوافات للاستلقاء على سطح الماء ومناشف كريستيان ديور.. ولا تسألني ما معنى كريستيان ديور.

لم يسأله إبراهيم طبعا، واكتفى بالمساءلة السابقة لنفسه: لماذا من ذهب؟ ما الفرق بين أن تكون مقابض الأبواب من ذهب أو من أي معدن سواه؟!

هناك جناح لعيادات طبية متكاملة، منها لفحص النظر والأسنان وعمليات التجميل، وجوارها صالون كوافير باذخ، رفوف كاملة لمجلات الموضة. في الطابق الأعلى شاشات وأجهزة تسجيل وسينما ومسرح، وعلى الأسطح حدائق، وسط إحداها غرفة نوم كبيرة، على شكل قبة، سقفها زجاجي شفاف بحيث ترى من خلالها المطر ونجوم الليل وأنت

مستلقٍ. ثمة حظائر للأسود والفهود والدببة والقرود والطواويس وغزلان ونعاج وماعز. ذات مرة، أمرتنا السيدة الكبيرة أن نرمي عنزة حية للفهود الجائعة فالتهمتها برمشة عين، أحيانا يتم تجويع هذه الوحوش ثم يلقى إليها بالخونة والمعارضين، ويُسجَّل ذلك بالفيديو بحضور السيد الرئيس أو أبنائه للفرجة من على كراسي وثيرة قرب السياج وطاولات حافلة بالمشاريب. كنت أقدِّمها أنا، عملت هناك أقل من شهرين. القصر ضخم جدا، وفيه الكثير من الغرف، أحصيت منها 140 مكتباً، 65 حماماً، 20 قاعة اجتماعات، 22 مطبخا، وغرف أخرى لا حصر لها ولا عد، هناك خمس صالات كبيرة للرقص، إحداها بحجم ملعب رياضي، للجولة السريعة الواحدة في تلك القصور تحتاج إلى ساعات بل أيّام ربما، عبر الممرات والدهاليز والقاعات والمرايا والحدائق وقنوات المياه والأنفاق. ولكن الجناح الخاص بالسيد الرئيس يوجد في جانب آخر، في غرفة نومه كتب كثيرة كلها بالعربية، كتب تاريخ وأنساب قبائل وأشعار بدوية ومذكرات، منها عن ستالين وموسوليني وكاسترو وملوك وأغلبها عنه. أعتقد أنه يحب البذلات الفرنسية والقبعات الروسية والسترات الإيطالية كماركات كانالي ولوكا. ولديه من أربطة العنق الحريرية ما يدوّخ العيون لتنوع ألوانها ونقوشاتها. كانت ثيابه في خزانات خاصة بالطابق العلوي، في واحدة من بنايات مجمع القصر الذي يمتد أميالاً على شاطيء النهر. بذلات كثيرة عسكرية ومدنية عراقية وأجنبية بيضاء وسوداء وزرقاء فاتحة وداكنة وبكل الألوان، صفوف وصفوف من القمصان الأنيقة بأزرارها الذهبية والفضية تملأ خزانة كبيرة لا أعرف كم مِتْراً طولها.

ذات مرة رحت لأضع المشروبات على طاولة القهوة في منتصف إحدى الغرف، فرأيت ألبوم صور عائلية، حفل زفاف، وصور لسيادته وهو يقطع كيكة بسيف مذهب وصور لأبنائه.. الذكور فقط.

رأيت أيضاً قبعة مثل تلك التي كان يرتديها وهو يطلق الرصاص

من بندقيته في ساحة الاحتفالات الكبرى أمام الجماهير، في المشهد الذي نراه دائما في التلفزيون. تذكره؟ في بعض الغرف ألبومات بآلاف الصور للقائد بأوضاع وأشكال شتى، يظهر في بعضها كفارس عربي، بدوي نبيل، أغا كردي، رجل دولة، عامل بناء، فلاح، قائد جيش ببزة عسكرية مثقلة بالنياشين، شيخ عشيرة، ثري روسي، متسلق جبال، سباح، صياد وطيار. صور مع الرؤساء والملوك والأمراء والمشاهير، وأخرى كثيرة مع قطعات عسكرية في الجبهة واستعراضات للجيش، اجتماعات بقادة وضباط، يلقي خطابات، يواسي أرامل، يستقبل شيوخ عشائر، يُقبل أطفالا، يصلي أو يحيّي رجالاً ملتحين. هناك ألبومات بصور قديمة، وهو طفل أو شاب قبل ثلاثة عقود تقريباً، وهكذا تدرُّجا إلى صور جديدة. أنا أيضًا لدي صورتان معه أعلقهما عندنا في صالون البيت بحجم كبير. عموماً قصور سيادته وعائلة سيادته بالمئات، في كل بقاع الوطن، ففي منطقة مسقط رأسه وحدها، أكثر من مائة وخمسين قصرا. سيادته يقول عنها إنها قصور للشعب، فهو يحب الشعب والشعب يحبه. كما أنها تعطي صورة مشرفة عنا، وتُبيِّن للضيوف الأجانب الذين يزورون بلدنا مدى العز الذي يعيش فيه الشعب العراقي.

- نعم، لازم هكذا، فالله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. أليس كذلك يا عمي؟ ما رأيك؟

- نعم.

- أليس كذلك؟... صح؟

- نعم، نعم أستاذ، كلامك من ذهب.

- 18 -

الرئيس يقتل الموسيقي

يدرك إبراهيم أن سعداً قد صار يثق به، بل وأكثر من هذا.. ربما يكن له مودة وحنان بمصاف المحبة. ربما لأنه وجد فيه شيئا من تصور له عن والده، أو ربما لأنه يستمع إليه دائما، ويُبيِّن بأنه يفهمه، فمن لازمات سعد أثناء الحديث كلمتان تتكرران بين كل جملة وأخرى تقريباً: "اسمعني" و"تفهمني؟" وعلى الرغم من أن إبراهيم لا يرد عليه بأن: "نعم أسمعك". أو "نعم أفهمك" إلا أن ملامحه وعيناه تقولان ذلك فعلاً، وهذا يريح سعداً أكثر مما لو قال له ذلك لفظاً، بل إن القول: "أسمعك، أفهم". دائماً، ربما سيحرجه أو سيزعجه حين ينبهه إلى فداحة تكراره لهاتين الكلمتين.

من عواقب هذه الثقة أنه صار ينقل إبراهيم للعمل في أماكن مختلفة. أحياناً لساعات وأخرى لأيام، ليحل محل آخرين ذهبوا في إجازة أو نُقلوا. وفي إحدى هذه التنقلات، شاهد إبراهيم الرئيس لأول مرة. هناك على الضفة الأخرى من البحيرة الصناعية الصغيرة، حيث الغابة المقابلة لبيت الطين الذي يعمل فيه. رماه بين جذوع أشجار هائلة ومخيفة، وقال له: اسمعني، نظف الأرض ورتبها.. تفهمني؟

ثم غاب.

كالعادة، لم يكن ثمة ما يتطلب العمل فعلاً؛ بضعة أوراق وعيدان ساقطة هنا وهناك وفضلات طيور، عشب ذاوٍ خارج عن مسارات الخطوط التي رُسِمت له؛ من تلك الدوائر والمثلثات والنجمات الثمانية الهندسية حول الجذوع. رأى أشجاراً لم ير مثلها من قبل، لا يشبه بعضها بعضا،

ومنهـا مـا له ثمارٌ غريبة الأشـكال والأحجام والألوان. بعض الأشـجار تبدو وكأن أعمارها ألف عام، حيث جذوعها الضخمة العتيقة وارتفاعها الذي بالكاد يُرى مداه.. فمتى زرعوها! لا مكان للسماء في هذا المكان، تلوح منها شظايا زرقاء من بين الأوراق البعيدة في الأعالي، إذا حركها الهواء. فكر بأنهم ربما أخطأوا بتوظيفه هنا، وخاصة إذا ماكانوا قد فعلوا ذلـك لكونـه فلاحـاً، فهـو وإن ولد في الريف ونمَا وسـط الحقول كأنه نبتـة منهـا، إلا أنـه لا يعـرف ولا فلاحا واحدا في هذا البلد، يزرع الورد أو ينفـق حياتـه فـي رعايـة أشـجار غريبـة كهذه؛ لا نفع منها سـوى أنها تشـغل الأرض وتشـرب المياه، وتمنع إطلالة وجه السـماء، فأغلبها بلا ثمر والمثمر منها، لا يعرف الناس ثماره.

فـي هـذا الظـل العـذب والصمـت، إلا من أصوات بعـض الطيور المختفيـة فـي قمـم الأشـجار فوقـه، في هـذه العزلة وقلة العمل. شـعر إبراهيـم براحـة نادرة، بطمأنينـة لم يذق مثلها.. ربما منذ طفولته، وعلى نحو ما، وجد نفسه يفكر بنفسه، فأدرك للحظة كم هو مشتاق إليها! وكم مر من الزمن لم يقابلها فيه ويختلي بها على هذا النحو! ود لو أن ثمة طريقـة مـا ليحتضن بها نفسـه كما يُحتضـن الآخر، في روحه توق هائل لمعانقة نفسه بحميمة حد البكاء.

لا سـماء ولا أفـق كـي يمـد النظر فيه، فيعينـه على تمديد ذاته في ذاته أكثر، لذا، اقترب من البحيرة دون أن يخرج من بين الأشـجار إلى ضفتهـا المفتوحـة، وجلـس علـى الأرض، على بعد بضعـة أمتار تمكنه من رؤيتها دون أن يراه أحد. أسـند ظهره على واحد من تلك الجذوع العريضة وقدماه على آخر أمامه، شاعراً بلذة برودة رطوبة العشب تحته وهي تتسـلل إلى لحمه. جذوع تحيطه من كل الجهات، ومن بين التي أمامـه، فرجـة ضيقـة فضيـة اللون، لأنه يـرى من خلالها الضفـة القريبة وسـطح البحيرة والضفة البعيدة وشـيئاً من السـماء. تنهد، تنفس بعمق

كأنه يبتلع كل الهواء العليل المتسلل من البحيرة. ود لو يقيم هنا طويلاً، لـو يبقـى هكـذا حتى يرتـوي من الراحة والتنفس والطمأنينة والسـكون. لو أنه يكون مقطوعاً ومنقطعاً عن كل شـيء.. أن يكون منسـياً هنا. أن ينساه الجميع، ليعانق نفسه بحرية.. أو حتى ينساها بحرية. وسرعان ما وجد نفسـه يتأمل حاله، فقال بهمس مسـموع ومن أعماقه: ألف حمْدا لله والشـكر لك يا رب. مفكرا بقسـمة التي صارت شـابة ناضجة، بل امـرأة، تتأنـق وتتعطـر كل صباح ثم تذهب إلـى معهد المعلمين جذلى. يراهـا وهـي تـزداد تفتحا وسـعادة كل يوم. لقد تحسـن وضعه المادي، فعدا الراتبَ الجيد، يمنحونهم ما يسمى بالهدايا الوطنية، مبلغا من المال فـي ظـرف رسـالة، في كل مناسـبة وطنية.. وما أكثرهـا في هذا الوطن! يصرف جله على متابعة علاج زوجته ومتطلبات قسـمة. للأسـف صحة زوجته تزداد سوءاً فيما قسمة تزداد عناية بنفسها وملابسها وصديقاتها، وسـيارتها التـي اشـتراها لهـا كـي توصله كل صباح إلى كـراج العلاوي حيث يأخذه باص القصور الرئاسـية مع آخرين إلى هنا، ثم تذهب إلى دراسـتها. وفي مسـاءَين من كل أسـبوع تأخذ أمها إلى الطبيب، إلى أن فـرض عليهـا الأطبـاء البقاء في المستشـفى منذ أسـبوعين تحت العناية المركزة.

تحسـس البطاقـة الخاصـة التـي في جيبه وتذكر ما قاله سـعد عنها ذات مـرة: هـذه مهمـة جداً، إنها سـلطة حقيقية، تفتح لك كل الأبواب، ولا أحـد يتعـرض لـك. بهـا تسـتطيع الدخـول إلى أي مـكان في البلد، تسهل لك كل المعاملات بلا وقوف في الطوابير، لا تفتشك السيطرات العسـكرية، بل سـيعتذرُ لك جنودها والضباط حالما يرونها، هذه بطاقة صـادرة عـن القصـور الجمهورية.. ألا ترى الشـعار وما مكتوب أعلاها والختم يا رجل!؟ بها تسـتطيع أن تفعل الكثير وأن تخيف بها من تشاء.. تفهمني؟

لكن إبراهيم لم يفكر باستخدامها أبداً.

تمنى لو أن صحة زوجته تتحسن، لتستمتع بهذا الحال ويعوضها عن قلقها وسنوات غيابه عنها في الحروب، وأن تعوضه بدورها عن ذلك الحرمان الطويل، لكنها تسوء للأسف، ومع ذلك قال: الحمد لله، فكل شيء قسمة ونصيب. وراح يفكر بالعطلة القادمة، وبالهدايا التي سيأخذها معه لأهله في القرية ولصديقيه عبدالله كافكا وطارق المندهش وعائلته، حتماً ستساعده قسمة في ذلك، سيزور النهر هناك، سيجلس مع أهله كل الوقت المتاح وسوف... إلا أن جلبة مفاجئة قطعت عليه تأملاته تلك، فأخرجته منها ومن انفراده الممتع بذاته. فجأة، أبصر مجموعة من العساكر يسدون عليه الفتحة التي تطل على أفق البحيرة وضفافها. رآهم يلقون بأنواع وأحجام مختلفة من الأسماك في الماء ثم غابوا، وعلى عجل جاء غيرهم ونصبوا مظلة كبيرة واضعين تحتها كرسيّاً خشبيّا بوسائد متّجهاً نحو الماء، ثم خلفه آخر غير بعيد، بالاتجاه نفسه، ولكنه كرسي عادي أو أقل قيمة. اضطرب قلبه بشدة ولم يتحرك من مكانه، فهو أصْلاً لا يدري ما الذي عليه فعله في حال كهذا! كما أنه لا يدري ما الزمن الذي أمضاه هنا. الوقت مساء وحتماً أن ساعة الدوام قد انتهت لكنّ سعداً لم يظهرْ، أو أي أحد غيره ليأخذه! ثم.. هل.. هو.. نعم إنه هو.. إنه الرئيس، جاء على مهل وجلس على الكرسي الأمامي قرب الحافة الخشبية المرتفعة بهيمنة على الماء. عسكريان أنيقان نصبا جواره طاولة صغيرة مذهبة الحواف، ثم تلاهما بالاقتراب، مدني أشقر، أجنبي، وضع فوقها قنينة وكأساً وصحن وأشياء أخرى لايراها جيداً. آخر، أتاه بسيجارة كوبية غليظة وأشعلها له، وآخر أتاه بصنارة طويلة. أمسك بها الرئيس وألقى بخيطها في الماء ثم بقي هادئاً يدخن ويشرب، وحيداً أو أن إبراهيم لا يرى من هم حوله بسبب جذوع الأشجار، وساد الصمت.

كان الرئيس يعتمر قبعة أجنبية وقميصاً عريضاً مطرزاً بالأزهار، يدخن ويحتسي الكأس بسكينة، وجهه للماء وظهره، جانبياً، لإبراهيم الذي من شدة اضطرابه تخيل نفسه في حلم وحرص على ألا يتحرك أدنى حركة، بل وخفض التنفس إلى أقصاه، كما وضع ذراعه على ساقه اليسرى وتحديداً على منطقة التقائها بالقدم البلاستيكية، قابضاً عليها كي لاتند عنها أية حركة لا إرادية فتُصر أو تحرك شيئاً ما.

لم يكن يرى وجه الرئيس جيداً إلا حين يلتفت جانباً، وجده رجلاً عادياً وشاربيْه عاديين، لكنه ذو سطوة غير عادية، غامضة، لامرئية. يبدو عادياً بتجسيده الواقعي هذا أكثر مما تبدو عليه الهالة السحرية في الصور، وعلى العكس من ذلك يبدو حضوره العادي أشد إرهاباً مما توحي به الصور من تحبب.

راح الرئيس يسحب الصنارة بانتشاء، اصطاد سمكة كبيرة من تلك التي ألقاها العساكر قبل قليل. قربها إليه أكثر وأكثر حتى صارت أمام وجهه، تأملها، ابتسم أمام عينيها والتفَت، فهرع إليه جنرال من حمايته، خلصها من الصّنارة وأعاد رميها في الماء. تكرر ذلك عدة مرات على مدى وقت لا يعرفه إبراهيم، ثم التفت الرئيس وأشار بحركة من رأسه، فجيء، بعد دقيقة، برجل مدني سبعيني أو ثمانيني يحمل آلة العود الموسيقية، أجلسوه على الكرسي الخلفي وشرع بالعزف مرتجفاً.

إنه الموسيقي الشهير نبيل، يعرفه كل الناس، لأنهم رأوه يعزف خلف كل أجيال المطربين في التلفزيون منذ العهد الملكي. يلقبونه الأستاذ ويقال بأنه معلم العازفين. يبدو أكبر مما يظهر عليه في التلفزيون. هذا أول مشهور يراه إبراهيم في الواقع. فكر بأنه، إذا نجا سوف يخبر قسمة بذلك، فهي تحب المشاهير، سيصبح الأمر بالنسبة له من تلك الأحداث التاريخية في حياته، ثم تذكر أنه ممنوع من الحديث لأي أحد عن أي شيء يراه أو يسمعه هنا.

كان الموسيقي يتصبب عرقاً لأنه يرتدي بذلة رسمية وربطة عنق. يرتجف ومع ذلك يعزف ألحاناً هادئة، أغلبها من التراث الشعبي، ولكنه سرعان ما يقطع عزف مقطوعته في منتصفها حالما يرى أصبع الرئيس أمامه يشير بدائرة في الهواء. من الواضح أنه يقصد "أخرى".. وهكذا.. إلى ما بعد السمكة العاشرة تقريباً، استدار الرئيس إلى الموسيقي، وثمة مَن أسرع في إدارة كرسيه له واختفى بلمح البصر. صار وجهاً لوجه مع الأستاذ نبيل الذي حاول النهوض فأشار له الرئيس بالجلوس، وجلس طبعا. وضع قدمه على ركبة الموسيقي فيما العود على الركبة الأخرى، وأشار له بمواصلة العزف، ثم راح يمسح أسفل نعله بقميص الموسيقي الأبيض، فركاً على بطنه بهدوء، وبعد برهة رفس العود بقدمه فسقط. سحب الرئيس ربطة العنق نحوه حتى انحنى الموسيقي. وقال له بنبرة هادئة.. لكنها مخيفة:

- إيبي.. شلونك يا نبيل؟

وواصل دون انتظار إجابة:

- وكيف حال بناتك؟ كيف هو المنصب الكبير والشهرة الكبيرة والبيت الكبير الذي منحته إياك حكومة الثورة؟

تمتم الموسيقي:

- كل شيء تمام وبألف خير يا سيدي بفضل وعايتكم الكريمة، ربنا يحفظك، ربنا يحفظك.

- لا، لا، يبدو بأنك غير راض. سمعت بأنك تتكلم عن الحرية والديمقراطية عندما تسكر في جلساتك الخاصة.

- كلا، كلا.. أبداً يا سيدي فأنت الحرية وأنت الديمقراطية وأنت..

قاطعه مقدّماً إليه الكأس الآخر باليد الأخرى وفي الوقت نفسه مزيدا من شدة سحبه لربطة العنق ومن فرك نعله في صدر الموسيقي.

- أتشرب؟. قالها بهدوء، ثم صارخاً:

- إشرب.

وما أن هم الموسيقي بمد كفه مرتجفاً حتى ألقى الرئيس بما في الكأس على وجهه. ثم رمى الكأس الفارغ بعيداً خلفه في الماء. أخذ القنينة من الطاولة، قدمها للموسيقي.

- هذا أغلى وأحسن مشروب في العالم. اشربها كلها فأنت غالٍ علينا.

أخذها الموسيقي، فيما أتى الأشقر بقنينة أخرى مختلفة اللون والشكل، وضعها على الطاولة واختفى. التفت الرئيس ونادى:

- يا فيصل.

فدنا منه رجل يرتدي بيجامة نوم وأعطاه مسدساً. إنه وزير الدفاع. صدم مظهره إبراهيم. هذا الرجل العسكري المهيب، الذي مجرد ذكر اسمه بين صفوف الجيش، يشنج الأعصاب، هذا الذي لم يظهر في الصحافة أبداً إلا بالبذلة العسكرية موشّى بالنجوم والسيوف والرتب وكل النياشين وبملامحه الصارمة. لم يكن إبراهيم ليتخيل معها أن هذا الرجل ينام كبقية البشر، وإنه حتى لو نام فسيكون وقوفاً، بحالة استعداد وبكامل قيافته العسكرية، والرئيس الذي حين يذكره في التلفزيون يعدد كل ألقابه ومراتبه قبل ذكر اسمه، يناديه الآن باسمه حافياً هكذا "فيصل"، ويأتيه فيصل ببيجامة، يعطيه مسدساً مذهباً وينسحب منحنياً بخطوات وئيدة إلى الوراء.

التفت الرئيس جهة البحيرة، نصف التفاتة، دون أن يفلت من قبضته ربطة عنق الموسيقي، وراح يطلق الرصاص على البط السابح ويضحك بهستيرية حتى نفذت طلقات المسدس فألقاه جانباً، وعاجله وزير الدفاع برمانة يدوية، ضغط الرئيس على لسانها الجانبي ونظر إلى الوزير فسارع بسحب مسمار أمانها. نظر إليها الرئيس في قبضته ثم حدق بالموسيقي وابتسم، حكها على أنف الموسيقي المرتجف السابح

فـي عرقـه، المنحنـي المتكور كأصبع مكسـور، ثم ألقاهـا الرئيس خلفه إلى البحيرة دون أن يلتفت. انفجرت فرفعت، عالياً، نافورة ماء مخلوط بأشـلاء البط والسـمك والطين والطحالب. أفلت ربطة العنق واسـتدار صوب البحيرة متفرجاً على سطحها الذي غطته التماعات بطون الأسـماك البيضـاء بعـد أن انقلـب على ظهورها لابطـة بآخر خفقاتها قبل الموت، وسط بقعة قانية من الطين والعشب وريش البط والدم.

لحظات سكون. ارتشف الرئيس من كأسه جرعة، ثم قدم له الوزير مسدساً آخر، ومن الطرف المقابل كان أحدهم يطلق حمامة في الفضاء، تمر طائرة من أمام الرئيس، فيطلق عليها، وأخرى ويطلق عليها وأخرى وأخـرى وكان يصيـب بعضهـا ولا يصيب الآخـر، وهكذا إلى أن نفدت رصاصات المسـدس، ألقاه، فسلمه الوزير على عجل بندقية كلاشنكوف. عندهـا، راح الـذي فـي الطـرف، يطلـق الحمـام أسـراباً والرئيس يطلق الرصـاص زخـاً عليهـا فيخـر أكثرهـا صريعـاً متلوياً في الفضـاء إلى أن ينتهي في الماء، فيما يبتعد القليل الناجي منها.

توقف وأشار بيده، فجاء اثنان، رفعا الموسيقي من إبطيه، لأنه لم يعـد قـادراً علـى الوقوف بنفسـه، أوقفاه أمام الرئيس على حافة الخشـبة وظهره إلى البحيرة، فأقعى على ركبتيه باكياً متوسـلاً بكلمات لاتشـكل جملاً، وقال له الرئيس:

- تتحـدث عـن الحريـة والديمقراطيـة يا نبيل.. هـا؟! وأنت الذي منحناك ما لم تكن تحلم به.. أنت الذي لم تكن سـوى تابعٍ لعاهرات الملاهـي وتسـلي سَـهر السـكارى، أنت التافـه، عديم الفائـدة، أمضيت عمرك تطنطن بخشبتك الخرقاء هذه، لم تعمل شيئاً آخر نافعا في حياتك كلها سوى الطنطنة كذبابة الخراء. إنهض.

حـاول الموسـيقي النهـوض لكـن قواه خائـرة، فأعانه العسـكريان وانسـحبا. قال له الرئيس:

- غن يا بط، يا بط.

وراح الموسيقي الكهل يغني أغنية الأطفال المعروفة:" يا بط، يا بط، إسبح بالشَط، قل للسمكة، أنت الشبكة، ميلي عنها، تنجي منها...." والرئيس يطلب منه أغاني طفولية أخرى "بلي يا بلبول.. بلي.. ما شفت عصفور، بلي، ينقر بالطاسة.. بلي، حليب وياسة، بلي" يغني الموسيقي، مسربلاً بدمعه وعرقه ومخاطه ورعبه، بصوت أبح مخنوق والرئيس يضحك عالياً. ثم يلتفت فيطلقون له حمامة خلف رأس الموسيقي، ويطلق الرئيس عليها ثم أخرى وأخرى، ويطلق ويطلق، فيمر الرصاص بمحاذاة أذني الموسيقي الذي يجفل والرئيس يضحك آمراً إياه بإعادة أغنية يابط.. وهكذا إلى أن التفت فأعادوا إطلاق أسراب الحمام والرئيس يزخها بالرصاص بتوفز أشعل الفضاء صخباً ثم أنزل فوهة البندقية من أعلى رأس الموسيقي إليه، فخرمه مطر الرصاص المنهمر الذي لشدة قربه دفع جثته إلى الخلف وأسقطها في الماء.

نهض الرئيس، دنى من الحافة، نظر إلى الأسفل، بصق ثم استدار ناوياً المغادرة، لكنه توقف حين اصطدمت قدمه بالعود، فنظر ورفعه أحدهم إليه. أخذه بين يديه، قلبه، تأمله كطفل ينال لعبة طال انتظاره لها. بدا وكأنه يلمس آلة موسيقية لأول مرة، رفعها إلى صدره وراح يداعب أوتارها محاولاً العزف.. كأنه وحده في المكان، كرر المحاولة لكنه لم يتمكن من إصدار حتى نغمتين منسجمتين، فبدا عليه الضجر. ألقى بالعود إلى الماء... وغادر.

- 19 -

في الشاشة وأمامها

لا يدري إبراهيم كم أمضى جامداً بعدها، لأن الدم كان قد نشف في عروقه، فبعد جلبة تلاها سكون أحس أنهم غادروا، وأول حركة قام بها هي محاولته ابتلاع ريقه. كلفه ذلك، لأن حلقه كان جافاً. تحسس قميصه فوجده ملتصقاً عليه بفعل العرق، ولأن البلل أسفله أيضاً، خشي أن يكون قد بال على نفسه. شعر بأنه لم يعش لحظات رعب كهذه في حياته أبدا، على الرغم مما عرفه في الحروب وأنه شاهد الدم والموتى والأشلاء والإعدامات والقصف وكل ما له صلة بمعايشة الموت، أو بالأحرى معايشة القتل، لكن هذه اللحظات كان وقعها عليه مختلفاً تماماً. ربما لأنها لم تكن متوقعة وليست ضمن إطار معارك وتحارب، ربما لأنه لم يتخيل أبدا؛ أن الرئيس رجل عادي هكذا.. ويقتل بيديه أيضا، أو ربما لأنه لم يعرف ما موقعه من كل ذلك وما الذي عليه أن يفعله أو ما الموقف الذي يفترض فيه أن يتخذه. شعر بأنه فائض أو متطفل أو عقبة أو شبح سرمدي. ماذا لو كان أحدهم قد انتبه إلى وجوده؟ ما الذي كانوا سيفعلونه به؟ ما الذي كان عليه أن يفعله؟ أم تراهم قد فعلوا كل ذلك بقصد وتخطيط لغاية ما وكانوا يعرفون بوجوده؟ هذا مستحيل. تمنى لحظتها لو أن الرصاص الذي كان يطلقه الرئيس في عدة اتجاهات أن يتجه بعضه إليه ويقتله بصمت في مكانه، حلاً لهذا المأزق الذي وجد نفسه فيه وخلاصاً من المحنة، من الرعب الذي انتابه.

وسط الصمت، سمع بقبقة وخبط ماء يصدر من حيث سقطت جثة

الموسيقي. فكر باحتمال أنه لازال حياً وفيه بقايا روح تنزع الموت، فارتجف لأنه لا يعرف ما الذي يجب عليه فعله.. ماذا سيفعل الآن؟... ثم هسيس خطوات في الغابة خلفه. خطوات تقترب أكثر، فجمد مكانه، لكنه وجد نفسه يلتفت لا إرادياً فلم ير شيئاً وسط الجذوع، والخطوات تواصل اقترابها.. ثم صوت سعد يناديه: يا عم إبراهيم. لم يكن صوته عالياً، وإنما بالنبرة العادية، نداء باحثاً عنه: يا عم إبراهيم.. تسمعني؟.. يا أبو قسمة!

تأكد من أنه صوت سعد فأصدر صوتاً كأنه: نعم. ثم تمكن من القول بشكل أوضح: نعم، نعم.. أنا هنا يا أستاذ. ونهض متكئاً على الجذوع وعلى ما تبقى فيه من همة.

اعتذر سعد له عن تأخره وقال بأن الأمر هكذا.. تفهمني؟ فالرئيس يتنقل بلا مواعيد ويختار الأماكن على مزاجه فجأة ودون سابق إنذار أو تنبيه، وبالطبع لا يمكن الاقتراب من المكان الذي يرتاده إلا بإذنه، كل شيء خاضع لأوامر ورغبات ومزاج سيادته طبعاً.. تفهمني؟... هل رآك أحد؟ عدا كون إبراهيم قليل الكلام فقد كان شبه عاجز عنه، فهز رأسه بالنفي، وتنفس سعد بارتياح: الحمدلله. ثم سأله: وهل رأيته؟. لم يجب إبراهيم وإنما أوحى بهزة أخرى من رأسه تشبه النفي، فيما واصل سعد كلامه: لو أنك رأيته كنت سأسألك عمن كان يقدم له الشراب، هل هو أشقر؟ الروسي؟ أتعلم، أنا من كان يفعل ذلك ولأكثر من مرة في هذا المكان بالذات. كنت أقدمه له وهو يصطاد السمك والبط والحمام.

كنوع من الاعتذار، قرر سعد أن يوصل إبراهيم بسيارته الخاصة إلى بيته، فأخذه حتى باب الدار دون أن يسأله عن عنوانه، ولم يسأله إبراهيم كيف عرفه، لابد أنه يعرف كل شيء.. أليس هو واحد منهم، من الحكومة. هكذا علل إبراهيم الأمر ولم يلح عليه لاستضافته، فغادر سعد مغنياً فيما كان الليل في أوله.

أثناء طريقهما كان سعد لا يتوقف عند إشارات المرور، ولا يلتزم بأي منها ويبدو أن الشرطة يعرفونه لذا لم يعترض عليه أحد، بل إن بعضهم كان يؤدي له التحية العسكرية عن بعد. وأخبر إبراهيم بأن ثمة حفلة عشاء فخمة ستقام بعد ثلاثة أيام في حدائق أحد هذه القصور. مناسبة وطنية، أو هي شخصية للرئيس بذكرى توليه منصب ما قبل عقود. اسمع.. ستكون حفلة مذهلة ولا يتجاوز عدد المدعوين إليها المائتين، أغلبهم من أجمل نساء العراق والأجنبيات، وسترى مائدة طويلة عليها من الطعام والشراب من الكم والنوع شيئاً لا يتخيله العقل.. وسيفيض طبعا، ويمكن للعمال بعدها أن يأكلوا أو يحملوا ما شاءوا منه إلى بيوتهم. هل تريد أن أدخل اسمك ضمن طاقم الخدمة؟ يحق لك اصطحاب شخص واحد فقط، امرأة، على شرط أن تكون جميلة وبأحسن زينتها... وضحك، ثم واصل: كما سيمنحوننا هدايا مالية مضاعفة. أنا سأكون هناك في طاقم خدمة المشروبات وسترى مهاراتي.. هل تريد؟. هز إبراهيم رأسه نافيا. صمت سعد قليلا، وقال: نعم أنت تعبان، إذنْ تعويضا عن تأخرك اليوم سأمنحك إجازة ليومين، وعليه فلا تأتي إلا قبل الحفلة بيوم وبعدها بيوم من أجل إعادة ترتيب الحديقة والعناية بالورد، وراح يردد أغنية عن الورد "عمي يا بياع الورد، قل لي الورد بيش... قل لي" إلى أن وصلا. وقال تحت تأثير النشوة ذاتها: تفضل بالنزول يا سيادة العم الورد أبو قسمة واعذرنا يا طيب.

تلك كانت آخر مرة يرى فيها إبراهيم هذا الشاب (الطيب!) حياً، فقد دفنه لاحقاً بيديه.

حين دلف إلى بيته وجد ابنته قسمة في الصالون، مستلقية على الكنبة أمام التلفاز وقميص نومها مرفوعاً حتى بطنها تقريبا. كانت تتحدث في الهاتف بهمس وعطورها تملأ المكان كالعادة. ما أن رأته حتى أغلقت السماعة وعدلت من جلستها بكسل. سألته عن سبب

تأخره، فأجابها بكلمة واحدة بعد أن جلس على الطرف الآخر من الكنبة عاصرا رأسه بين يديه: شغل. ثم سألته إن كان قد تعشى أو يريد شيئاً، فقال: ماء. ثم على عجل أتبعها مصححاً: لا، لا.. ماء لا، أي شيء آخر.. شاي، أريد شاي. فنهضت متجهة إلى المطبخ.

تنفس بعمق. خلع قدمه الصناعية ومن الأخرى الحذاء واستلقى على ظهره كي يستريح، لكنه، بحركة واحدة، انتصب في جلسته عندما لمح الموسيقي نبيل في التلفاز. دنا من الشاشة أكثر، حدق جيدا، فكان هو؛ الموسيقي نبيل يرتدي البذلة ذاتها وربطة العنق التي رآها اليوم في قبضة الرئيس تسحبها والقميص ذاته، الذي كان الرئيس يمسح فيه أرضية نعله ثم ثَقَّبَه بالرصاص، لكنه، كالعادة، يبدو في الشاشة أبهى وأكثر شباباً تحت الأضواء وهو يحتضن عوده عازفاً، جالساً في المقدمة، في وسط فرقة الموسيقيين خلف مطرب يحيي حفلة وطنية، أو هذا ما كتبوه في أسفل الشاشة، على الرغم من أن أغانيه كانت كلها تتغنى بالرئيس، ولكنهم يسمونها أغاني وطنية أيضاً.. هذا إن كانت تستحق تسمية أغانٍ أصْلا. أما أعلاها، في الزاوية، فقرأ كلمة (مباشر). اقترب إبراهيم أكثر.. حتى كادت عيناه تلتصقان بالتلفاز وتأكد من وجود كلمة (مباشر) ثم انسحب وبقي على طرف الكنبة غير مصدق ما يراه.

لفت انتباهه، أن السيد نبيل، هو أكثر شيء أو شخص كانَ يُقرِّب إلى الشاشة ويُكثَر من إظهار لقطات لوجهه؛ جادا، مبتسما، مهتزًّا مع العزف، تائه النظرات.. لقطات أخرى لأصابعه وهي تحك الأوتار. كان يُظهَر أكثر من بقية الموسيقيين، أكثر من الجمهور وبأقل قليلاً من المطرب النجم، أو هذا ما تصورّه إبراهيم.. كأنهم أرادوا له أن يتأكَّد من أنه هو، أو كأن إبراهيم ذاته قد وقع تحت نوبة هوس وحمى صورة هذا الموسيقي، الذي شهد مقتله قبل ساعات. دخلت قسمة تحمل إليه الشاي فبادرها بالسؤال:

- هل أن الكلمة المكتوبة في الأعلى، هي: (مباشر)؟

- نعم.

- وعازف العود هذا، أهو الموسيقي المشهور نبيل؟

- نعم.

وبعد أن صمت آخِذًا الشاي من بين يديها، سأل:

- أتعتقدين بأن البث هو نقل مباشر فعلاً أم أنه تسجيل؟

- وماذا يهم إن كان مباشراً أم لا؟! فالمهم أن هؤلاء يعرفون من اين تؤكل الكتف.

وحين وجدته صامتاً، شكت بفهمه لعبارة "من أين تؤكل الكتف" فجلست على طرف الكنبة بعصبية، وواصلت:

- هناك أناس يعرفون جيدا كيف يصِلون، وكيف يجنون المال والجاه ويستمتعون بالحياة.

- بالحياة؟! أتقصدين بأنهم أحياء فعلاً؟!

- طبعاً أحياء، بل جدا أحياء وليس مثل آخرين، آخرين من أمثالنا، أموات في الحياة.

بحسه ومعرفته بابنته، أدرك بأنها تجره إلى مواجهة أخرى من تلك التي عادة ما تستفزه فيها وتشعره بالذنب بشكل ما. لا يعرف بالضبط سبب كونها جافة وحادة معه هكذا دائماً منذ صغرها.. وتبدو نافرة منه. يتذكر تلك اللحظات التي شعر فيها بهذا التحول عندها أو الانفصال. لحظة رأته بقدم واحدة، لحظة رأته ناقصاً. أحياناً كان يبرر بكونه لم يكن إلى جانبها لوقت طويل، وظن بأنها، مع الزمن وحين تكبر، ستفهم بأن غيابه لم يكن بمشيئته أبدا وستعذره، لكنها الآن كبيرة، ومع ذلك، لازالت تواصل تحاملها عليه حتى حين يصمت أمامها تحاشيا لأية مواجهة، يعرف بأنه سيخرج منها خاسرا كونه لا يجيد الكلام مثلها.
قال:

- كل شيء قسمة ونصيب يا ابنتي.

- لاقسمة ولا نصيب ولا بطيخ، إنها إرادة وذكاء. كل إنسان يستطيع الوصول إلى ما يشاء وأن يعيش الحياة التي يرغب، إذا عرف الذي يريده واستخدم ذكاءه وكرَّس طاقته للوصل إليه.

- ثمة أناس هكذا يولدون كبارا وبسلطة أو مال أو جاه.. كل إنسان وقدره "كل مُيَسَّر لما خُلق له". كل شيء مكتوب، كل واحد وقدره.. الناس ليسوا سواسية.

- بالفعل ليسوا سواسية، لأنهم لا يريدون ذلك التساوي ولا يسعون إليه، فالذين يريدون سيصلون وينالون، أما الذين يركنون للاستسلام والخضوع ويرتضون لأنفسهم العيش في الظل والهامش سيستغلهم الآخرون، وسيبقون في الظل والهامش أبداً.. هذا إذا لم يسحقهم الآخرون، الأقوى والأغنى والأجرأ.

يدرك إبراهيم بأنه لن ينجح أبدا في إقناعها بشيء من اقتناعاته، وهو بالفعل مقتنع بما يقول، ولم يعانِ من مسائل كالغيرة والحسد أو الطموحات التي لا تتناسب وقدره، واعتاد على الشعور بالرضا ذاته.. لذا كان عليه أن ينهي محاولة التحاور معها مرة أخرى، وبعبارته ذاتها، بصوت أوطأ، قال:

- كل شيء قسمة ونصيب.

فانتفضت هي واقفة محتدمة:

- أووووف، مرة أخرى قسمة ونصيب؟! أليس لديك غيرها؟ ألم تمل من تردادها؟! ألم تجربها طوال حياتك؟! ولمست بنفسك نتائجها، فأمضيت العمر جنديًا تحت إمرة ضباط بنصف عمرك، وصاروا ضباطا بعامين فقط، وبنصف جهدك. تفقد أنت قدمك وهم يكسبون النجوم والنياشين الإضافية، وها أنت أيضاً تمضي بقية حياتك خادماً في حدائقهم، ومن المؤكد أن ضابطاً آخر أصغر عمرا يسومك الذل

ويجرجرك كالخروف إلى حيث رغباته.. فلا تقل لي، لا قسمة ولا نصيب.. ولا زِفت.

انصرفت غاضبة إلى غرفتها، وصفقت الباب خلفها بعنف، فيما بقي إبراهيم على جلسته مطرقا الرأس.. ووحيدا، لكنها فتحت الباب، أطلت برأسها وصاحت من هناك:

- إن كنت أنتَ راضياً بحياتك فأنا لست راضية عنها، وسأعرف كيف أغيرها.

ثم صفقت الباب بقوة، وسرعان ما أعادت فتحه، وأطلت برأسها مرة أخرى معقبة:

- ها، ولعلمك، فأنا أكره اسمي (قسمة) أيضاً.

وصفقت الباب أقوى.

ود إبراهيم لو أن زوجته هنا الآن، لو يبكي على صدرها حد الانهيار وأصابعها الطيبة تمسح رأسه، وصوتها الواطئ كوشوشة الأشجار ورقرقة ماء النهر يهدئه. ود لو يحدثها عن كل ما رآه اليوم. تمنى لو أن ابنته مثل أمها، أو على الأقل فيها نصف طيبتها، نصف هدوئها.. لكن القسمة جعلت قسمته نقيضة لكلتيهما، فيما زوجته تكاد تشبهه في كل شيء، تشبهه بالرضا. كم يشعر بحاجته إليها في هذه اللحظة أو بحاجته إلى لحظة هائلة من الوحدة والراحة كتلك التي عاشها اليوم بين جذوع الأشجار الغريبة قبل أن يحدث ما حدث ويرى ما رأى! كم يشعر الآن بالشوق لأم قسمة! لذا فكر أن يذهب الآن إلى المستشفى، إليها، ليعانقها، ليرعاها، ليشكو لها من قسوة قسمة عليه وليعتذر منها عن كل تقصير بدر منه حيالها طوال عشرتهما. ليُفهمها.. أو أنها هي أصلاً تفهم بأن مجرى حياته بكاملها لم يكن باختياره، وأنه لم يُمنح أية فرصة للاختيار، كل شيء في حياته قد فرضته الظروف أو قرره الآخرون، بما في ذلك زواجه منها، فالذي اختارها هو والده وهي تعرف ذلك،

والـذي وافـق علـى الزواج هـو والدها. وربما هذا هـو الاختيار الوحيد الذي كان إيجابياً أو الأنسـب له. سـيقول لها كل ذلك بكل الأشـكال، وهي الوحيدة التي تفهم ما يريد قوله حتى وإن لم ينطق بشـيء. نهض على ساق واحدة، ثم عاود الجلوس بعد أن تذكر بأن لديه يومين إجازة، وأن الوقت قد تأخر الآن، فقد تكون نائمة أو يمنعونه من الدخول.

احتسـى شـايه و(الحفلة الوطنية) لا تزال مسـتمرة، ونبيل يواصل عزفه خلف مطرب شـاب بعمر بناته. رمق الموسـيقي بنظرة أخيرة في التلفـاز، وبالفعـل تلـك كانت آخر مرة يظهرون فيها على الشاشـة. أطفأ التلفـاز. توجـه يعـرج إلـى الحمـام، وفـي طريقه توقف أمـام باب غرفة قسـمة، أطـرق السـمع فلم يسـمع شـيئاً، تـردد، ثم طرق البـاب طرقتين خفيفتين، وقال:

- غداً أوصليني إلى المستشـفى قبل ذهابك للمعهد.. غداً عندي إجازة.

وخطا نحو باب الحمام، لكنه تراجع وعاد ليقف أمام بابها، وقال:

- تصبحين على خير.

ومشى مبتعداً، ثم أكمل مع نفسـه:.. يا ابنتي.

- 20 -

باقة ورد وبرتقال

استيقظ مبكراً، كعادته، وقبل أن تنهض قسمة، كان قد حلق ذقنه واستحم وتعطر وصبغ ولمع حذاءه. ارتدى بذلته الوحيدة الخاصة بالمناسبات. ثم أعد الإفطار في الصالون إلى أن أكملت قسمة اغتسالها ولبسها وجاءت تفطر معه. لم يتبادلا أي حديث سوى تحية الصباح وكلمة الشكر، ومن ثم الوداع حين أنزلته بباب المستشفى. أخبرها بأن لا داعي لأن تأتي لأخذه، سيعود بنفسه في تاكسي.

ما أن رأته زوجته مقبلاً عليها، حتى تهلل وجهها رغم ذبوله، فيما تفتح قلب إبراهيم كبيت أُضيئت مصابيحه بعد هجر طويل. كانت مستلقية على سرير المرض واستقامت جالسة، أشرعت ذراعيها لاستقباله على الرغم من أن إحداهما كانت موصولةً بخرطوم مغذٍّ. ابتسمت بعذوبة سَحرت إبراهيم. أبهجتها رؤيته أنيقاً ومُقبلاً في بدلة عرسهما. كل علاقتهما كانت سلسلة من الغيابات واللقاءات المتكررة على مدى أعوام زواجهما ولم يشعرا بلقاء حقيقي لوحدهما، خارج غرفة النوم، بعيداً عن قُرب الأقارب، على هذا النحو. كأنهما يلتقيان لأول مرة.. ثمة شعور اجتاحهما معاً، تماماً كذاك الذي يوصف بأنه حب من النظرة الأولى. انحنى واحتضنها طويلاً، وشمت رقبته وشم رقبتها، ومسحت كفَّيه على الظهرين وصعوداً إلى الرأس، فالتمعت عينا إبراهيم بدمع لم ينزل.

جلس أمامها على حافة السرير، وبفضل ضوء الصباح المطل من النافذة المجاورة، رآها كأجمل امرأة في الدنيا، وإن كانت أنحَل، بحيث

لم يسبق له وأن رأى إنساناً على هذه الدرجة من النحافة. لكنه وجدها أفضل مزاجاً وأكثر إشراقاً وحناناً وحيوية من المرات السابقة التي زارها فيها.

جاءت ممرضة بعربة الإفطار، وأصر إبراهيم على أن يطعم زوجته بيده، وكلما ألمحت بالاكتفاء ألح عليها أو مازحها كي ترتشف آخر ملعقة شوربة، وهكذا إلى أن جعلها تتناول الإفطار كاملاً.

أخبرته بأنها أفضل ولكنها بشوق إلى البيت، بيتهم في القرية، بشوق إلى حياتها اليومية العادية، إلى التفاصيل المنزلية معه ومع قسمة. شكرته على صبره عليها ومراعاته لها واعتذرت عن تقصيرها.. فيما كان هو يرد إليها الكلام بمثله من شكر واعتذار. وبعد مجيء الطبيب وتناولها للدواء، سأله فيما إذا كان بإمكانها التمشي قليلاً، فأشار له الطبيب بأن الأمر عائد لرغبتها وقدرتها هي.

أعانها على الوقوف، أسند ذراعها على كتفه وذراعه على خصرها، وفي يده الأخرى الكيس المغذي. سارا على مهل في الممر الأبيض كطفلين، شاعرين بلذة هذه اللحظات وكأنها نزهة على شاطئ النهر وضوء النوافذ المتراصة هو الماء. خرجا إلى الحديقة واتخذا لهما فيها مسطبة منزوية في ظل شجرة تين، وحال جلوسها قالت إنها ترغب بلمس العشب، فأراد أن يحش لها قبضة منه، فمنعته قائلة أنها ترغب بلمسه في أرضه. أعانها على النزول إلى الأرض وجلسا، فراحت تمرر كفيها، تتخلل أصابعها العشب بحنان فياض كأنها تداعب شعر رضيع نائم.

لم يحدثها إبراهيم عن شيء خارج لحظاته هذه معها. كان مبتهجاً بها ومتفائلاً أن وجدها على هذا النحو، فنسي أو تناسى كل ما نوى إخبارها به. استعادا بعض ذكرياتهما في القرية وطرائف من طفولتهما والجيران والفلاحين هناك وضحكا لأكثر من مرة. طمأنها على أنه بخير

وأن الشيء الوحيد الذي ينقصه هو شفاؤها وعودتها إلى البيت، وأن حياته بدونها بلا طعم ولا معنى، وأنه يحتاجها في كل شيء، يحتاج إلى وجودها معه كي يشعر بوجوده، ولمح لها بما تعرفه حول علاقته بقسمة، وبأنه لا يجيد التفاهم معها ولا يعرف سبيلاً للتقرب إليها، فهدأته بما تكرره عليه دائماً، قائلة بأنها بنت طيبة القلب، وإن كانت عصبية أو صعبة أو عنيدة بعض الشيء، ورجته أن يكون صبورا معها كل الصبر، وأن يراعيها فيما لو طال غيابها عنهما... بنبرة مختلفة عمَّا كانت عليه طوال الوقت، قالت: وصيتي الوحيدة لك أن تكون صبورا معها ومتسامحا بلا حدود، كما أوصيك بنفسك أنت أيضاً. وحين أراد منعها عن مواصلة هذه النبرة الوداعية، منعته من منعها، وواصلت قائلة: أنا أسامحك عن كل شيء يا إبراهيم، أنت طيب جداً وأنا راضية عنك... صمتا معا بدمع مختنق وأعاد هو الكلام عليها ذاته: أنا أسامحك عن كل شيء يا أم قسمة، أنت طيبة جداً وأنا راض عنك. تعانقا وهمست في أذنه لأول مرة في حياتهما: أنا أحبك. فاعتصرها ناسياً هزال جسدها وقال لها ناشجاً في أذنها: أنا أحبك. وبقيا على هذا الحال لوقت طال. لاحقاً، غيرا اتجاه الحديث تماماً وراحا يتكلمان عما هو يومي وعما سيأخذانه معهما من هدايا في سفرتهما القادمة إلى القرية.

انقضى النهار سريعاً كنهارات المحبين أو طويلاً كنهارات المحبين، حيث ختما لقاءهما بالجلسة ذاتها، هو على حافة السرير أمامها وهي ممددة، فيما أعتمت النافذة تدريجياً، ومن خلالها صارت تُرى مصابيح المدينة تزين الليل بشكل أخاذ، فبدت له بجلستها تلك أمام الأنوار كدمية ملكية.

أمضى اليوم كله بصحبتها، ولم يتركها حتى نامت وكفها نائمة في كفه. قبل جبينها، وعاد ماشياً إلى البيت مستمتعاً بليل بغداد لأول مرة، ماراً بالأزقة القديمة وبالأسواق الشعبية حيث عبق الشاي ودخان

الأرجيـلات ينبعـث مـن المقاهـي، وروائـح الأطعمة فائحـة من عربات الباعة المتجولين وأبواب المطاعم. مشى على الجسـر، توقف في منتصفه ناظراً إلى ماء دجلة الذي عكس أضواء الضفتين والسماء، وتنفس نسيماً مغسـولاً أنعش روحه.

نظر، من هناك، إلى مبنى المستشفى وحاول أن يخمن؛ خلف أي من تلك النوافذ المتراصة ترقد زوجته. ظن أنه حددها فركز بصره.. كأنه يحدق في عينها هي. تصورها ترقد خلفها براحة واصفرار وجهها الذي زادهـا جمـالاً ورضاهـا يقربها من صـورة الملائكة في مخياله. تذكر أن آخر مَن ذكراه في حديثهما هو اسم ابنتهما قسمة وأن آخر ما قالته له، وردده هو بعدها وابتسـما معاً، قبل أن تغفو..

قالـت: هذه هي الحياة؛ كل شيء قسمة ونصيب.

قال: هذه هي الحياة؛ كل شيء قسمة ونصيب.

ابتســما حـد الضحـك تقريبـاً، كأنهما يتآمران. ابتسـم لها من على الجسـر وبعث لها قبلة صادقة في هواء الليل ثم واصل سـيره، شـاعراً بالرضـا.. بـل شـاعراً بالحب الحقيقـي، ومتيقنا من أن لا أحد يفهمه أو يتطابق معه أبداً في هذا الكون إلا هذه الإنسـانة.

أكرم نفسه بوجبة ممتازة من الكباب وترك للنادل ما يفوق السعر، وعندما تناول قدح شاي آخر في الطريق من صبي متجول، دفع له ضعف الثمن فشكره الصبي ودعا له ولأهله بالخير والعافية. فراح إبراهيم يجزل العطاء لكل من مر بهم من بائعي الأرصفة والمشـردين، لأن مسـألة أن يدعـو لـه ولأهلـه قـد راقـت له كثيـراً، وفكر أن دعـاء أحدهم قد يكون مستجاباً مثلما قد تكون هذه الليلة مباركة.

في الزقاق المؤدي إلى البيت، كاد يصفر بلحن أو أغنية، لكنه تذكر ماجرى للموسيقي في الأمس فأحجم عن ذلك. جاهد لطرد الذكرى من رأســه، وعـاود التفكيـر بالأمـل الذي بثه لقاء اليـوم بزوجته، وكيف أنها

ستكون غداً أفضل، وسيحمل لها سلة برتقال، لأنها تحب البرتقال، تحب لونه وطعمه ورائحته.. بل حتى إنه فكر بأن يحمل لها باقة ورد، عندها ستبتسم حتما، وتُذكره بأن هذه من عادات أبناء المدن، وسيعترف لها بأن تجواله الليلي هذا قد جعله يشعر بنوع ما من الإعجاب بالمدن. كأنه يكتشفها من جديد ويتلمس متع السير في أسواقها والأرصفة ليلاً، أعمدة مصابيحها، العمارات المتراصة، زحامها، ضجيجها وسكون الأزقة.. بل حتى حفيف السيارات العابرة قد أعجبه. سابقاً، كان يمر بالمدن عابرا عندما ينقلونه من وحدة عسكرية إلى أخرى، وأقصى ما كان يفعله أن ينتقل من حافلة إلى أخرى، أو يشتري ساندويتشا أو أي شيء من عربات الباعة المتجولين في الكراجات، وإذا ما تأخرت الحافلات قد ينام في فندق رخيص متسخ، في غرف مشتركة مع جنود آخرين أو أناس عابرين أو مهاجرين مصريين وسودانيين وهنود، أو قد ينام بكامل لباسه العسكري على عشب ساحاتها متوسداً حقيبته.

يشعر بأنه أفضل، وأقوى.. وبإرادة ذاتية ما تنبت في داخله فكَّر أنّه حالما يدخل إلى الدار الآن، سيتعامل مع قسمة بشكل مختلف، منفتح وواثق أكثر، سيقول لها، أنت ابنتي وأنا أحبك. تعالي أحتضنك وقولي لي ما تشائين بلا تردد.. كل شيء، مهما يكن، أريد لإرادتك أن تنتصر على إرادتي بإرادتي هذه المرة. سيخبرها بأن أمها امرأة عظيمة وأنه يحبها، أنها تتعافى وأنه سعيد بهما في حياته وستكون حياته كلها لهما. سيمازحها، سيتّبع معها ما وجد نفسه يمارسه اليوم من سلوك مع أمها ورأى نتائجه مذهلة، وإن كان، في الحقيقة، لم يخطط لأسلوب ما، وإنما حدث كل شيء بعفوية، لكنه تعلم منه، وأدرك أن التعبير عما في النفس أمر ساحر. سيطلب منها أن ترافقه غداً إلى المستشفى لتراها بنفسها، وقبل ذلك، أن تعينه باختيار باقة الورد التي تخص المحبين لا المرضى، نعم سيقول لها هذا، وأن يشتريا لها البرتقال معاً.

دخل إلى البيت مسرعاً وفي روحه لهفة لمعانقة قسمة، لكنه وجدها نائمة. رمق ساعة الحائط فوجدها قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل، لذا تحرك بهدوء في أرجاء البيت، وأجل إجراءات النظافة حتى الصباح، مكتفياً بخلعه ثيابه والارتماء على السرير، فأخذه النوم إلى أعماقه عاجلاً. نام بنهم، بشكل قلما نام بعمقه، لذا استيقظ متأخراً، ولكنه في أتم راحته.

كانت قسمة قد غادرت البيت. الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً. لم يأسف على ذلك، بل فضله، فإذا كان هو بحاجة إلى كل هذا النوم، لابد وأن زوجته أكثر حاجة، وخاصة أنه ربما أتعبها بصحبته طوال نهار الأمس وحرمها من قيلولتها المعتادة. فتح التلفاز وراح يعد لنفسه الإفطار، لكنه سرعان ما أطفأه حين وجدهم يبثون حفلة وطنية أخرى. تسلل إلى غرفة قسمة التي كانت تشبه عشاً حميماً، بفوضاها وخليط العطور وصور المشاهير الكبيرة تغطي الجدران. فكر أن يرتب لها فراشها، لكنه آثر تركه على حاله وسره أن يرى الكثير من الكتب على الطاولة المجاورة للوسادة، فيما لم ترق له أكداس المجلات الملونة الحافلة بصور المشاهير. تجاوز كل ذلك وبحث في أشرطة الموسيقى المركونة قرب جهاز التسجيل، تصفحها وتجنب ما يعرفه من الغناء العراقي الحزين. أراد شيئاً مختلفاً تماماً، فاختار شريطاً إنكليزياً وألقمه للجهاز. بالطبع لا يفهم شيئاً مما تقول الأغاني الصارخة، لكن صخب موسيقاها وإيقاعاتها المختلفة، عما عرفه من الغناء العربي، أعجبته. هذا ما كان يرغب فيه، شيءٌ مختلفٌ، أصوات مختلفة وكلمات لايفهمها. رفع صوت الجهاز وخرج تاركاً باب غرفة قسمة مفتوحاً، فكانت الموسيقى الغربية تهز الهواء في أرجاء البيت وتحفز فيه حيوية نادرة، بحيث إنه كان يهز رأسه وكتفيه معها أحياناً.. بل وجد نفسه يهز مؤخرته وهو يُعد الشاي، فتلفت حوله، وابتسم لنفسه أو على نفسه..

ثم واصل اهتزازه الحُر كمراهق.

أفطر، استحم، تعطر وارتدى بذلة الأمس [illegible] عشرة برتقالات من دكان الحارة. اختارها بنفسه واحدة واحدة، [illegible] أكثرها طزاجة ويمسحها بمنديل استلّه من جيبه حتى [illegible] وحين نزل من التاكسي أمام المستشفى، توجه إلى كشك [illegible] طلب من سيدة عجوز مقعدة، أن تشكل له أجمل باقة، [illegible] كرسيها ذي العجلات وانتقت له ما أعجبه، فدفع لها [illegible] المستشفى مسروراً كون وصوله يصادف ساعةَ الغداء، [illegible] أخرى ليطعم زوجته بيده ويحثها على مزيد من التغذية. [illegible] وصوله إلى سريرها وجده فارغاً، فيما أشياؤها لازالت [illegible] بأنها؛ ربما تكون في الحمام أو أنهم أخذوها لإجراء [illegible] ولأنه أراد أن تكون المفاجأة أقوى وابتسامتها أجمل، وضع [illegible] وسط الوسادة بمثابة رأس وكيس البرتقال على السرير، [illegible] وغطاهما بالشرشف الأبيض الشفيف ثم جلس بمواجهة [illegible] راً قدومها.

- 21 -

إجازة وفاة

يعرف إبراهيم أن الحظ حالفه وزوجته. ترتبت الظروف كي تكون معالجتها في هذا المستشفى الحكومي الخاص. خدمته وظيفته الجديدة. تمنى لو أن والده لا يزال حياً ليُعالَج هنا أيضاً، فهذا المستشفى هو واحد من قلة جيدة في البلاد، ولا تدخله إلا الشخصيات وموظَّفو الحكومة المهمون وذووهم. فحتى الأطباء والممرضات يخاطبونه باحترام لم يعهده في حياته، يقولون له: "أستاذ!" و"حضرتك!"، وكان الدكتور المعالج لزوجته أكثر تهذيباً معه اليوم، حيث بالغ بالتودد وكلمات الاحترام. اقتاده إلى مكتبه وراح يشرح له تفاصيل مرض زوجته علمياً وبمصطلحات لم يفهمها إبراهيم، بل لم يفهم مجمل ما قاله، لذا اكتفى بالطأطأة والصمت مادامت خلاصة ما أراد إخباره به الطبيب من هذا الكلام الطويل هو أن زوجته قد ماتت.

لم يفتح إبراهيم فمه، وكان كل الكلام للطبيب الذي يبدو بأنه لم يكن ينتظر كلمة منه، فسعى لملء فراغ الصمت. نهض ليأتيه بكأس ماء. شربه إبراهيم عن آخره، ثم أشار بإصبعه إلى الهاتف فوق الطاولة. سارع الطبيب بتقريبه إليه وخرج من المكتب. اتصل إبراهيم بدائرة عمله، فأبلغوه بوجوب أن يأتي بنفسه وفي يده شهادة الوفاة من المستشفى، عندها سيمنحونه عشرة أيام إجازة.

ذهب إلى استعلامات القصر الجمهوري بورقة وعاد بأخرى. لم يتوقع أن تكون الإجراءات على هذا النحو من السرعة والسهولة، وهو المعتاد، على طوابير مُنهكة مُملة ودفع الرشاوي وتحمّل الإذلال

وحمل ملفات ثخينة بالأوراق الملطخة بعشرات الختومات. للحظة ود لو أنه كان قد رأى الشاب سعد هناك وإن كان يعرف بأن عمله ليس في الاستعلامات. شعر برغبة أن يخبر أحداً بفاجعته ولو لكي يواسيه بالكلمات العادية التقليدية في التعزية.

عاد ليجلس وحيداً في البيت حتى عادت قسمة متأخرة. لم يَبْدُ عليها التأثر كثيراً ودخلت مباشرة في مناقشة ترتيب تفاصيل رحلة نقل جثمان الأم إلى القرية. قالت إنها ستذهب في الصباح إلى المعهد لتطلب إجازة، وسيكون هو برفقتها كي يتوجها بعدها مباشرة إلى المستشفى وتحميل التابوت على سقف السيارة والانطلاق بالرحلة.

على مدى الساعات التي استغرقها الطريق بتوقفاته من بغداد إلى القرية، لم يتبادلا أية كلمة. اكتفت قسمة بقيادة السيارة وشتم السائقين والتضجر من تراكتورات الفلاحين ومواشيهم، التي تتيه في الشوارع بلا أي نظام. أما هو فكان يشعر بجثمان زوجته المربوط على سقف السيارة وكأنه جناح طائر ناعم بمسد فروة رأسه. تمنى لو أنها جالسة معهما الآن وهو إلى جوارها في المقعد الخلفي ممسكاً بيدها، أو مسنداً إياها على كتفه، ناظراً إلى وجهها الهادئ، يحدثها بآخر الكلام مما ظل مخزوناً في داخله على مدى عقود. فكر أن يبوح لقسمة برغبته هذه، أن يُخرجاها من التابوت ويُجلِساها معهما، لكنه خشي أن تثور في وجهه، أن يضاعف من تشويه صورته في رأسها، أن تصفه بالخبل إلى جانب تصورها عنه بأنه فاشل، ضعيف وعديم الفائدة، خاف من ردود فعلها أياً كانت. فهبط في مقعده أكثر، غرق في صمته وغاص في نفسه، معاوداً ممارسته للاستسلام لقدره الذي شعر بأنه يضربه مرة أخرى، يقمعه كلما ظن بأن الأمور ستنفرج، يقوده من أذنيه، من ظرف صعب إلى ظرف أصعب... وهكذا طوال حياته.. هذا هو قدره.. وكل شيء قسمة ونصيب.

في القرية، دام المأتم ثلاثة أيام. كان عائلياً بسيطاً، وقام طارق بدور البطولة فيه، هيأ الدفن، أقام صلاة الجنازة، قرأ القرآن، كرر أحاديث الدين عن الموت والحياة الأخرى، تصدر المستقبلين والمودعين للمعزين، ولم ينس محاولة إقناع إبراهيم بالزواج مرة أخرى: فأنت لم تزل شاباً يا أخي، وابنتك أصبحت امرأة سرعان ما ستتزوج وتبقى وحيداً.

وبالطبع لم يكشف له إبراهيم سر رفضه وبكونه لا يصلح للزواج، هذا عدا عدم رغبته به أو حتى عدم فهمه لمسألة الزواج أصلاً. أما عبدالله فقد اكتفى بالذهاب لمرة واحدة إلى المقبرة في الأيام التي تلت انتهاء المأتم. يعرف بأن إبراهيم سيكون إلى جوار قبر زوجته. وجده مطرقاً واقترب إليه من الخلف، وضع كفيه على كتفيه، قبَّل رأسه ثم جلس على الأرض جواره مدخناً وقبرها أمامهما، فيما قبر زينب ليس ببعيد إضافة إلى سبعة قبور أخرى صارت تشكل نواة المقبرة الجديدة.

قدم له سيجارة، وحين امتنع، ألح عليه فأخذها. قال له:

- ما الجديد في هذا يا إبراهيم!؟ ألم تكن حياتنا، وخاصة أنا وأنت، مرتبطة بالموت والموتى دائماً؟ عاشرنا الموت وعرفناه أكثر مما عرفنا الحياة. شخصياً، لا أدري، حتى الآن، ما معنى الحياة بالضبط! لا أفهمها. لا أفهم شيئاً من جدوى كل هذه الكتلة الهلامية البشرية التي تمضي زمنها بالتلاطم مع نفسها وهي تدرك أن حصيلتها الزوال! هل فهمت أنت شيئاً عن الحياة؟ عن معناها؟ أخبرني به إذاً ولو كان وهم معرفة. شخصياً أتوهم بأنني أعرف الموت أكثر، وأتخيله أفضل، أكثر راحة.. فلا بد ألا يكون أسوأ من الحياة... حتى وإن كان مجرد عدم لا نهائي. لا أتصور بأنه ستكون حياةٌ كهذه مثلاً، أو أخرى بشروط وظروف أخرى مختلفة.. وإلا لكان الأمر مهزلة عبثية أكبر. شخصياً، تألمت حتى لم يعد يؤلمني الألم، ومنذ زمن بعيد قررت ألا آسف،

الا احزن والا أعاني، أن تكون النتائج سواسية بالنسبة لي. قررت ألا أتعب نفسي وأحرق دمي على أشياء لن تجدي معاناتي بالتأثير على نتائجها. أكادُ أحْسُد الموتى أحياناً على استغنائهم عن كل هذا الهرج، على إدارة ظهورهم له... أو في الحقيقة لم أعد أحسد أحداً، لا الأحياء ولا الأموات. اسمع يا صديقي...

وصمت عندما وجد بأنه لا يعرف كيف يعبر عن هذا الشيء الكبير الذي يعتمل في داخله. فكرر وهو يحاول القبض على الفكرة والكلمات الأدق: اسمعني جيداً يا صديقي. وحين شعر بالعجز، أكمل: خُذ هذه السيجارة الثانية..

فنظرا إلى بعضهما وانفجرا معاً بضحكة عالية هزتهما بعنف للحظات. ثم تعانقا. وقال عبدالله:

- خراء، اللعنة على كل شيء.. هيا بنا نذهب إلى النهر.

في الطريق حاول إبراهيم أن يخبر عبدالله بما رآه أثناء عمله في حدائق القصور الرئاسية فهو الوحيد الذي سيكتم السر أو يتفهمه. لكن عبدالله قطع عليه محاولاته قبل الاسترسال بها وقال: أعرف أو لا أريد أن أعرف أي شيء عن أي شيء، لا عن القصور ولا عن أصناف الناس ولا الحمير ولا الكلاب ولا عن الأشياء والحدائق فما هي في النهاية إلا أشكال أخرى من المقابر الجماعية. البلد كله، العالم، الأرض، بل الكون كله ما هو إلا مقبرة جماعية آيلة إلى الاندثار مهما تأخرت، وحتى لو استمر، فما هو، في المحصلة، إلا امتداد ذو أبدية بلا معنى. دعنا نسبح ونلعب قليلاً في ماء النهر وخلاص.

بقية الأيام أمضاها إبراهيم إلى جوار أمه العمياء التي هرمت كثيراً وتكورت كعلامة استفهام. كان يجلس على البساط ملتصقاً بها أكثر الوقت فيشعر بحنانها يتسرب إليه، وأحياناً كانت تتلمس وجهه وكفيه، ظهره، قدميه وتمسد على رأسه، كان يشعر بأنها أكثر من يشعر

بـه، وإن كانـت تتحـدث متنقلة بين الذكريات والمواضيع والأسـماء بلا ترابـط، عمـا هـو يومي عـادي وعن الطفولة أحيانـاً وأحداث أخرى من زمـن لـم يعـد يذكـره أو يهتـم به أحد. عن شـخصيات منسـية حتى من قبل أحفادها، عن الحصاد وأغانيه، عن الفيضانات وعن أناس تزاوجوا وتقاتلـوا وقالـوا وفعلـوا وماتـوا. عـن عـادات اندثرت، عـادات للزواج والمآتـم والطبـخ وحل النزاعات، عن كيفيـة صناعة اللبن والزبد. فكان حديثها الذي يسـاوي بين الأحياء والأموات والكائنات والأشـياء يوسـع فـي ذهنـه المُدى، ليشـعر معها بأنـه وظروفه وكل حياته ما هو إلا قطرة أخرى عادية وسـط محيط شاسـع هائل من قطرات لا تحصى، هي ما سواه من الناس وحكاياتهم والكائنات والأشياء. كانت حيادية وتـساوي بين الأزمنة والأمكنة والأشخاص والظروف وكل شيء.

أمـا قسـمة فقـد ظلـت تلح عليه من أجل العـودة إلى بغداد، لأنها ملّت هنا، وتضيف حجة التزامها بالدراسة ومواعيد امتحانات، لذا عادا صامتين أيضا بعد أن أمضيا أسبوعا في القرية.

شـغل هـو الثلاثـة أيام المتبقية من إجازته بـأن لملم كل حاجيات زوجته من ثياب وحقائب وأحذية وغيرها وأعطاها للكنيسـة المجاورة، دون أن يُبْقِي سوى على حلقة زواجهما وشالٍ كانت تكثر من لفه على رقبتها، لذا يشم فيه رائحتها كلما اشتاق إليها، وقارورة عطرها المفضل إلـى منتصفهـا. فيمـا منح ما تبقى لديها من أقراط ذهبية وقلائد وخواتم وأساور فضية بسيطة إلى قسمة.

أمضـى جـل النهـارات والليالـي متجـولاً في المدينة علـى قدميه، مكتشـفاً إياها على مهل، يشـغله صـخب أسـواقها ومقاهيها عن التفكير بذاتـه، ويهـده تعـب المشـي فينام دون مقدمات مـن التقلب في الفراش أو الذكريات أو التفكير بشيء، وحين أوقفته، ذات جولة، واجهة جميلة لمكتبة وسـط العاصمة، أوحى له منظر الكتب بالسـلام ورسـوخ العالم.

تأمـل أغلفـةً وعناويـن عديدة فوجدها تحيله إلـى عوالم أخرى مختلفة، دخل ممضياً وقتاً طويلاً بالتحديق فيها وبتقليب بعضها، شعر براحة، ثم انتهى بشـراء روايتين مترجمتين وديوانَ شـعر وكتاباً دينيّاً ونسـخة قرآن صغيرة، وحين واجهته رفوف الأقلام والدفاتر المغرية بألوانها وأحجامها وأشـكالها، اقتنـى دفتـراً كبيـراً بغلاف أزرق فاتح اللون كسـماء الصيف وقلماً أسـودَ. قال لنفسـه بأنه ربما سـيبث في هذا الدفتر ما يجول في خاطـره ويبـوح إليـه إذا مـا احتـاج إلى ذلك، خاصة أنـه يفتقر إلى أحد حميم يحدثه عما في نفسه، كما سيكتب فيه رسائل إلى زوجته، وخرج راضِياً عن ذاته، مرتاحا إليها كونها أمدته بهذه الفكرة.

- 22 -

جثث ودفاتر

حين عاد إلى عمله، أول الصباح، بلغوه بأن مكان عمله قد تغير، ونُقِل بسيارة خاصة إلى بوابة أخرى شبيهة، استغرق الوصول إليها نصف ساعة. هناك، دخل عليه ضابط شبيه بالضابط الأول، شبيه بكل الضباط هنا، حيث يبدون جميعاً يشبهون الرئيس بشواربهم، بذلاتهم الزيتونية المفصلة ومكوية بعناية، المسدسات في الخاصرة، الجزمات الحمراء اللامعة ونبرة الصوت الآمرة. في مكتبه الفخم وصورة الرئيس تحتل كل جدار الواجهة، قال له ما سبق وأن قاله الضابط الأول لهم تماما، كأنهما مضيفان في طائرة يشرحان للمسافرين تعليمات السلوك فيما لو حدث حادث. ممنوع الحديث لأي كان عما ترى وتسمع هنا، أن تكون دقيقاً بالالتزام بالمواعيد وإطاعة الأوامر.. وما إلى ذلك، ثم أضاف له بصوت أخف: يبدو أن مسؤوليك السابقين راضون عنك، ويثقون بك جدا، فقد كتبت عنك تقارير تزكية ممتازة ولهذا نُقِلتَ إلى هنا، في هذا المكان الحساس، وهذه الثقة الكبيرة لا تُمنح لأيٍ كان إلا إذا كان أهلاً لها. ساعات عملك ستكون أقل وراتبك أكثر. دوامك سيكون من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وحتى الخامسة والنصف أو السادسة صباحاً. ستأتيك سيارة خاصة كل يوم إلى بيتك تأخذك منه إلى هنا وبعد الدوام تعيدك إليه.

تفضل. وقاده إلى داخل المبنى الذي كان يشبه السابق في تصميمه، اخترقاه إلى اتساع الحدائق، مساحات أكبر، وكانت هناك عربة تنقل داخلية كالتي كان ينقله بها سعد. قال: سأعلمك الآن كيف تقودها

بنفسك، ذلك سهل جداً.

صعدا وراح يشرح له الأمر؛ تضغط هذا الزر فتشتغل ثم تضغط بقدمك على هذه العتلة فتمشي أوتوماتيكياً وليس عليك سوى أن توجهها بالمقود. هيا افعل ذلك بنفسك. والآن أدلك على الطريق. ذلك سهل أيضا. أترى تلك التلة أو الجبل؟ تتجه إليه وحسب، ومن أي درب تشاء. كانت الدروب عديدة تتقاطع مارة بين نافورات وحدائق وأشجار عالية جداً وسواقٍ وبحيرات صغيرة وقناطر. كلما اقتربا من التل العالي كلما كانت الأشجار أعْلى. سفح التل أو الجبل مغطى بالأشجار، ورأى شلالات صناعية صغيرة تنسكب، وفي أعلاه ثمة قصر صغير له شرفات واسعة تطل على كل الجهات، تهيمن على بقية الآفاق. وكانت، بين الغابات المحيطة بالتل، مساحات واسعة متروكة بلا زراعة. رأى في بعضها قطعاناً من الحمير والإبل والكلاب تجول، وشخصيْن ينقلان إليها الحشيش من مكان ما على عربات تشبه عربته ويلقيانه لهذه الدواب في تلك المساحات المتروكة، قاده إلى بيت صغير من غرفتين، بيت حراسة، وقال له، هذا بلا مفتاح، فقط تضغط هنا وينفتح لك الباب. وجدها صالة صغيرة، فيها كرسي وسجادة وثلاجة ودولاب كبير ورفوف في الجهة الأخرى فيها مصابيح يدوية، صناديق الأدوات، أما في الواجهة فقد بقي الجدار خاليا، تغطيه صورة كبيرة للرئيس ضاحكا. ثم باب آخر؛ هذا هو الحمّام.

هذه دائرة عملك. فيها ما تحتاج إليه من ملابس، وهذه أدوات العمل في الصناديق وأي شيء ينقصك تبلغنا به. لاحظ أن عدة العمل قد اختلفت عن السابقة قليلاً، وبدت أدوات فلاح حقيقي وليست أدوات بستاني. وجد مسحاتين كبيرتين حادتي الحواف لامعتين، وصندوقاً فيه أزواج من القفازات في أكياسها، فأساً، فالاً، نباشاً وأدوات حفر أخرى. وثمة عربة دفع يدوية عادية في الركن.

قال له: حسنا، عليك أن تأتي كل يوم إلى هنا، ترتدي ثياب العمل وتجلس. فإن جاءك أحد ما، هو الذي سيخبرك بما عليك أن تفعله، وإن لم يأت أحد، فتمكث هنا إلى أن ينتهي دوامك وتنصرف. مفهوم؟

- نعم سيدي.

عندما عاد إبراهيم إلى بيته ظل مركزاً تفكيره على أمرين: الأول هو استعادة كل الذي قاله الضابط له وما علمه إياه، استماده مراراً وامتحن نفسه به، كيفية قيادة العربة، الدروب التي مر بها، مكان البيت الصغير. موضع زر فتح بابه. والأمر الثاني هو محاولته تخمين طبيعة عمله الجديد. دون شك أن الشاب سعد هو الذي زكاه لمرؤسيه، فهل ينوون الآن أن يتعاملوا معه كفلاح حقيقي بمساحة حقيقية وليس مجرد بستاني يمضي نهاره بنفض الغبار عن ورود لا يعرف حتى أسماءَها؟ هل سيكون رعي تلك الحمير والجمال والكلاب جزء من عمله كاللذين رآهما هناك؟ بشكل ما، شعر مع هذه الاستنتاجات بأن عمله الجديد قد يكون أفضل بكل الأحوال، فهو يبدو منعزلاً وبلا مسؤوليات دقيقة، ثم كونه متأخراً في الليل سيعني أنه هامشيٌّ وبعيدٌ عن عيون رؤساء مباشرين ولا توقعات لزيارة الرئيس أو غيره. على الرغم من كل هذه التطمينات أو التمنيات في ذاته، فإن قلبه لم يكف عن الانقباض كلما توجه إلى هناك، وصار يزداد انقباضا مع الأيام، تكاد أنفاسه تنقطع، خاصة بعد أن عرف ولمس بأن مهنته هي حفار قبور، دفن جثث معذبة مهشمة. ففي الليلة الأولى، في الساعة الثالثة ليلاً تقريباً. وقفت أمام باب بيت حراسته، سيارة إسعاف عسكرية ونزل منها جنديان، ألقيا عليه التحية، ثم ألقيا بجثتين على الأرض بعد أن سحباها من الباب الخلفي للإسعاف، وقالا له: أنت الجديد؟ حسنا، عليك أن تقوم بدفن هذه في أية بقعة من المساحات الموجودة هنا في المنطقة بين الأشجار، وليس مهماً كيف تدفنها، بالطول، بالعرض، وقوفاً أو على أي عمق، المهم هو

أن تدفنها وخلاص، دون أن تترك أثراً بارزاً على الأرض، يعني تساوي السطح كما كان، أو هكذا كما تراه الآن، فهي هكذا، فيها جثث أخرى مدفونة. مفهوم؟

- نعم سيدي.
- قل أستاذ، وليس سيدي، فسيدي تقولها للضباط فقط.
- نعم أستاذ.

وغادرا.

انقلبت حياة إبراهيم إلى أخرى أشد سوداوية وثقلا وحزنا. ابتداءً بتغيير مواقيت يومه وانقلاب ليله نهاراً للعمل ونهاره ليلاً للنوم، وإذا كان إبراهيم قليل الكلام أصلاً فقد صار كأخرس تماماً، فيخشى أن يفتح فمه بأية كلمة كي لا توحي بأي شكل عن طبيعة عمله، أو ما يراه ويسمعه أو حتى يفكر به، وصار يحيد بنظراته جانباً كي لا يقرأ أحدٌ فيها شيئاً أو لا يبصر هذا الخزي الذي يشعر به. كان نادراً ما يرى قسمة لاختلاف مواعيدهما، كما تجنب التعرف على أي شخص جديد وشدد من حرصه على تحاشي اللقاء بأحد، وإذا ما التقى صدفة مع جار في الزقاق أو مضطراً مع صاحب الدكان فإنه بالكاد يلفظ التحية كاملة أو يرد عليها بوضوح. كلماته ليست سوى همهمات غامضة تشير أكثر مما تفصح. صار أكثر عزلة وانطواء ووحدة. يغوص في نفسه أكثر دون أن يراها، مثلما صار من الندرة أن يراه أحد. كان يدفن نفسه في نفسه أعمق وقدر الإمكان كلما تزايد عدد الجثث التي يدفنها. تحولت ذاته إلى قبر لذاته، قبر لا يرى فيه إلا العتمة والسواد والحيرة دون إيجاد أي منجى أو منفذ لروحه منه.

في الأيام الأولى من عمله، أو الأصح، في الليالي الأولى، كان الرعب يشنجه وحيداً مع الجثث الدامية وسط غابات متسلطة بعلوها وكثافتها وشحة الأضواء، لكنه مع طول الوقت ألف المكان وصارت

دقات قلبه تستعيد انتظامها، تلاشى رجيف ذراعيه والساقين، وبات يحمل الجثث كأي كيس، يضعها في العربة اليدوية الصغيرة ثم يدفعها باحثاً عن ركن ما لدفنها، وما عاد يخاف التحديق بوجوه المقتولين وقراءتها ومعرفة كيف قُتِلَت مهما كانت تشوهاتها. تحولت هذه الجثث الليلية، هؤلاء القتلى إلى كونهم الغالبية من البشر في عالمه بحيث يشعر أحياناً بأنه واحد منهم. حتى السائق الذي يأتي به من بيته كان صامتاً مثله ولم يتبادلا أكثر من التحية، وأغلب المرات يكتفيان بهزة من الرأس أو نظرة أو لا شيء. يبدو أن هذا الرجل، هو الآخر، قد رأى أو عاش ما لا يرغب بالحديث عنه، فتوافقا هو وإبراهيم، شعور بالارتياح لعدم إزعاج أحدهما الآخر. كأنهما زوجان لعقود أو صديقان قديمان أو سجينان استنفدا كل الكلام. لم يسألا بعضهما حتى عن الاسم. كانت علاقة نادرة ومنسجمة بشكل كبير.

من النادر جداً أن تمر ليلة بلا أية جثة، والعدد يتراوح بين واحدة في الليلة إلى عشرين أحياناً. الجثث القتيلة بالرصاص يعرف بأنها لعسكريين فيما المشنوقة لمدنيين، هذه قاعدة عامة والشذوذ عنها أضحى قاعدة، إلا أن الذي تشترك فيه جميعها، هو العذاب قبل أن تفارقها الأرواح. كلها تعرضت لأساليب تعذيب قاسية بل ومبتكرة أحياناً. كان يصر مع نفسه على تخمينها بعد أن عرف المعتادة كالسياط والضرب والطعنات وشحنات الكهرباء والكيّ بأعقاب السجائر وغيرها. كان يرتب، قدر استطاعته، ما تبعثر من مزق هذه الجثث، يغلق العيون المفتوحة.. وكم قرأ في تلك العيون من تعابير، كأنه يسمعها تتحدث، بعضها جامد عند لحظة الذهول الأخيرة وهي ترى برعب قدوم الضربة الأخيرة التي يسددها القاتل، بعضها يحبس كلاما كثيرا فيما تفوقها أشواق بعض آخر، أشواق إلى أهل أو أبناء أو حتى فرصة للحديث أو جرعة ماء أو نشقة هواء. بعض الوجوه بدت كأنها سعيدة، كانت تشي

براحة عجيبة يندر أن تجد مثلها حتى في وجوه الأحياء، ربما لأن آخر تفكيرها كان أن هذا العذاب قد انتهى.

رأى جثثاً مذبوحة وأخرى ثقبها الرصاص كغربال فكانت تسربله بدمها الشاخب عليه حين يحملها. بعضها لم يجد فيها أكثر من طلقة واحدة في الرأس أو في القلب. الثقوب في جثث أخرى كانت بمثقاب (دريل)، ثقوب أخرى بالمسامير أو طعنات سيوف، رأى حروقاً بسجائر وغيرها، نتلاً بالكهرباء، خوزقة، بعضها قطعت أعضاؤها التناسلية، استلت أظافرها، قطعت ألسنتها، صلمت آذانها، جدعت أنوفها، كسرت أصابعها، نتف شعرها حياً وتورمت جلدة الرأس، عيون فُقِئت، جلود شرحت بخطوط ورسوم بشفرات حلاقة، أخرى سلخت حية... صار يخمن حجة القتل وفقاً لطرق التعذيب، فمن قطع لسانه لابد وأن فاه بشيء لايعجب الحكومة، ومن قطعت أُذُناه ربما سمع بشيء ضدها ولم يبلغ عنه، والذي قطعت أعضاؤه التناسلية فربما للأمر علاقة بالشرف أو الاعتداء عليه لفظاً أو فعلاً أو للإهانة طعناً في شجاعة أو رجولة أو للتحقيق. والذي كسرت أصابعه أو قطعت يده ربما سرق أو كتب شيئاً.. ولكن لماذا رأى بعضها قد ماتت منهوشة من قبل حيوانات ضارية ربما تكون أسوداً، نموراً، تماسيحَ أو حتى كلاباً.. تلك كان يرى فيما تبقى من ملامحها رعباً يستحيل وصفه.

كانت الأيام تمر بإبراهيم على هذا النحو، كأنه يعيش في عالم أو كوكب آخر. وحيداً متوحشاً لا يرى سوى الظلام واللحم والدم الآدمي الميت. أهمل حتى عد الأيام المارة ومتى تحين إجازته وكم تراكم من رصيده المالي. ذات مرة، ذات ليلة، فكر أن يترك هذا العمل، لأن أي شيء آخر سيكون أفضل منه، حتى وإن تحول إلى متسول أو شحاذ في شوارع العاصمة يدعو لمن يتصدق عليه، ولكنهم لن يدعوه يترك هذا العمل بإرادته، سيقتلونه حتماً، سيضيفونه إلى هذه الجثث ليطووا

صفحتهـا، يمحونَهـا بمحـو آخـر مـن رآها. إنـه لا يجد في نفـــه حتى الجـرأة علـى التصريـح بهذه الرغبة لهم، وهم الذين يقيـــون كل شـيء بكلمات فخمة لا يفهمها، تتعلق بالوطن الذي يُعْنى بالرئيس والعكس، كلمات كبيرة لا يعرف معانيها جيداً ولا تشعباتها، حسب تأويلاتهم لها كالخيانـة والشـرف والإبـاء والكرامة والوفاء والتخاذل والبـــالة والعزة والولاء والإخلال بالنظام وغيرها. المشكلة هي حتى أنه لا يمرض ومن الاسـتحالة عليه ادعاء المرض لأنهم سيفحصونَه وسيكشفونَه.. وعندها قد يحاكمونه بتهمة من تلك كالتخاذل أو الخيانة أو التآمر على الوطن.

راحـت ذاتـه تبلـور له معـادلاً معيناً، بالقول، إنـه على هذا النحو، يـؤدي دوراً مهمـاً بـل وإنسـانياً إن لم يكـن حيال الأحياء فهو في خدمة الأموات حتماً، إنه يقوم، قدر استطاعته، بدفن يليق بهذه الجثث، يرتب بقاياها يمددها ويدفنها بما يليق بكرامة إنسان ميت، يقرأ عليها القرآن في سره، وما إلى ذلك مما هو أبسط وآخر مكافأة يفترض تقديمها لإنسان بغض النظر عما كان عليه في حياته أو سبب وطريقة موته، فكم كانت تؤلمـه، عندمـا كان مزجوجاً بالحـروب، رؤية الجثث مهملة في أراضي المعـارك، متفخـة، متفسـخة هنـاك فـي العراء نهباً لكل شـيء، بما فيها جثـث الأعـداء. كان يفكـر بها، بأهل لها ينتظرون، ولا يحصلون سـوى علـى كلمـة مفقود جوابا، فيعيشـون عذابات أمـل الانتظار وكل أمورهم المتعلقة به معلقة. كان يوجعه منظر الجثث الآدمية التي تنهشها الذئاب والكلاب والأســماك والنسـور وشتى دواب البر والماء والفضاء. وحتى على هذه الأرض، في هذه الفسح السرية العلنية في المدينة وبين أشجار غريبة وتحت روث الحمير والإبل وبول الكلاب، كان يجد أحياناً، أثناء الحفر، جثثاً سابقة ألقيت كيفما كان من قبل دافنيها، رأسها إلى الأسفل أو علـى بطنهـا أو جالسـة أو مكـورة وأطرافهـا ملتفة أو مبعثرة. لابد أن الذي سـبقه هنا كان يحفر أية حفرة، ويلقيها فيها كيفما اتفق، ثم يهيل

عليها التراب. فكان إبراهيم يعيد دفنها، ولو كانت عظاما، بشكل يليق بإنسان ميت، ممدَّدة على ظهرها أو جنبها، مستقيمة والرأس مسندا على كومة تراب كوسادة، فكان يشعر بها وكأنها تتنهد براحة، كان يسمعها تشكره فيشعر بنسمة راحة خفية.

كان إبراهيم يتعذب.. ولا يزال، كونه لم يستطع فعل شيء لجثة صديقه أحمد النجفي لذا فهذه فرصة، أن يفعل شيئاً، أن يخفف وطأة تأنيب ضميره المتكررة بسبب ذلك. وسط هذه المكابدة وبحثاً عن مزيد من الشعور بنفحات الراحة تلك، تطور الأمر في تفكيره لأن يؤرشف لكل الجثث المجهولة، أن يسميها ويصفها ويعيّن مواقعها كي لاتبقى، إلى الأبد، مجرد مفقودة أو مجهولة مثل مئات رآها وآلاف سمع عنها في الحروب وفي مقابر جماعية. وهكذا تذكر ذلك الدفتر الأزرق الكبير الذي اشتراه ليكتب فيه رسائل إلى زوجته، فأخرجه حال عودته إلى البيت، مغلقاً على نفسه باب حجرته ومنبطحا على السرير، راح يتذكر كل الجثث التي دفنها منذ البداية، محاولاً تحديد مواقع وتواريخ دفنها، وعلى هذا النحو استعاد معرفة حسابه للتواريخ والأيام وصار يعرف أين هو منها، في أي زمن هو، كان يكتفي بتدوين أبرز صفات الجثة: تقدير العمر مثلاً، علامات فارقة ما، كشامة في خد، حجم الأنف، شكل الأذنين، وشم في ذراع، صلع، الطول بالقدم، قدمه هو، شيب في شعر، أصابع متراكبة في قدم.. وإن لم يجد شيئاً متميزاً وصف الملابس، فأغلب المقتولين كانوا بملابسهم الخاصة. رسم خرائط لتلك الفسح محدداً مواقعها نسبة إلى جهتها ومدى بعدها عن ذلك التل الصناعي الرناسي، وأشار فيها إلى موضع دفن كل جثة بدقة، العديد منها كانت لها اسماء يعرفها، لأن منها لوزراء ومسؤولين وعسكريين ومشاهير عرفهم من خلال التلفاز، ود لو كانت من بينها جثة الموسيقي نبيل، لكنه لم يرها، فربما أخذوها إلى مكان آخر، أو ربما تركوها طعماً

للتماسيح المجلوبة من أفريقيا ولأسماك وأفاعي الماء السمينة.

كان يحافظ على سرية هذا الدفتر حتى مع نفسه أحيانا، فيضع إشارات خاصة تقوده للوصول إلى المكان الذي يخبئه فيه. اشترى دفاتر أخرى، ومع الوقت اضطر لشراء المزيد منها، أغلفتها مختلفة الألوان والذي يتكرر لونه يرقمه بالتسلسل. كان يخلق لوحده عالماً متكاملاً، منفصلاً عن العالم الخارجي ويكرس انغماسه فيه، وتطور هذا الانشغال به، ساعده على عدم الانشغال بالتفكير والتأمل والتذكر الذي يتعبه أكثر.

لاحقاً، وكحل لأرشفة الجثث التي لم يجد فيها علامة فارقة خاصة بسبب تشوهها الكامل، صار يجلب منها شيئاً صغيراً، كزر قميص، ساعة، خاتم، أو أية قطعة صغيرة من بنطلون أو قميص، أحيناً قطعة من الجسد نفسه، ظُفر متدلي، خصلة شعر مقلوعة بجلدة رأس صغيرة معها، يضعها في أكياس صغيرة مع قصاصات مرقمة تتوافق مع أرقام في الدفاتر تضم ما دَوَّنه عنها من معلومات أخرى، كالتاريخ، مكان الدفن، أوصاف الجثة، ملابسها، ما تعرضت له من تعذيب.. ثم ترتيب هذه القطع الصغيرة في علب أحذية كارتونية، أو أية صناديق أخرى تأتي مع المشتريات، وكان أفضل ما يمكنه العثور عليه هو الذي في جيوب بعضهم، بطاقة ما، قصاصة ورقية كأن تكون روشيتة من طبيب، وصل دفع ضريبة، فاتورة ماء أو كهرباء.. فهذه كانت توفر عليه كل وصف باستثناء تدوين تاريخ الدفن ومكانه.

- 23 -

عرس نسمة

استغراق إبراهيم في عالمه الذي خلقه لنفسه على هامش عالم الأحياء وعلى أنقاض قسوتهم، أبعده بالتدريج عما يشغل الأحياء. يشعر بأنه صار يتفاهم ويتعايش مع الموتى بشكل أفضل، ينتمي إلى عالمهم أكثر، فهم لا يخدعونك، لا يكذبون عليك، لا يخفون عنك شيئاً، لا مصلحة لهم عندك، لا نوايا غامضة، لا احتيال، لا ألاعيب، لا يطالبونك بشيء، لا يفرضون عليك شيئاً، مسالمون، إن احترمتهم شكروك، وإن أهملتهم لن يعاتبوك. تكرس سلوك الصمت لديه كأداة رئيسية للتفاهم، بما في ذلك مع ابنته قسمة، ففي المرات القليلة التي كانا يلتقيان فيها في الصالة أو المطبخ صباحاً قبل خروجها أو مساءً قبل خروجه، صارا مُقلَّيْنِ حتى في تبادل التحيات ويعرف كل منهما خطوات الآخر أين ستتجه، سواء أكانت إلى المطبخ أو الحمام أو التلفاز أو خروجاً، فيما يشكل كل منهما عالمه الخاص المفصول في غرفته التي لا يدخلها الآخر ولا يخطر بباله ولا يحتاج لفعله. هذا السلام والتضارب بالتوقيت زاد من انفصالهما، فاكتفى إبراهيم بالإبقاء على ذكرى أنها كانت ابنته، طفلته أكثر من كونها مجسدة في امرأة غريبة أمامه، فالتي يراها وتسكن في الغرفة المجاورة هي شخص آخر، أو جل ما تقدمه له هو أن ملامحها تشبه زوجته، صورة حية في الوجه والهيئة لأمها، لذا فهي، على أية حال، أفضل من الاكتفاء بصورة فوتوغرافية معلقة في جدار.

شكل هذا الصمت، هذا الانفصال والاستقلال نوعاً من التعايش أكثر سلاماً، يحتاجه كل منهما ليكرس المزيد من نفسه لعالمه الآخر الذي

أوجده لنفسه... حتى المال، كان يتركه لها شهرياً، في مظروف، على طاولة التلفاز. وهي بدورها، عند قيامها بالتسوق، تعرف ما يحتاجه، وهو بسيط، لا يتغير، ولا يتعدى أصنافا متكررة من الطعام والشراب يأتي في مقدمتها الشاي.. فهو لا يكاد يشتري ملابسَ أو ما سواها مما يستهلك الناس.

شكلت قسمة عالمها كما تريد، بلا تدخلات أو مضايقات أو نقد. رتبته وفق هواها.. أو هذا ما تعتقده على الأقل. تعرفت على ضابط، شقيق إحدى صديقاتها في المعهد، وكانت تخرج معه إلى حيث يشاء أو إلى حيث شاءت، تؤدي ما تؤديه أو تعيشه بقية الشابات في عمرها ومحيطها، علاقة حب وشرب عصير في زوايا المقاهي، تبادل الأغاني والنظرات الرومانسية، لمسات أيدي، كلمات حلوة مكررة، تحرشات تسخن الشهوة، مواعيد، زعل، تراضي، استعراض تباهٍ أمام الزميلات، أحلام وأحلام وكلام كثير، كلام كثير كأي كلام بين ذكر وأنثى يتفقان على أنهما يحبان بعضهما. كان يشبهها في طموحاته، بل يفوقها، وهي تعزز هذه الطموحات فيه، يحب المظاهر، أو الوجاهة كما يفضلان تسميتها. يرتدي البذلة الزيتونية ويحمل المسدس في الخاصرة والنجوم على كتفيه، سيارة آخر موديل، التبختر في المشي، التعطر، المزيد من العطور، ماركات، أغلاها، ساعة ذهبية أو سلسلة ذهبية في الرقبة على الأقل، رشاقة، عناية دائمة بحلق الذقن وتشذيب الشاربين وتلميع الحذاء، دقة في المواعيد وهاجس التخطيط بما في ذلك لجدولة ساعات اليوم الواحد. أحلام بمزيد من المال والجاه والسلطة، ثقة كبيرة بالنفس وبالذكورة وصلابة الواقع، أصدقاء مداحون. هو ضابط ضمن قوات الحرس الجمهوري، ضمن طاقم الحماية، قال لها إنه في حماية السيد الرئيس، وقالت له إن والدها أيضاً يعمل قريباً من السيد الرئيس. لم يخبرها بالطبع ضمن أي حزام أو طوق في قوات الحماية التي تصل إلى سبعة حلقات أو تزيد أحياناً وفق ما يشير به العرافون لسيادته، ولكن

هذا لا يهم قسمة كثيراً بقدر ما هَمها توافقهما على أن يُصبحا من عليّة القوم مالاً وجاهاً ويمكنهما شراء ما يشاءان. لذا فهي أيضا لم تخبره بالعمل الحقيقي لوالدها كبستاني في حدائق القصور الرئاسية، مادامت هي نفسها لم تهتم بمعرفته وتدرك أن والدها لن يكون، في كل الأحوال، إلا في الهامش التابع وتحت أوامر آخرين.

حدثها ضابطها كثيراً عن إعجابه الشديد بشخصية السيد الرئيس، بشخصيته، برجولته، بقوته، بصلابته وحكمته وذكائه في تسخير الواقع والبلد كله بناسه وحيواناته ونباتاته وأراضيه وثرواته ومائه وهوائه وكل أشيائه لصالحه. لذا كان يقتدي ويتشبه به في كل شيء، مظهراً وجوهراً، صورة وصوتاً، حركات وسكوناً، تأييداً أو معاداة، وفي أسلوب التفكير والطرح. حتى يبدو وكأنه نسخة منه، لا ينقصه إلا أن تُمنَح له السلطة، ولكن منافسيه كانوا أكثر وأقوى، لأن أمثاله تكاثروا في تلك الفترة بشكل طاغ، وكانت الحكومة تكرس تلك الموضة، الموديل، النموذج بكل الوسائل.. وكأنها تسعى لأن يكون الجميع صوراً أخرى للزعيم الأوحد، للقائد الضرورة، المثال لكل شيء.

عدا الكلمات المعزولة، المتكررة، الخاصة بتبادل التحيات والسؤال عن موضع الملح، البهارات أو السكر في المطبخ، أو نقصان حاجة، التنبيه لعطل، إصلاح زر كهربائي أو مقبض باب، لم يتبادلا الكلام على مدى أشهر إلا مرتين تقريباً، أو في الواقع هي التي تحدثت وهو الذي أصغى، في الأولى أخبرته، شاكية من رائحة متعفنة تنبعث من غرفته وعليه ألا يهمل تنظيفها، ثم خرجت متأففة وانتبه إبراهيم، لأول مرة إلى هذه الرائحة، ربما لأنه قد اعتاد على الروائح العطنة في الجثث حيث اختلاط الدم بالبول والغائط وتعفن اللحم منها لطول فترات الحبس والتعذيب، كذلك لأن أراضي المساحات التي يدفن فيها كانت ممنوعة من التنظيف فغطاها الروث. خرج إبراهيم من البيت ودخل عدة مرات،

وهو يتشمم بجدية كلب بوليسي، ومن ثم إلى غرفته لأكثر من مرة حتى تمكن من تمييز الرائحة، وبالفعل استطاع الاقتراب من مصدرها وصولاً إليها. فوجد أنها بقايا قطع اللحم الصغيرة جداً في الأظافر وجلد الشعر وبعض قطع الثياب قد تعفنت. سارع إلى تنظيف ما ارتأى أنه كاف، ومن دفن، ما لاحل له، في الحديقة، مبقياً فقط، على ما هو جاف وغير قابل للتعفن من أرشيفه، أرشيف هويات الموتى. أعاد تنظيف الغرفة وترتيبها، بل وفتح الشباك والباب لنهار كامل، ثم رش العطر فيها يومياً من الزجاجة الأخيرة من عطور زوجته.

أما المرة الثانية، فهي التي أخبرته فيها، بأنها تعرف رجلاً وتحبه، أخ لصديقة لها في المعهد، وبأنه سيأتي لخطبتها مساء الجمعة القادمة وعلى أبيها أن يكون موجوداً، وألا يعترض. هكذا دفعة واحدة. ثم أكدت عليه أن يكون أنيقاً ومهذباً ومرحباً وموافقاً، وإلا فهي ماضية في فعل ما تريد والزواج من هذا الرجل حتى بدون موافقته. حينها لم يقل إبراهيم شيئاً سوى أن سألها عن عمرها، فأخبرته أنها قد تجاوزت العشرين عاماً، فابتسما لبعضهما، ولكل واعزه المختلف بالابتسام.

في اليوم التالي اشترت له قميصاً، حذاء وربطة عنق وبذلة جديدة، لأنها تعرف بأنه سيرتدي بذلته الوحيدة تلك التي لم يعد فصالها متماشياً مع موضة هذه الأيام، كما صار قماشها قديماً. أمضيا نهار الخميس معاً في تنظيف البيت، إعادة ترتيب آثاثه البسيطة والتسوق. حلق شعره عند حلاق لأول مرة، فهو قد اعتاد على حلقه بنفسه دائماً، أما صباح الجمعة فأمضياه في إعداد مائدة خاصة ومتنوعة من مشويات وعصائر وفواكه وحلوى، ومن ثم التدرب على ارتداء الثياب الجديدة، وكل منهما يطلب رأي الآخر وملاحظاته. تلك السويعات كانت أجمل ما أمضاه إبراهيم مع قسمته، وأقرب ما يكون إليها. كان يشعر بنفسه طفلاً وهي أمه، ترتيبها لملابسه، تمشيط شعره، تعديل ربطة العنق، كيفية الجلوس على

كنبة بحضور ضيوف خاصين.. شعر بأنه نشوانُ كصبي، يلتذ بعناية أمه ورضاه عن نفسه لشعوره برضاها عنه، أو لكونه ولداً مطيعاً يسره أن طاعته لها تريحها. كان يحس بكل لمسة منها كزخة مطر من حنان. قالت له بأنها قد قالت للذي سيصبح زوجها بأن أباها هو الآخر ذو مكانة مهمة ووظيفة خاصة في القصور الرئاسية، في الإشراف على إدارة حدائق الرئيس. وفي لحظة اختارتها هي وسط الاستعدادات أخبرت أباها، كي لايتفاجأ، بأنها قد اختارت لنفسها اسماً؛ "نسمَة" وليس "قسمَة"، وهكذا يناديها كل من عرفها وعرفته منذ قدومهم إلى بغداد.

طالبت والدها بالتصرف على هذا النحو الذي حدثت زوج المستقبل عنه، مؤكدة له بشكل ما، أنك كذلك فعلاً، لكنك أنت الذي يقلل من هذا الشأن ولا تعرف كيف تستغله وتتباهى به كالآخرين، قالت له إن هذه النقطة مهمة لها ولمستقبلها مع الذي سيصبح زوجها لأنه سيعاملها باحترام أكبر، وربما حتى بنوع من الخشية.. أو على الأقل بالمساواة، وليس كمجرد ابنة فلاح وجندي سابق قادم إلى العاصمة من قرية نائية. إنها تريد إعطاءَ هالةٍ وغموضٍ ما لوظيفة أبيها مثلما علمتها اللعبة الاجتماعية، ومثلما يفعل ضابطها، بغض النظر عن طبيعة عمل أبيها الحقيقية، فهي قد اعتادت حد اليأس من أنه سيتحدث عن شيء، هو هكذا؛ رفيق الصمت والانقياد، العاجز عن التعبير منذ أن عرفته أول تفتح وعيها.

حرص إبراهيم على تذكر كل ما أوصته به، وركز انتباهه على أدائه بدقة، كما أرادت. جاء الشاب ببذلته الزيتونية ونجمتيه كملازم أول، معه والداه بثياب بغدادية شعبية أنيقة. استقبلهم في الباب مرحباً وقادهم إلى الصالون. الجميع كرروا الكلمات التقليدية المكررة في مناسبات كهذه كأنهم يؤدون أدواراً محفوظة في نص مسرحي، فترددت كلمات كالشرف والعز والأمانة والخير والسعادة، إنه لشرف لنا طلب يد ابنتك، نعد بأن تلقى العز والسعادة في عيشها معنا، ستكون في أيْدٍ أمينة.. وما

إلى ذلك. كرر الشاب ذكره بأنه في حماية الرئيس، وطبعا، دون الإشارة إلى أي طوق من الأطواق السبعة.. أو السبعين ينتمي.

إبراهيم معتاد على هؤلاء الضباط صغارهم وكبارهم. متشابهون، ويسعون دائما لتكريس التشابه، كلامهم الجامد التقليدي حين يقولونه بزهو وكأنهم هم الذين انتقوه وصاغوه. لم ير فيه ما يميزه عن ضباط آخرين حتى أوشك أن يخاطبه "سيدي" أحيانا بحكم العادة، لولا تركيزه الشديد على تذكر ما أوصته به قسمة. قال الضابط، بالزهو نفسه، إنه يريد إقامة العرس في الجمعة القادمة لأنه رجل عملي، وكل شيء جاهز ولا ضرورة أو معنى لإضاعة مزيد من الوقت في فترة خطوبة وما إلى ذلك، ووالداه يهزان رأسيهما تأييدا له.

بعد مغادرتهم.. وحتى ليلة العرس التي أقيمت في فندق الشيراتون وسط بغداد، بالكاد رأى إبراهيم قسمة، وحتى ليلة العرس الصاخبة التي أذهلته ببذخها من شراب وطعام ومدعوين بثياب لامعة وعطور وفرقة موسيقية وراقصات. لم يجد وقتاً كافياً لتأملها بثياب العرس. كان الكل يصافح الكل، والكل يضحك أو يأكل أو يشرب أو يرقص ويتحرك هنا وهناك، حشد كبير من الناس الدمى، عالم آخر لاعلاقة له بعالم الأموات ولا حتى بعالم الأحياء العاديين في الشوارع والبؤس والفقر الذي تنطق به حتى حيطان الأبنية. شيء كالحلم، كاللعب، مضخم بمزيج العطور الزاكمة والشبع والمجاملات. كأنه لا وجود لشيء اسمه موت، ولا وجود لشيء اسمه غيرهم، أو أي عالم آخر مختلف خارج هذه القاعة. شعر إبراهيم بغربته هنا أكثر، وظل يراقب المشهد من كرسي بعيد، يسترق النظر من بين انفرجات الواقفين كي يرى قسمته التي صارت منذ الآن قسمة غيره. كانت تبدو له وكأنها امرأة أخرى، كأنه لا يعرفها، ملونة الوجه والذراعين، متلامعة في ثياب عريضة بيضاء وتاج ذهبي اللون وبياض، بياض كالكفن. كانت مبتسمة

وسعيدة ومنسجمة حيث هي بحيث إنه لا يستطيع الربط بينها وبين تلك الطفلة التي أنجبها في بيتهم الطيني وحملها على كتفيه، أو على ظهر الحمار إلى الحقول لتلعب قربه بطين السواقي. هذه أول وآخر مرة يدخل فيها إبراهيم فندقاً فخماً كهذا، طالما رآه في الإعلانات وسمع عنه ولم يره إلا من خارجه، بناية شاهقة من بعيد طالما تخيل ساكنيها في تلك الليالي التي نام فيها جندياً في الساحات، لاتعني له شيئاً وإنما تخص آخرين أعلى منه، كما أنه لم يحضر حفلاً كهذا في حياته، صفحة مختلفة تماماً، لذا ما أن عاد إلى بيته في آخر الليل حتى سارع إلى طَيِّها، إلى نسيانها لأنها لا تتوافق مع أية صفحة أخرى من صفحات عمره، شيء خارج عنه، عابر فيه، لايعنيه، واكتفى باستعادة آخر ما قالته له قسمة أو نسمة قبل أن تحملها قافلة من السيارات في المساء، قالت: اعتنِ بنفسك، وأي شيء تحتاج إليه أبلغني به. يبدو أنها قالتها هكذا كما يقولها الجميع كمجاملة، دون قصد ودون التفكير بها، وإلا فهي لم تخبره كيف سيفعل، لم تعطه عنوانَ بيت لها، ولا رقم هاتف... وبرر أنها حتماً قد نسيت وسط ازدحامها بتفاصيل عرسها، لكنها، أيضاً، لم تفعل ذلك في الأيام اللاحقة!

تمنى في آخر لقاء لهما لو أنه احتضنها، ضمها إلى صدره، قبل جبينها أو كفها أو أنها هي قد فعلت شيئاً من هذا القبيل، وظل يبرر لها، ربما نسيت لانشغالها أو أنها خشيت على بعثرة ترتيبها للثياب والماكياج وصفة الشَعر، برر لها ودفن أمنيته تلك في مقبرة ما، لا حصر له من أمانيه الميتة التي اضطر لدفنها في أعماقه تباعاً.

غابت عنه ولم تأت لزيارته، واكتفت بالاتصال هاتفياً بعد شهر، تبادلت معه التحيات العادية، وغابت. غابت قسمة وعاد إبراهيم إلى وحدته، إلى عالمه مع الموتى والأرشفة لهم. بل إنه شعر بالتحرر نوعاً ما والتفرغ والاندماج أكثر مع عالمه الوحيد الذي كونه بنفسه لنفسه في غرفته ومن ثم بعموم البيت مستغلاً زوايا جديدة فيه للأرشفة ووضع العلامات.

- 24 -

آكلو الورد

الإنســان، ربما هو الكائن الوحيد القادر على التكيف والعيش في شـتى الأماكن والظروف، فيما تموت كائنات القطب الشـمالي لو نُقلت إلـى الصحـراء والعكس. إبراهيم عايش الصحراء والجبال والحر والبرد والحـزن والخـوف والفـرح، عـاش ظروفاً متناقضة وفـي أقصاها، وكان كل ذلـك مفروضـاً عليـه، لا يتذكـر أنـه اتخذ قراراً باختيـاره، برغبته أو بإرادته، تلك التي كانت تطالبه قـسمة بتفعيلها، فلم يمنحوا له فرصة أن يختار أو يريد أبداً، لذا اعتاد على تكييف نفسه، وها هو الآن يعتاد على وظيفته حفَّارَ قبور، بل صار محترفاً لها وترسخت ثقة رؤسائه به، وهو بدوره لم يعد لديه شيء سواها يفعله، كما أنه لا يستطيع الفكاك منها. وكانت مســألة الأرشـفة السـرية للمدفونين هي مبادرته الذاتية الوحيدة، التي يفعلها بمحض إرادته، بل وضد رغبة رؤسائه، دون شك، لكنه لا يسـتطيع البـوح بهـا لأحـد، بل إن كتمانها يتطلـب منه المزيد من الجهد والحذر، لذا لا معنى لإرادته هذه التي لم ولنْ تراها قـسمة مثلاً، لكنها علـى أيـة حـال، إرادتـه هو، عالمه، وفيها راحة لضميره يشـعر معها بأنه يقوم بشيء ما وأن فيه منفعة لأحد ما. راح يطورها مستثمرا وحدته في البيـت وتحـرره مـن كل التـزام مـع أي أحد تقريباً، فقـام لاحقاً باختراع رموز وأشكال جديدة في كتابة الحروف، صف كل الحروف على جانب ورقة، واخترع مقابلها شكلاً آخر لكل منها، اخترع كتابة جديدة، ألفباء مُبتكرة.. وإن كانت تتحدث اللغة نفسها، ثم أجرى التمارين الكثيرة على تذكر كتابة هذه الحروف إلى أن حفظها وأتقنها، وكان دافعه أمرين: مزيد

من الكتمان والحيطة فيما لو وقعت بيد أحد، وللإسهاب أكثر بالوصف وذِكر التفاصيل دون مزيد من التلميحات والرموز التي قد ينساها مع مرور الوقت، والتي وجدها عاجزة عن وصف ما شهده أحياناً وأراد تسجيله، فمهما ظن بأنه قد خبر كل أساليب التعذيب والقتل الممكنة، كانت تفاجئه جثة ما بما تعرضت له. إنهم يبتكرون ويتفننون في التعذيب بشكل يفوق ما يمكن تخيله أحياناً، فكان يتساءل هو عن سر ذلك وعن معناه متذكراً ومتفهماً الآن أكثر تساؤلات عبدلله كافكا. هل ثمة من يستمتع بالتعذيب؟ ولماذا يبذلون الجهد والمال والوقت الكثير في استحداث كل هذه الآلام والعذابات مادامت الغاية أو النهاية هي التخلص من شخص، تغييبه وقتله، لماذا لا يقتلونه وكفى؟! لم يستطع إيجاد إجابة منطقية لذلك، فكان كعادته يؤول الأمور بأن لكل شؤونه وحتماً أن ثمة أشياء كثيرة في الناس وفي العالم لا يعرفها ولن يفهمها أبداً... لكل مخلوق وشيء دوره في هذا الكون.. هكذا هو الأمر، هكذا هي الأمور أو هكذا هي الحياة!.. كما كان يردد جندي رافقه لفترة في إحدى جبهات الحرب.. حتى قُتل، فسأل إبراهيم غيابه، في سره.. وهل هكذا هو الموت أيضاً يا عزيز؟!

حين أعاد إبراهيم الكتابة برموزه الكتابية الجديدة كل السجلات التي سبق تسجيلها، استغرق ذلك منه شهراً كاملاً وشراء أضعاف الدفاتر، واكتشف أنه قد دون معلومات عما يفوق الألفي جثة، نسبة النساء فيها لم تتجاوز العشرة بالمائة، وأنها كانت من مختلف الأعمار، من أطفال في سن العاشرة إلى رجال تجاوزوا الثمانين عاماً. ومن بين الذين دفنهم أناس معروفون، إلا أنه لم يكن قد عرف أحداً منهم بشكل شخصي إلا الشاب سعد، الذي كان مسؤوله الأول في هذه الحدائق وهو الذي زكاه لهذه الوظيفة. كان التعرف على جثته سهلاً، لأنهم لم يعذبوه كثيراً هو والجثث التي رافقت جثته، وهي لثلاثة آخرين بعمره

ويرتدون البذلات الزيتونية ذاتها. كانوا متفخين بعض الشيء مع أنهم جثثٌ جديدة، لكنهم ممتلؤون بالشراب ورائحة الكحول المنبعثة منهم تطغي على أية رائحة أخرى، يبدوا بأنهم قد أُجبِروا على شرب كميات هائلة منه، لأن بطونهم المنتفخة كانت تُبقبق بالسائل كلما حركهم، ثم شُنِقُوا بحبال عادية بقيت خيوطها ملتصقة برقابهم. أقام لهم دفناً خاصاً كاملا، لأنها الجثث الوحيدة التي وصلته سليمة، وقرأ الفاتحة على أرواحهم دون أن يتوقف طويلاً للتفكير فيما إذا كان ذلك جائز دينياً أم لا وخاصة أنهم سيذهبون إلى الآخرة ببطون وشرايين مليئة بالخمور. لكنه تساءل في نفسه، ترى هل سيبلغ هذا الخبر، بشكل ما، لأم سعد وأخته، كي لا تَبْقَيا بانتظاره، فَتَشْقَيان وتذلان بالسؤال ودفع الرشاوى في رحلة بحث عنه لن توصلهن إلى أية نتيجة؟! فلم يتمكن من الإجابة واكتفى بالتفكير بأنه ربما، من حسن حظه، أن سعداً لم يخبره بأي شيء عن عنوان سكن أو معلومات يمكنها أن تقود إلى أهله، فعلى هذا النحو ليس أمام إبراهيم ما يستطيع فعله أو ما سيعذب ضميره.

ذات ليلة ماطرة، أمطروه بسبعة عشر جثة وبعد ساعتين أتوه بِتِسْعِ جثثٍ أخرى فوقف أمامهم وكل ما فيه ينطق بالشكوى، كان مسربلاً بالطين والروث والدم والمطر.. وفي إحدى كفيه المصباح اليدوي وفي الأخرى قدمه الصناعية التي تحولت إلى كتلة متورمة بما التصق بها من طين وعشب، خلعها لأنها كانت تغوص في الأرض كلما داس عليها. بان أهْرَمَ وشكله مزرياً، يائساً يثير شفقة حتى الأشجار والحجر والأمطار. وبعد أن تأملاه قليلاً، قالا له بنبرة مؤازرة: لابأس، تدبر الأمر كيفما كان الآن، سنبلغ المسؤولين، وسيبعثون لك من يعينك في أقرب وقت. في تلك المرة تأخر حتى الفجر ثم عاد إلى بيت الحراسة والأدوات، على الرغم من أنه كان أبعد من قبل بعد أن اضطر للدفن في مساحات أخرى، جميعها في غابة الأشجار العالية الخشنة غير المثمرة

التي تحيط بالتلة الصناعية ذات الشلالات الرفيعة والقصر اللامع بشرفاته كالتاج على رأسه. وما أن جلس على الكرسي، لالتقاط أنفاسه، منهكاً ودون اغتسال، حتى غفا من فوره وغط في نوم عميق.

لم يستيقظ إلا ظهراً، تلفت حوله فواجهته صورة الرئيس. نهض حالاً واتجه إلى الحمام. اغتسل، وقف طويلاً تحت الماء مفرغاً ذهنه من كل شيء. كان يوازي بين تنظيفه لجسده ولذهنه، حتى شعر بالراحة وبرغبة أخرى للنوم. بعد أن ارتدى ملابسه العادية، جلس على الكرسي مجدداً وفكر بأنه لم يعد أمامه سوى أن يبقى هنا حتى الفجر القادم. لكنه كان يشعر بجوع شديد وليس لديه سوى قناني الماء فنهض وأطل من الباب. كانت السماء صافية والطقس بديعاً.

رأى قطعان الحميرِ والإبل تحتل المساحة بطمأنينة تحت الشمس الدافئة، والراعيْن يجلسان قربها، في يد كل منهما عصاه ويتحدثان، فيما تجمعت الكلاب هناك، في الطرف القصي. مشى صوب الراعيَّن اللذين كانا يرتديان الدشاديش ويلفان رأسيهما بالبشامغ، وحين دنا منهما وانتبها إليه، نهضا. ألقى عليهما السلام وطالبهما بمعاودة الجلوس فجلسا، وجلس معهما على جذع شجرة كبير ملقى هناك، يعرفه جيداً وما أكثر ما استراح عليه في ليالي حفر قبور جواره وتحته. ما أن قال لهما بأنه جائعن وليس لديه طعام حتى انفرجت أساريرهما واطمأنا فأصبحا طبيعيين بلا أي ارتباك أو توتر، وراح أحدهما يسحب من كيس/ حقيبة قماش جواره قطعاً من الخبز والجبن ورأس بصل وحبات خيار وطماطم، وهب الآخر حاملاً طاسة ليأتيه بالحليب من أقرب ناقة.

وجدهما بسيطين، طيبين، عفويين، فلاحين حقيقيين أكثر منه، فهو قد لوثت أصالته، كفلاح، تقلبات حياته وتنقلاته بعيدا عن قريته والحقول. ثم توصل سريعاً إلى أنهما بدوِيَّان أكثر من كونهما فلاحين. كانت حركاتهما، وملامحهما ولهجتهما تفصح عن ذلك بجلاء.

شعر معهما بألفة سريعة، بحميمية إنسانية كان قد افتقدها، منذ وقت طال، لم يجالس فيه أحداً ولم يتبادل الكلام. عفويتهما أيقظت فيه الحاجة لأن يكون عفوياً ولو للحظات، ثمة عدوى بذلك، فاستجاب لهذه الرغبة وخاصة بعد أن رأى أحدهما يفرم له رأس البصل على ركبته بضربة واحدة بقبضته ويقدمه له.

أخبراه أنهما شقيقان، توأم، أصلهما من البادية، ويعملان في رعاية "حلال الريس" أي حيوانات الرئيس، منذ أعوام وفي أماكن عدة. والدهما يقوم بهذا العمل منذ أن كان بعمرهما، هو الآن يرعى قطعان أكبر قرب بحيرة الحبانية، وهو الذي توسط لتعيينهما. لهما أخ آخر وأولاد عمومة يرعون في مدن أخرى، قصوراً، حدائقَ أو فلوات أخرى، حيوانات أخرى منها أغنام، ماعزاً، أبقاراً وغزلان. أخبراه أن هذا العمل أراح عائلتهما من التنقل وراء الكلأ سابقاً، لذا صارت لديهم بيوتٌ الآن، هي قصور على أطراف مدينة الحضر. هذا أخي، اسمه فهد وأنا اسمي جدعان أما أخونا الأكبر فاسمه طارق، وهنا خطر في ذهن إبراهيم البدوي جدعان الذي كان يقيم في القرية شهراً في كل عام، بعد موسم الحصاد، وابنته فهدة التي أقام طارق معها قصة حب مغامرة، فسألهم عن سيد اسمه جدعان وذكر ما تذكر من مواصفاته. قالا له؛ إنه جدهما وهما أبناء ابنته فهدة وهي التي أطلقت علينا هذه الأسماء، أما عن جدهما فقد توفي منذ أعوام.

أخبراه أنهما لم يذهبا إلى المدرسة أبدا، وأن الرئيس يحب والدهما ويحبهما وهما يحبانه جداً، يريان فيه رمزاً لكل معاني الرجولة والأصالة: إنه مثلنا يا ابن العم، من الريف والبادية ومثلنا يحب الحيوانات أكثر من بعض الأوادم، ليس أفندي من أبناء المدن المزيفين. أترى بيته، ذلك الذي في أعلى التل؟ كثيراً ما يترك أشغاله ويأتي للجلوس هناك لساعات ليستمتع بالنظر إلى قطعان الدواب من

حوله، وأحياناً ينزل إلينا ويركب معنا البعران أو يحلبها أو نركب الحمير ونتسابق ونضحك، ولا يزعل منا حين نسبقه. يحب حليب النوق وأكل لحم الغزال. كانا يخاطبان إبراهيم "يا ابن العم" وحين يتحدثان عن الرئيس يقولان السيد "الريس" أو "الغايد" أي: القائد، ويضيفان عبارات مثل: "الله يحفظه" أو "أطال الله عمره". كانا صادقين عفويين بحيث يصعب الشك ببساطتهما أو باعتقادهما حقاً بما يقولانه. فكر إبراهيم بأنهما والرئيس فقط يستطيعان قول وفعل ما يفكرون به بكل حرية، أما بقية الملايين في هذا البلد الملغوم بالخوف والشك، فالكل مشبع بالحذر وعدم الثقة يسري في الدماء. أما عن تمتع الرئيس بالنظر إلى الحمير والبعران والكلاب سارحة هنا فوق جثث ضحاياه فلم يطرأ على باله لحظتها أن هذا السلوك هو إمعانٌ في إذلال وإهانة مخالفيه حتى بعد موتهم والتذاذه بنهايتهم على هذا النحو، أن يكونوا مجهولي المصير لذويهم ومعارفهم، مدفونين كيفما كان، بلا قبور ولا شواهد أو أي شيء.. كأنهم لاشيء أبداً، كأنهم لم يكونوا، وفوقهم روث الحمير والإبل وبول الكلاب، كل ذلك فسره له عبدالله كافكا لاحقاً حين عاد إلى القرية وأخبره بما رأى وعايش.

سأله البدويان عن عمله، فلم يقل لهما أنه دفان جثث هنا تحت أقدامهم وإنما ذكر لهما عمله الأول: العناية بالورد. فعلقا بجدية: أووووه أتعرف يا ابن العم؟ بالنسبة لنا إن عملك أصعب من عملنا بكثير. فسألهما لماذا، وقالا له: إنها ورود وأحراش كثيرة الأنواع وغريبة الأشكال، لم نر مثلها في حياتنا في كل البراري التي عرفناها. سيصعب علينا معرفة هذه من تلك، واسم هذه من تلك، وكيف التعامل معها، أما هذه الدواب فنعرفها واحدةً واحدةً كما نعرف أنفسنا. هل تعرفها أنت كلها، فأجابهما صادقاً: أبداً، أنا مثلكما، فلاح بسيط وابن قرية ولم أر مثلها في حياتي، ولكنني أفعل ما بوسعي وكفى. فقال له أحدهما:

أتعرف يا ابن العم؟ لو أنهم كلفونا نحن برعايتها لأكلناها والله. وهنا ضحك الثلاثة دفعة واحدة حتى جفلت من قوة قهقهتهم الحمير القريبة. وعقب الآخر: أي والله يا ابن العم، فنحن في ديارنا نعرف كل النباتات هناك، ونعرف ما يؤكل منها وما لا يؤكل.. أما هذه!! نقسم لك، كلما مررنا جوارها ورأيناها بكل هذه الحلاوة والأحجام ريانة مثل خدود الصبايا، سال لعابنا، لكن المشكلة أننا لا نعرف ما الذي يؤكل منها وما الذي لا يؤكل، ثم راحا يقرآن أشعاراً بدوية عن الورد والنساء والحب ويغنيان أحياناً.

سألهما عن تجمع الكلاب هناك، فنفضا أيديهما بلا اكتراث قائلين: تلك الكلاب يرعاها كلب مثلها. وحين وجداه لم يفهم، أشارا له إلى شخص، لم يكن قد رآه من قبل، كان يزحف بينها على أطرافه الأربعة ويحتك ببعض الكلاب، يعيش معها كأنه منها. قالا له، إنهما يعرفانه مذ جاء إلى هنا، ولكنه لا يتكلم وإنما يعوي فقط مثل الكلاب، إنه كلب فعلاً ويستحق هذه العقوبة، لقد تسبب بموت كلب السيدة الصغيرة فحزنت كثيراً وحكمت عليه أن يعيش بقية حياته ككلب بين الكلاب. وقصدا بالسيدة الصغيرة، البنت الصغرى للرئيس.

حدثاه عن أنهما سيتزوجان معاً في عيد رمضان القادم من شقيقتين هما بنات عمهما وأن "الغايد" وعدهما بأن يهديهما في العرس ألف رأس من الإبل. لا يدري إبراهيم كم أمضى مع هذين البدويين الصغيرين، ولكنه حين عاد إلى بيت الحراسة، بعد أن منحاه المزيد من الخبز والبصل والخيار والجبن وحليب النوق، ودعياه لحضور عرسهما، عانقاه وتمنيا أن يرياه مرات أخرى، محاولين إفهامه أماكن تواجدهما، الزرائب والممرات والأنفاق الكثيرة التي يمرران عبرها القطعان. قال لهما؛ إن شاء الله، ولم يقل لهما أنه لا يأتي إلا في منتصف الليل، وأنه لم يستوعب كل الوصف الذي شرحاه مدللين على أنهما عارفان

بـكل هـذه البقـاع المغلقة، ولكنه أدرك أن تحت هذه الأرض ثمة عالما آخر أيضاً وشبكة من الأنفاق لا حصر لها.

حين جلس على الكرسـي الوحيد في بيت الحراسـة، راح يسـتعيد تفاصيل لقائه بالبدويين اللذين صار يسـميهما "آكلي الورد". لا يسـتطيع منـع نفسـه مـن الابتسـام كلما تذكـر قهقهاتهما حين قـالا بأنهما لو كانا يعرفان هذه الورود لأكلاها.

كسر هذا اللقاء جليداً في داخله، عفوية الصحراويين رطبت تصحر روحه، التي كان يظن بأنها قد أصبحت جافة، قاحلة بلا أي شعور وإلى الأبـد. كان هـذا اللقـاء أشـبه بضغطـة على صدر غريـق، أخرجت الماء منـه وأعـادت إليـه التنفـس والحياة. لهذا فكر بأن يحـاول الاقتراب من النـاس مجـدداً، أن يرتـاد مقهى، يلعب الدومينو، يشـتري كتبا وكرزات، أن يجلـس مـع صاحـب الدكان والخباز والحـلاق وبائع قناني الغاز في الحارة.. أن يسـعى إلى لقاء قسـمة.. وأشـياء كهذه. وليس بالضرورة أن يخبر أحداً بطبيعة عمله. عليه أن يفصل بين عمله وعالمه الخاص الذي يؤرشـف فيه للموتى وبين علاقاته التي سيسـعى لها. بشـكل ما، شـعر مجدداً بنوع من الحياة يتململ في دواخله، ورغبةً في أن يستجيب لهذه الرغبة. هكذا ظل يفكر أو يحلم بلذة إلى أن جاءته الإسعاف العسكرية في منتصف الليل ونزل منها هذه المرة أربعة. قاموا بإنزال سـتة جثث، ثم قال له السـائق مشـيراً إلى اثنين منهما: هؤلاء الشـباب تحت أمرك، علمهما الصنعة. وغادر مع الآخر تاركاً إياه مع الجثث والشابين اللذين أشـار إليهمـا. كانـا في مطلع شـبابهما، مزهوان بـه، مفتولي العضلات، فـراح يشـرح لهمـا طبيعة العمـل. أدخلهما إلى بيت الحراسـة وعرفهما على تفاصيله، ثم كيفية حمل الجثث ودفنها وترك سطح الأرض سوياً كمـا كان، فوجدهمـا حيويـين، بل مرحين لم يكلفهما جهداً حفر القبور وحمـل الجثـث كمـا يكلفه هو. كأنهما يلعبـان، ألقيا الجثث بالحُفر من

علـيّ وكأنهـا مجـرد أكياس زبالـة.. هكذا! فأزعجه ذلـك، وعندها أخذ على محمل الجد العبارة التي قالها السائق "هؤلاء الشباب تحت أمرك"، والتـي كان قـد أخذهـا في بادئ الأمر علـى أنها مجرد عبارة تقال، ولم يتعامل معهما على ضوئها، لذا جرب تطبيقها، فتوجه إليهما بنبرة حادة. أوقفهما، وقال: ليس هكذا يدفن ابن آدم، مهما يكن سبب وفاته، لابد من احترام كرامة الأموات أيضا. فلاحظ أنهما يلينان ويكفان عن لعبهما، وراح يشرح لهما كيفية لملمة أطراف الجثث مهما تكن ممزقة ومحاولة تسويتها في مواضعها قدر الإمكان، ثم إنزالها في القبر على مهل وكأنها حيـة، وتوجيـه وجهها نحـو الكعبـة.. وما إلى ذلك. وهكـذا تحولا مع الوقـت إلـى تابعيـن مطيعين له، فصـار يكتفي بتوجيههما دون أن يضطر لفعل شيء بيديه.

تحـول الشـابان إلـى محترفيـن، لذا صار رؤسـاء إبراهيـم ينقلونه، بين الحين والآخر، في طائرة مروحية إلى مدن أخرى وحدائق وقصور رئاسية مختلفة، رأى أن أغلبها قد شيدت على أماكن مرتفعة وإلى جانب شـواطئ أنهـر أو بحيـرات، وكل منهـا عالم مختلـف ومدهش بتصميمه ومناخـه. هنـاك كانـوا يتركونـه ليـوم أو يومين كي يقوم بتدريب شـبابٍ آخريـن علـى مهنـة الدفن الخاص هذه، ومع ذلك فإن إبراهيم لم يكف أبـداً عـن تدويـن مواصفات وأماكن الجثث، التي شـهد دفنها حتى وإن كانـت فـي مـدن أخـرى، حيث يفعل ذلك كلما عـاد إلى بيته، مخصصاً لكل مدينة سـجِلا خاصّاً بها، كما ظلت أسـاليب تعذيب وقتل الجثث تفاجئه بجديدها كلما ظن بأنه قد رأى كل شـيء، ومن بينها تلك التي اسـتغرق وصفه لها أكثر من صفحتين، وهو أكثر ما كتبه عن جثة حتى الآن، فـذات ليلـة ومـع تلميذيـه الأوليـن هنا في أطراف بغداد، اسـتلما مـا يقـارب الأربعيـن جثة، دفعة واحدة، وكل منها نالت من التعذيب ما يصعـب تخيلـه وتشـيب مـن هوله الولدان، إلا أن ما لفـت انتباهه أكثر،

تلك الجثة، التي تم رض كل عظم فيها، وسلخ جلدها حياً قطعة قطعة على مهل، خُلع عنها جلد القدمين كما يُخلع جورباناً، وجلدة الرأس نُزِعَت كقبعة أو قناع، وجلد الصدر كخلع القميص.. وهكذا خلعاً نزعاً سلخاً، عضواً عضواً وقطعة قطعة.. لذا صعب عليه إغلاق عينيها لشدة ما فيها من رعب، وكلما حاول إغلاقهما عادتا للانفتاح على اتساعهما كأنهما حبيسين يصرخان.. وأشد ما لفت انتباهه وشكل له نقطة أساسية للتشخيص، وإلا لاستحال تدوين أي شيء سيدل عليها؛ أن الذراع اليسرى فقط، لم تُمس بأي سوء ولم تتلق أية ضربة على الإطلاق.. وحين تفحصها على ضوء مصباحه اليدوي، وجد بأنها تحمل وشماً لرسم قلب وفي وسطه كُتب اسم الرئيس.

- 25 -

انهيار العاصمة والعودة

أصبح إبراهيم معلماً للدفانين أكثر من كونه دفاناً مباشراً بيديه، وبدأ يجد وقتاً أكثر لنفسه، حيث يمنحوه يوماً إجازة بعد عودته من كل رحلة إلى حدائق قصر مدينة أخرى. رحلات جعلته يجوب هذا البلد مرة أخرى متنقلاً بين القصور بعد أن كان قد جابه بين المعسكرات والخنادق في جبهات الحروب، وفي كلتا الحالتين لم يكن ذلك بإرادته. مع توفر الوقت وعودته إلى البيت أقل تعباً مما كان، بدأ بالخروج للتمشي ليلاً في الشوارع، عابرا أزقة وجسور وأسواق بغداد، كما استبدل قدمه الصناعية بأخرى جديدة أكثر تطوراً صممها له المستشفى الخاص الذي ماتت فيه زوجته، وصار يتذكر قسمة أكثر ويحاول إيجاد سبيلاً لمعرفة شيء عنها، لن يزعجها، لن يطالبها بشيء ولن يتدخل في حياتها، كل ما يريده هو رؤيتها والاطمئنان عليها، وأن يمنحها ما تشاء من المال المتراكم لديه، دون صرف، إذا أرادت. لكن هذا الاسترخاء لم يدم طويلاً، فقبيل.. ومع بداية عام 2003 ووضوح جدية النوايا بغزو العراق وتصاعد وتيرة الحشود الدولية لارتكاب هذه الكارثة، صار عدد الجثث القادمة ليلاً يتزايد مما يضطره لمساعدة الشابين بيديه وأحياناً يتأخرون حتى الصباح. ثم تفاقم الأمر بحيث صارت مجاميع من العساكر تأتي بمجاميع أخرى معصوبة العيون، مكتوفة الأيدي، ثم يحفرون خندقاً طويلاً أو يجيئون بجرافة تقوم بحفر هوة كبيرة لا على التعيين. يصفون المكتوفين المعصوبين على حافتها ويطلقون الرصاص، فيتساقط هؤلاء كأوراق الشجر الخريفي بينما كان الوقت ربيعاً. ثم

يأمرون الجرافة بأن تهيل عليهم التراب ويمضون لتكرار الأمر في مكان آخر، حتى دون التأكد من مقتل هؤلاء والتحقق من موتهم النهائي، يأتون بوجبة أخرى.. وأخرى. كان غالبية المقتولين حينها من العساكر والضباط برتب عالية، ويصرخ عليهم العساكر القاتلون بشتى الإهانات قبل إطلاق الرصاص، كلمات غاضبة، قذرة وهستيرية أهونها: يا خونة، يا جبناء، يا متخاذلين... يا كلاب.

وما أن بدأت أولى غارات الطائرات الأمريكية على بغداد، وتحديداً على مناطق القصور الرئاسية، حتى اضطرب كل شيء، فتم إهمال العمل بالحدائق وتحولت معظمها إلى معسكرات، أرض معركة، حفرت فيها الخنادق، وعلى التلال، ووسط الغابات نصبت المدافع ودوشكات مقاومات الطائرات وقواعد الصواريخ الصغيرة وارتفعت سواتر التراب وأكياس الرمل. تحولت كل البقاع إلى حدائق من أسلحة من كل الأحجام والأنواع. وكما أخبره سعد ذات مرة فإن كل القصور ودور الإقامة الفاخرة مبنية فوق حجرات محصنة وملاجئ، وفي بعض زوايا الحدائق ثمة خنادق محفورة سلفاً ومخفية تماماً وسط النباتات والزهور وأسيجة الحناء. تسارع تحصين المواقع العسكرية الدفاعي على جانبي الدروب داخل القصور وعلى امتداد الطرق المؤدية إليها من داخل المدينة، وارتفعت أكياس الرمل استعداداً لتلقي الهجوم الأجنبي. تحولت القصور إلى ثكنات تعج بالأسلحة والعساكر أكثر مما فيها من أشجار. الأجواء مشحونة بالتوتر والإنذار ورائحة البارود والدم والدخان. هكذا تم منح الموظفين المدنيين مظاريف دنانير وأسلحة كلاشنكوف ومسدسات وقيل لهم اذهبوا في إجازة مفتوحة إلى أن نبلغكم مستقبلاً بأوامر جديدة، وبهذه الأسلحة دافعوا عن بيوتكم والمؤسسات الحكومية في حاراتكم، قاتلوا الغزاة والخونة، وأنتم مخولون بقتل أي شخص تشكون بإخلاصه للوطن أو ترون منه خيانة أو تخاذلاً في الدفاع عنه.

عـاد إبراهيـم إلـى بيتـه، ومثل بقية الناس، اشـترى كل ما اسـتطاع من مخزون طعام وشراب وأغلق الأبواب، وحيداً بين الصالة والمطبخ والحمـام وغرفـة النـوم، بيـن التلفاز والمذياع، يطل أحيانـاً من نافذة أو يصعـد إلـى السـطح ليـرى الدخـان يتصاعد من كل الجهـات في بغداد وانفجـارات قصـف الطائـرات والصواريـخ لا تتوقـف، وخاصـة صوب جهـة مجمـع القصـور الرئاسـية، اختلـط الليل بالنهار، تحول كل شـيء إلـى جحيـم حقيقـي لأيام وأسـابيع طالت جداً إلـى أن أبصر بعينيه، في نيسـان، الدبابات الأمريكية وهي تجوب شـوارع حارته، أمام بيته، فظل معتكفاً يتدبر أمر يومياته بأقل ما يمكن من طعام بارد وشراب وشموع لأن الكهرباء كانت قد انقطعت والاتصالات انقطعت وتقطعت السـبل، ولـم يعد ثمة ما يصله بالعالم الخارجي إلا مذياع مشـوش الصوت وما يراه بعينيه من النوافذ والسطح وثقب المفتاح في الباب الخارجي، الذي لـم يفتحه منذ أن اختبأ وإلى أن سمع ذات ظهيرة أصوات أناس تتنادى، من بينها أصوات نسـاء وصرخات أطفال، فأطل برأسـه ورأى أكثر من شـخص وعائلة يحملون حقائب وأكياسـاً في سيارات أو عربات تجرها خيول وحمير من تلك التي كانت تستخدم لتوزيع قناني الغاز. وحين مر من أمامه رجلٌ يحمل حقيبة كبيرة على كتفه وفي اليد الأخرى يجرجر طفلاً وإلى جانبه امرأته بعباءتها السوداء تقوم بالشيء نفسه، حقيبة على رأسـها وفـي يدهـا الأخرى تقود طفلة شـعثاء، يهرولـون لاهثين، فوجد نفسـه يهتف بهم: إلى أين؟ أخبره الرجل على عجل قبل أن يمضي في الزقـاق ويختفـون خلـف الزاويـة القريبة، بأنها الآن فرصـة للهرب، كل النـاس يخرجـون مـن العاصمـة، الدنيـا مقلوبة يا أخي، فـإذا كان لديك أقارب أو معارف خارج بغداد وفي القرى، الجأ إليهم، وإن شئت اترك أحـد ابنـاءك فـي البيـت لحمايتـه لأن الحرامية في كل مـكان والفوضى والنهـب يطـالان كل شـيء. كل شـيء تفرهـد.. الدنيا مقلوبـة يا أخي..

مقلوبـة، مقلوبـة، هيـا، هيـا، هيا.. تـوكل على الله وانج بنفسـك، وظل الرجـل يتحـدث علـى هـذا النحـو دون أن يلتفـت إليـه، وكأنـه يحدث نفسـه بصوت عال إلى أن اختفى خلف الزاوية. دخل إبراهيم إلى بيته، وزع بيـن جيوبـه رزمـاً مما لديه من أوراق نقديـة. أحكم إغلاق النوافذ والأبواب... وغادر، لا يحمل في يديه سوى قنينة ماء.

اتجـه إلـى كراج العلاوي، ماشـياً لمسـافة ولأخرى مع حشـد في حوض سـيارة تيوتا وقفت له ولآخرين كانوا على الأرصـفة مثله. ومن الكراج، وجد سيارة أقلته إلى سامراء ومنها أخرى إلى بلد وأخرى إلى بيجي.. وهكذا إلى أن وصل قريته عند المغيب. كان قد رأى عشرات، إن لـم تكـن مئـات، الجثـث ملقـاة علـى جوانب الشـوارع والطرق منذ خروجه من بيته في بغداد وحتى وصوله إلى بيته في القرية. في لحظة، فكـر لـو أن فرصـة تسـنح لـه لدفن بعضهـا، لكن كل شـيء كان خارج رغباته وإرادته وإمكاناته، كل شيء متروك للمصادفة، للحظ أو.. لقسـمته ونصيبـه. ونصيـب إبراهيـم أنه وصل أخيراً إلى داره الريفية ناجياً بنفســه ولكن دون قسـمته، حيث لا يعرف عنها شـيئاً وما الذي حل بها الآن، وهذا أكثر ما كان يشغله. ومما يزيد من تفكيره الدائم بها، هو أنه وجد نفسه وحيداً مرة أخرى في البيت، البيت الذي ولد فيه هو وابنته، فأمه كانت قد ماتت في غيابه ومن تبقى من أخواته وأخيه الأصغر اسـتقلوا في بيوت لهم، منذ زمن، على اعتبار أن بيت الأهل سيكون من نصيب الابن الأكبر...

كان يمضي الأيام بإعادة تأهيل كل شيء على مهل ابتداءً بالحديقة وترميم ما تهدم من أركان البيت بعد هجره، مقابض الأبواب والشبابيك، زريبـة الـدواب الخاليـة.. ومن حســن الحظ، أن أخوته كانوا قد واصلوا عنايتهـم بالحقـول، لـذا لم يكن لديه الكثير ليفعلـه، فيكتفي بالتنقل بين زيارات لهم وزيارات لقبور والديه وزوجته ولقاءات مع عبدالله، أغلبها

في مكانهم القديم على شاطئ النهر، ونادراً ما ينضم إليهم طارق الذي كان ساخطاً وغاضباً على ما حدث، يخطب بهما فائر الدم لاعناً الغزاة المحتلين والاستعمار الجديد، الذي خرب الوطن وترك حدوده مشرعة لكل من هب ودب من دول الجوار، مخابرات، فرق موت، إرهابيون، انتحاريون، جواسيس ومختلف تجار الحروب، هكذا يتحدث طارق بحنق ورذاذ لعابه يتطاير على لحيته: جاءوا من كل فج وطيف، تجمعوا هنا ليصفوا حساباتهم القذرة على أرضنا، فوق رؤوسنا. إن الزمن الذي مضى أفضل من الذي أتوا به، فعلى الأقل كنا نعرف عدواً واحداً يمكننا تفاديه، أما الآن فهناك آلاف الأعداء بآلاف الوجوه، بل لم نعد نعرف من هو العدو ومن هو الصديق. كان عبدالله يقاطعه بين الحين والآخر متضجراً من خطبه النارية تلك قائلاً: كل الحقب كانت خراء وبأن الذي فات ليس بأفضل مما يحدث الآن، وأن الذي سياتي لن يكون أفضل، كلها خراء في خراء، وبعضها أسوأ من بعض، وبأن هذا البلد منذ أن وجد على هذه الأرض لم يعش أبداً عشرة أعوام متواصلة بسلام، ويبدو بأنه لن يعيشها أبداً.

كانوا يمضون بعض الساعات على الشاطئ بنقاش أو بصمت، إلا أنهم غالباً ما ينتهون بأكل بطيخة أو الاتفاق على سهرة اليوم أو لقاء قادم، يشهدون غروب الشمس وراء الجبل المقابل تدريجياً وسحر انعكاس الشفق على سطح الماء، ثم يعودون إلى القرية قبل اشتداد هجومات البعوض، سائرين في الدروب الترابية الضيقة بين الحقول، الدروب ذاتها التي ساروا فيها صغاراً. كانوا يشعرون لحظتها بالطمأنينة وكأن شيئاً لم يتغير، وكل ما حدث إنما كان مجرد عارض خارجي، عابر، خارجهم وليس داخلهم. كانوا يستعيدون الذكريات والحوارات والطرائف المكررة منذ صباهم، يتبادلون الانتقادات والمزحات نفسها ويضحكون.

في بعض المساءات، يمر عبدالله إلى المقبرة لأنه يعرف أن إبراهيم هناك، وفي مساءات أخرى، يمر إبراهيم إلى بيت عبدالله، يشربان الشاي ثم يتجهان إلى الشاطئ ويجلسان صامتين، عبدالله مكتفياً بالتدخين والتحديق بالماء، وإبراهيم يغسل الحصى الذي أمامه ويلقيه/ يدفنه في الماء. وإذا ما تحدثا، ستكون أحاديثهم تساؤلات بوح من إبراهيم وإجابات من عبدالله تصب كلها في النهاية بأن لا معنى لشيء، وأن التخلي عن تصديق الأوهام وعن الطموحات والطمع وعن الرغبة أو شهوة التملك.. هو الحل الأصح المتاح، فلا ترغب بشيء يا أخي إبراهيم، لا تنتظر شيئاً.. عندها ستشعر بالراحة ولن يقلقك شيء. لذا أنت على صواب رغم كل الذي جرى لك لأنه لم يكن بإرادتك، لأنك لم ترد شيئاً. ويقول له إبراهيم أن الشيء الوحيد الذي يريده الآن هو الاطمئنان على ابنته قسمة، ولا شيء.. لا شيء سوى ذلك. يتعذب كونه لا يعرف كيف يبحث عنها، ومن أين سيبدأ بحثه فيما لو قرر القيام به! فهو لا يعرف لها عنواناً، ولا يعرف حتى اسم زوجها أو اسم عائلته، كما أنه لا يدري بأي اسم سيسأل عنها؛ قسمة أم نسمة! وفي كل يوم كان يداول هذا الأمر في رأسه مرات، وفي كل مرة يصل إلى الاستنتاج والاحباط ذاته.

فسر عبدالله كافكا لإبراهيم معنى رعاية قطعان الحمير فوق جثث الموتى، وعبدالله هو الذي كان يمنح إبراهيم نوعاً من السكينة والراحة والحرية والأمان. لم يكن طارق ليحضر معهم دائماً فهو يغيب كي يرتب قلقه، كي يعيد ترتيب علاقاته مع كل الأطراف، كما اعتاد ذلك وورثه عن أبيه، لذا فهو يسعى لترتيبها مع المحتلين ومع مقاومي الاحتلال، مع اللصوص والشرطة، مع فلول النظام السابق وفلول النظام الجديد، مع الشيعة والسنة، مع العرب والأكراد، مع المسلمين والمسيحيين والصابئة، مع الأجانب والعراقيين... كان يسعى لإيجاد توازنٍ نفعيٍّ يتيح

له مواصلة الحياة التي اعتاد عيشها دائماً. وإذا حضر يدخل في جدالات مع عبدالله فيما إبراهيم يشارك بصمته كالعادة، ولكن، في كل الأحوال، لـم تتغيـر محبتهـم لبعضهـم، يعرف كل منهم الآخـر كما يعرف خطوط راحـة كفـه، لذا كانت مجمل لقاءاتهـم، مهما تصايحوا واختلفوا، تنتهي بشعور بالتنفيـس، شعور من يلتقي بنفسـه، وهكذا يهتم كل منهم بتفاصيل الآخر كما يهتم بتفاصيله، ويسـاعده في ترتيب أفكاره وشـؤونه الحياتية اليومية، ولهذا فإن حزن إبراهيم وقلقه على ابنته قسـمة قد صار قلقهم جميعاً... إلى أن عادت فجأة، حاملة بين ذراعيها طفلاً قالت بأنه ابنها.

- 26 -

لقاءات الأحياء والأموات

تبدو وكأنها قد كبرت كثيراً، أكثر من سنها الحقيقي، أصبحت ملامحها أنضج، ملامح امرأة أُم وليست امرأة ابنة، وجلي أن هذه الأمومة قد علمتها الصبر، والتحمل، والتخلي، ولو قليلاً، عن نرجسية الذات لصالح آخر، وأن تكون أكثر تفهماً وقبولاً للمختلف. كانت هادئة فيما إبراهيم كما كان، شديد الحرص على عدم القيام بأي فعل قد يستفزها. ما يهمه أن ابنته الآن تعيش معه، في البيت الطيني ذاته الذي ولدا فيه. يضاف إلى ذلك، هذه النعمة الجديدة التي تملأ بيتهما بالحياة وتكسر الصمت المعتاد بينهما. تعلق إبراهيم بالطفل بشكل يفوق حتى تعلق أمه به، كان لا يغفل عنه لحظة، يداري كل متطلباته ويصحبه معه أينما ذهب، حاملاً إياه على كتفيه، شاعراً بأن رأس حفيده أعْلا رأسَه بمثابة تاج سيادة الدنيا. يمنحه من الوقت والاهتمام كل ما حرم من أن يمنحه لابنته، وكان يأخذه أحياناً لزيارة قبر أم قسمة، يحدثه عن جدته.. لكن الشيء الوحيد الذي لم يكن يعجبه في هذا الطفل هو اسمه الذي اختاره له والده على اسم الرئيس، وكانت قسمة والجميع يدركون ذلك، على الرغم من أن إبراهيم لم يشر إليه أبداً ولم يلمح.

لكنها، وهم، انتبهوا إلى أنه لم ينادِ الطفل باسمه ولو لمرة واحدة، وإنما يقول له: تعال يا بني، خذ يا حبيبي. وإذا ما قدمه لأحد قال: هذا حفيدي، هذا ابن ابنتي قسمة.

وإن كان إبراهيم قد اعتاد وعزم ألا يسأل قسمة عن أي شيء إلا أنها هي من ذاتها، ومع الوقت، كانت تحدثه عن سبب تأخرها بالعودة،

عدا خوفها على ابنها، الذي يحمل اسم الرئيس السابق، من المتسلطين الجدد.

أخبرته بأنها، ومنذ دخول الأمريكان إلى بغداد وسقوط النظام كانت تقوم بأمرين رئيسين، أولهما البقاء في بيتها، الفخم، لحمايته من النهب، والثاني هو البحث عن أية معلومات توصلها لمعرفة أي شيء عن زوجها. وكانت ترافقها في البحث شقيقة زوجها وآخرون من ذوي مفقودين عرفتهم أثناء رحلات البحث هذه. قالت إن زوجها قد اختفى، فجأة، قبل سقوط النظام بوقت قليل ولم تتمكن، لا هي ولا عائلته ولا معارفه أو أصدقائه، من معرفة أي شيء عنه على الرغم من أنهم قد طرقوا كل الأبواب وافترضوا كل الاحتمالات. كانت تأمل عودته، مثلاً، بعد انهيار السجون إذا كان مسجوناً أو العودة من خارج البلد فيما لو كان فارًّا منه، أو حتى العثور على قبر له إذا كان مقتولاً.. لكن أي شيء من كل هذا لم يتحقق، وهي، منذ غيابه ولحد الآن لا تعرف عن مصيره أي شيء.

حدثته بأنها، قبل السقوط، قد مرت على كل المستشفيات، ومراكز الشرطة مبلغة إياهم أن يبلغوها بأي خبر يردهم عنه أو عن العثور على جثة مجهولة الهوية أو حتى مجنون تائه، تاركة لديهم رقم الهاتف وعنوان الدار، أما بعد السقوط فكان أمر كهذا مستحيلاً تقريباً وإلا لجاؤوها بآلاف الجثث المجهولة الهوية التي أصبحت منتشرة في أراضي العراق من أقصاه إلى أقصاه، ولأتوها بطوابير من المجانين والتائهين، خاصة بعد أن انفتحت أبواب كل مستشفيات المجانين والأمراض العقلية والنفسية بعد الهجوم وتشرد نزلائها في الدروب والخلوات عرضة للقتل والاغتصاب والعبودية والموت مرضاً أو جوعاً.

كانت قسمة تروي لأبيها عن معاناتها قليلاً قليلاً، شيئاً منها كل يوم، فيما لم يحدثها هو عن معاناته في أي يوم. ومثلما كتم إبراهيم سر

عقمه عنها وعن كل الناس، كتمت هي سر اغتصابها من قبل الرئيس عنه وعن كل الناس، ذلك أنها قررت نسيانه تماماً، حتى مع نفسها، فليس من حل آخر أمامها سوى هذا الالتفاف النفسي، الاحتيال على الذات، تظليلها بدل تحطيمها بالتذكر والشكوك، وخاصة أنها كانت قد حملت بطفلها بعد تلك الليلة المشؤومة، ولم ترد الخوض في دوامة التساؤل عمن يكون أبوه، فلحسن حظها أن الطفل قد ولد شبيهاً بها هي تماماً، لذا قالت في نفسها "إنه طفلي أنا وهذا هو الأهم". كان زوجها نشوانَ ومزهواً حد الهياج وهو يدعوها إلى حفلة خاصة في أحد القصور الرئاسية، فتزينت بأبهى زينتها، وهي تشعر بأنها، بعد وقت وجيز من زواجها، تصعد درجات السلم الاجتماعي بسرعة، بل أنها تقفز على درجاته المؤدية إلى العرش. هناك، فرضوا على النساء الدخول من باب والرجال من آخر، وصولاً إلى صالة الحفل الفخمة المفتوحة من إحدى جهاتها على موائد طويلة من شتى أنواع الطعام والشراب وسط حدائق ونافورات مضاءة، مرت من باب النساء، خلفهن من باب إلى آخر ثم آخر وآخر وآخر إلى أن وجدت نفسها، فجأة، وحيدة في غرفة نوم فارهة. ذُهلت، دخل عليها، صُدِمت، ودون مقدمات، أمرها بأن تفعل ما يريد ففعلت ما يريد.. وفعل هو بها ما أراد. بعدها، أمضت بقية الحفل جالسة جوار زوجها، خرساء صماء، لا تعي من حشد المحتفلين وأصوات العازفين والطعام سوى خليط ضبابي من ألوان متداخلة مهتزة، لم تأكل شيئاً بالطبع وادعت لزوجها لاحقاً أنها شعرت بألم في معدتها وغثيان، ولم تسأله عمن رأى في الحفلة وعما رأى وأكل، بل إنها لم تعد لذكرها أمامه.. ولا حتى مع نفسها أبداً. قررت التشكيك بحدوثه فعلاً، قررت نسيانه.

روت لأبيها رحلة بحثها عن زوجها بعد سقوط النظام، قائلة أنها اكتشفت عراقاً آخر غير الذي كانت تعرفه وتعيشه، ولم تكن لتتصور

وجوده من قبل، دارت مع المئات من ذوي المفقودين على العشرات من مقرات الجمعيات التي تم فتحها مؤخراً وأغلبها أنشأها أناس متطوعون يعينون الناس على إيجاد معلومات أو قبور ذويهم، وذلك بالاستعانة بأرشيفات أخذوها من مقرات أجهزة الأمن والمخابرات القديمة، قالت بأنهم يتحدثون عن نصف مليون عراقي مفقود على مدى العقدين السابقين هذا عدا المفقودين أثناء الحروب، أو الذين أُعدِموا وسُلّمت جثثهم إلى أهلهم. دارت على مقابر جماعية كثيرة منتشرة في أنحاء البلاد اكتُشِفَتْ مؤخراً ومنها مقابر تضم آلاف الهياكل العظمية. بعض الناس لديهم بعض المعلومات وشهادات وفاة مفقوديهم وأرقام، كانوا ينبشون قبراً تلو آخر إلى أن وجدوهم، أما هي، فلم تكن لديها أية معلومات رسمية ولا أرقام، وكل ما في حوزتها حكايات واحتمالات كانت قد سمعتها وجمعتها من أناس سبق لهم وأن عرفوا زوجها أو من معارف لمن غابوا معه. كانت تتبع خيوط أية إشاعة أو حكاية تردها بما في ذلك ما روته لها العجائز المنجمات وقارئات الكف وتخوت الرمل وعاملات السحر والشعوذة، لأنها قد لجأت إليهن أيضاً لفرط يأسها وحاجتها لأي بصيص، حتى وإن كان من تلك الخزعبلات التي لم تكن تؤمن بها من قبل. قيل لها الكثير، مثل؛ أنه قد أحب امرأة أخرى وتزوجها سراً لأن أهلها رفضوا زواجهما، بأنه قد انضم إلى أحزاب معارضة تعمل في الخارج وهرب إليها، بأنه كُلف بمهمة قتالية سرية خاصة وقتل فيها، بأنه اشترك في محاولة لقلب النظام مع أربعين من سرية الحماية الخاصة التي ينتمي إليها، وتم كشف المحاولة فأعدموا، وقالت إنها تميل إلى تصديق هذه الأخيرة أكثر لأنها التقت بعوائل رفاق لزوجها في تلك السرية فحدثوها عن الأمر نفسه، وبعضهم أُسِر أخوه أو زوجُه عن نية لمحاولة قلب النظام، وبأنهم قد اختفوا في الوقت نفسه وحدث معهم ما حدث معها تماماً، يجهلون أي شيء عنهم حتى

الآن، وهي تصدق ذلك أيضا، لأن زوجها بالفعل كان يتمنى لو يصبح رئيساً كالرئيس. كان معجباً به جداً ويعتبره قدوة وفي الوقت نفسه يمقته ويشعر به، وكأنه غريمٌ شخصيٌّ له، يشعر بأنه أولى بالرئاسة من الرئيس، فهو، على الأقل، حاصل على شهادة دراسية والرئيس لا، هو عسكري، ضابط حقيقي، والرئيس كان هارباً حتى من أداء الخدمة العسكرية، هو ابن بغداد العاصمة فيما الرئيس ابن قرية نكرة، وهو من عائلة بغدادية معروفة وعريقة فيما الرئيس مجهول الأب.. لذا كان يرى بأنه أولى منه وأحق، ولا ينقصه شيء ليحل مكانه، ومن جهة أخرى معجب به كونه وصل إلى ما وصل إليه وساد البلاد والعباد على الرغم من أنه نكرة، يتيم، وبلا أية مؤهلات تذكر. كان يكرهه بقوة ومعجب به كأنه يحبه بقوة، ولهذا أصر على أن يسمي ابننا باسم الرئيس.. بل إنه ومنذ أول دخوله إلى الكلية العسكرية، قبل أن أعرفه، كان قد خط، وشماً، اسم الرئيس على ذراعه، وأحاطه بصورة قلب كالمحبين... وهنا تتالت عليها أسئلة إبراهيم لأول مرة:

- في أي الذارعين؟
- في اليسرى.
- أفي هذه المنطقة تحديداً؟
- نعم.
- وبهذا الحجم؟
- نعم.

- وفي أي تاريخ غاب بالضبط؟ فذكرت له التاريخ الذي وجده مقارباً لتلك الأيام التي دفن فيها تلك الجثة مهشمة العظام، ومسلوخة كامل الجلد، باستثناء الذراع الموشومة، التي لم تُمس بأي أذى. فحدثها لأول مرة شيئاً عاماً عن عمله الأخير، ولكن بشكل أكبر عما قام به من أرشفة لمعلومات عن المدفونين، وذكر لها أنه دفن جثة فيها الوشم

الذي ذكرته، دون أن يذكر لها شيئاً عما تعرضت له من سلخ كسلخ الشاة الذبيحة.

انطلقا بسيارتها إلى بغداد، وروى لها في الطريق بعض ما مر به، متردداً وكاتماً للعديد من التفاصيل خشية أن تسوء صورته أكثر في نظرها ويفقدها من جديد. لكن الذي فاجأه أن رد فعلها كان على عكس ما توقع تماماً. أشادت بقيامه بأرشفة معلومات تلك الجثث ووصفت ما قام به بأنه عمل بطولي كبير وموقف لا مثيل له من النبل والإنسانية، فشعر إبراهيم بانفراج في روحه، بأنه نال أغلى وسام ونشوة لم تحدثها أية كلمات أخرى سمعها في حياته، لأنها جاءت من ابنته التي كان يذبح قلبه أنها تستتفهه وترفضه، فراح يقص عليها المزيد رغبة بكسب المزيد من رضاها وطمعاً بإعجابها. ذكرها بتلك المرة التي نبهته فيها إلى الرائحة الكريهة التي كانت تنبعث من غرفته، فأوضح لها الأمر قائلاً، تلك كانت هي البدايات، ومنذ ذلك الحين وأنا أؤرشف لآلاف الجثث في بغداد ومدن أخرى شهدتُ مواضع دفنها.

حين وصلا إلى بيته في بغداد رآها تلقي بطفلها على الكنبة في الصالون وتندفع قبله دخولاً إلى غرفته. هناك راح يخرج لها السجلات الكثيرة من مخابئها في الأركان ويريها علب الأحذية المليئة بأكياس البطاقات، والقصاصات والأشياء الصغيرة التي أخذها من الموتى. وراحت قسمة تقلب في الدفاتر التي رماها على السرير فصدمها أن تجدها مكتوبة بلغة غريبة لم ترها من قبل، أخبرها بأنها الحروف الكتابية التي اخترعها بنفسه، ولا يعرف قراءتها أي كائن آخر سواه في الدنيا، عندها قرأ في عينيها نظرة دهشة وإعجاب رائعة، أيقظت في نفسه زهواً وفخراً بنفسه، فاستل الدفتر الذي يتوقع أن يكون فيه تاريخ اختفاء زوجها، وراح يقرأ لها ما كتبه بشكل عام قافزاً على الكثير من التفاصيل البشعة، لكنها ألحت عليه فراح يقرأ وهي تجهش بالبكاء الذي

يهزها هزاً.

في الليل، بعد أن تعشيا ونام الطفل، أخرجت من حقيبتها دفترها الصغير لأرقام الهواتف، سحبت الهاتف واضعة إياه أمامها على الكنبة فانتبهت إلى أن الجهاز يشير إلى رسائل مخزونة، استمعت إليها فوجدتها رسائلها هي، الاتصالين الوحيدين اللذين تركتهما له في غيابه وليس فيهما سوى التحية وتخبره أنها بخير. سألته إن كان قد سمعهما، فقال لها بأنه لا يعرف هذا الاستخدام، بل لا يذكر بأنه قد استخدم الهاتف إلا ما ندر حتى نسيه. سألها فيما إذا كانت قد تركت له في هاتين الرسالتين رقم هاتفها أو عنوانها، فنفت بخجل وانكسار، ثم راحت تجري عشرات الاتصالات بأهل زوجها ومعارفه وبعوائل رفاقه الذين اختفوا معه وبعوائل مفقودين آخرين عرفتهم أثناء رحله بحثها، مخبرة الجميع بما اكتشفت وأن يأتوا جميعاً إلى هنا في الصباح. كان بجانبها، ينظر إليها، متأملاً طريقة تحدثها في الهاتف، وتذكر تلك الليالي التي كانت تستفرد فيها مع الهاتف وحيدة مستلقية على الكنبة وينصف ملابسها، حتماً أنها كانت تتحدث معه، ضابطها المسكين.

لم تنم قسمة ولا والدها حتى الصباح، بقيا يعدان الخرائط وينظمان التفاصيل الخاصة بجثث من اتصلت بعوائلهم. وهكذا ذهب الجميع في قافلة من السيارات إلى هناك. أكثر من مائة شخص من ستين عائلة، شاركوا بالحفر وعادوا ببقايا أمواتهم بين البكاء ومسرة معرفة المصير الأخير متجهين كل إلى مقبرة سكناه لإعادة دفن عزيزه كما يليق به وفي قبور واضحة ومعلومة. وسرعان ما انتشر الخبر بين الناس فتوافدوا إلى بيته، وإبراهيم يعطي كل منهم المعلومات التي تخصه، تساعده قسمة في تنظيم ذلك، واستمر الحال على هذا النحو قرابة شهر منهِك أوفى بأكثر ما لديه من معلومات عمن دفن في بغداد وضواحيها، ولم يتبق منها إلا الأقل إلى جانب دفاتر المدن الأخرى. لقد أصاب إبراهيم وقسمة

الإعياء لكثرة ما استقبلا من ناس في كل ساعات النهار والليل، فأخذته إلى بيتها ليرتاحا قليلاً. وجده بيتاً فخماً بأثاث باذخة وشرفات تطل على النهر. ناما هناك. جلسا في الشرفة يحتسيان الشاي ويحدقان بالماء طويلاً حتى شعرا بالراحة، وبعد يومين قفلا عائدين إلى القرية، لكن بعض عوائل المفقودين من شتى المدن صارت تتبعهما متقصية أخباره وصولاً إلى قريته، وصولاً إلى بيته. فاضطرت قسمة لتنظيم الأمر لهم، ولأن بقية السجلات بقيت في بغداد فقد حددت مواعيداً دقيقة بالزمان والمكان سيقوم فيها والدها بزيارة لكل مدينة حاملاً سجلاته، وهناك سيدلهم ويدلي لهم بما لديه.

جاء طارق إلى إبراهيم لأكثر من مرة ليلاً، راجفاً، متعرقاً، مرتبكاً وخائفاً عليه ومحذراً، ناصحاً إياه، على انفراد، بالكف عما يفعل بل وإنكاره، قائلاً له بأنه قد تناهى إلى سمعه، من علاقاته مع المقاومة وأتباع النظام الساقط، بأنهم ينوون قتله لأنهم يعتبرونه يساهم في تشويه صورة الرئيس السابق وفترة حكمه، وأنه مدسوس من الأعداء لهذا الغرض ومتعاون معهم، وبأن ما يقوله مجرد افتراءات وأكاذيب، وسيقتلونه حتى لو أن ما يقوله صحيحٌ، وما يدل الناس عليه من قبور واقعيّ، لأن ذلك، في نظرهم، هو خيانة للأمانة التي شرفه النظام السابق بأن وضعها على عاتقه ووثق به. وفي ليال تالية جاءه طارق بالحال نفسه ليخبره بأنه قد تناهى إلى سمعه، من علاقاته مع أعضاء أحزاب الحكومة الجديدة وأتباعها، بأنهم سيقتلونه ليطهروا البلد من كل أتباع النظام السابق ومن والاه وساهم بجرائمه بأي شكل من الأشكال، وبأن الذي فعلته ما هو إلا دليل قاطع على أنك قد كنت من المقربين جداً ومن الموثوق بهم، من أركان النظام الدكتاتوري البائد وأدواته.

رجاء، توسل إليه؛ كف عن هذا يا إبراهيم، بل وأنكره وأنكر معرفتك به تماماً. عليك الهرب إلى مكان آخر سري وآمن إلى أن تمر

هذه العاصفة، وأنا، إن شئت، سأتدبر هذا الأمر. سيقتلونك يا إبراهيم، سيقتلونك يا أخي، فإن لم يقتلك هؤلاء قتلك أولئك ويضيع دمك هدراً بين الفصائل، تماماً كما هو حاصل للبلد الآن.

لكن إبراهيم لم يستجب لنصحه وإن صدقه. كان لا يستطيع منع نفسه من فعل الذي يفعله وخاصة بعد أن احتمل ما احتمل وفعل ما فعل من أجل لحظة كهذه ما كان ليتوقع حدوثها، يشعر بأن هذا أمر قد هداه الله إليه وسخره له، وما كان ليتوقع أن يكون نافعاً للناس إلى هذا الحد ومدعاة لشعور بالتطهر أكثر كلما رأى النور وجزيل الشكر والامتنان ودموع ارتياح من عناء البحث في وجوه من وجدوا فقيدهم. لذا كان يرفض أخذ الهدايا منهم والمبالغ الطائلة التي عرضوها عليه تعبيراً عن الشكر. كان يشعر بضميره يرتاح أكثر ويكف عن تأنيباته الطويلة بسبب تركه لجثة صديقه أحمد النجفي في الصحراء. والأهم من هذا كله اكتسابه المفاجئ لهذا الاحترام والتقدير من قبل أكثر إنسان يهمه، ابنته قسمة.. أمر ما كان ليتوقعه أبداً.. لذا قرر المواصلة حتى يسلم آخر معلومة لديه إلى أصحابها حتى لو كلفه ذلك البحث عنهم بنفسه.

في اليوم الثاني من شهر رمضان سنة 2006 كان قد اتفق مع ثمانية آخرين من أبناء القرية على تأجير باص صغير والذهاب إلى بغداد. اتفقوا على اللقاء في الشارع الرئيسي أمام مقهى القرية، وكل منهم كان ذاهباً لغايته، بعضهم شباب باحثون عن فرص عمل ويريدون التسجيل في جهاز الشرطة باعتبارها أكثر الوظائف المتاحة حينها، آخرون، أكبر سناً، لإنجاز معاملات تقاعد وآخرون بحثاً عن مفقودين، قدماء وجدد، لهم هناك.

انطلقوا في الساعة الواحدة ليلاً، كما اتفقوا، بغية أن يكون الوصول في أول النهار وإنجاز مشاغلهم مبكراً قبل اشتداد الحر عليهم وهم صائمون. لكن رؤوسهم المفصولة قد أعيدت في صناديق موز، قبل طلوع الشمس، إلى المكان ذاته الذي تواعدوا فيه وانطلقوا منه.

- 27 -

زواج مُكرّر

في هذا البلد الذي لا يُزرَع فيه الموز، استيقظت القرية على تسعة رؤوس من رؤوس أبنائها في صناديق موز ومع كل رأس بطاقته الشخصية التي تدل عليه لأن بعض وجوهها تشوهت بفعل تعذيب سابق لقطعها أو تمثيل بعد الذبح. فلم تعد ملامحها كافية للدلالة عليها. إحدى هذه البطاقات تحمل اسم إبراهيم سهيل.

أول من رأى الصناديق هو الراعي إسماعيل، فطارت بقايا النعاس من عينيه وراح يصرخ بأعلى صوته، جفلت حمارته، توقف قطيع أغنامه وطارت الحمائم والعصافير من على الأشجار والسطوح. كان الفجر في أواخر ضيائه الفضي والقرية هاجعة هادئة سوى من صياح ديكة ونباح كلب بعيد يرد عليه كلب آخر في طرف أبعد. هرع بعض الناس من البيوت القريبة، ثم كل الناس من كل البيوت بعد أن رفع أحدهم النداء عبر مكبرات صوت المسجد.

كان ذلك في اليوم الثالث من شهر رمضان سنة 2006 حيث يتحدث التاريخ عن شيء كان اسمه أمريكا قد احتل بلداً كان اسمه العراق.

حين أخبروا عبدالله كافكا بأن رأس إبراهيم بين الرؤوس التسعة، أجاب: خلاص، لقد ارتاح، لأنه مات فعلاً هذه المرة، تاركاً إيانا لفوضى الأقدار وعبث انتظارنا لموتنا، نحن الأموات في الحياة. ثم صَمَت، جمد كحجر، ثم دخن ودخن ودخن ورأى الناس لأول مرة دمعاً ينزل من عينيه، دون أن ترمشا، دون أن يمسحهما ودون أن يكف عن التدخين.

وعندما وصل الخبر إلى ثالثهما، الشيخ طارق، كاد أن يغمى عليه ويسقط، لذا سارع بالجلوس مستنداً في دعم روحه، كي لا تنهار، على الكثير مما يحفظ من الأقوال الدينية، بكى واستغفر الله، بكى ولعن الشيطان كي لا يحرضه على الجزع، بكى وبكى حتى بلل دمعه لحيته المحناة، ثم أنقذه تساؤل المحيطين به من الاستسلام لنوبة أطول من النحيب: ماذا نفعل يا شيخ.. أندفن الرؤوس لوحدها أم ننتظر حتى نعثر على جثثها وندفنها سوية؟. لقد قُتلوا في بغداد، أو في الطريق إليها، وبغداد الآن فوضى تغص بالجثث المجهولة والمفخخات والأجانب والكذب، وربما من الاستحالة العثور على جثثهم. قال: الأفضل دفن الرؤوس، وإن حدث وأن تم العثور على الجثث فسيتم دفنها أيضاً سواء أكان مع الرؤوس أو منفصلة أو في محل العثور عليها.. إن أولادنا وأخوتنا ليسوا بأعز أو أفضل من سيد الشهداء الحسين وحفيد رسول الله الذي دفنوا رأسه في مصر أو الشام وجثته في العراق. عَجلوا بدفن الرؤوس فإن إكرام الميت دفنه.

وحدها قسمة، الأرملة التي صارت يتيمة الأبوين أيضاً هذا الفجر اعترضت وأرادت أن تُبقي رأس والدها إبراهيم إلى أن يتم العثور على جثته، لكن اعتراضها ذهب سدى حين واجهها الرجال بالرفض وزجروها: اخرسي يا امرأة ودعك من هذا الخَبل.. ما أدراك أنت وهذه الأمور!؟ ثم أبعدوها دفعاً إلى حيث تجمع النساء. وحدها جارتها أميرة السمينة أيدتها، وصرحت بأنها تريد حفظ رأس زوجها في الثلاجة، إلى أن تعثر على جثته.

ترددت قسمة طويلاً، فكانت تقدم خطوة وتتأخر خطوتين، لكنها في النهاية حسمت الأمر وقررت الذهاب إلى بيت عبدالله كافكا، فعلاقتها بعمها شبه مقطوعة منذ أن انفصلت عن أبيها وعن كل مايمت له بصلة، كما أن على كاهله عبء عائلة كبيرة وقطعان دواب ومزارع،

لذا فكرت بأن عبدالله هو أنسب من يساعدها في تنفيذ نيتها بالبحث عن جثة أبيها، لأنه أقرب أصدقائه إليه وهو الوحيد الذي أباح له والدها بالسر أيام كانت مجرد معرفة هذا تؤدي إلى الإعدام. تذكُر قوله لها ذات مرة: طارق وعبدالله هم أعز أصدقائي، وأحب عبدالله أكثر.

ثم أنه بلا عائلة ولا عمل يعيقانه، ولا مخاوف لديه حتى من الموت نفسه. هكذا كانت تعزز قناعتها بصواب قرارها بالذهاب إليه، وعلى الرغم مما قد تسببه رؤية دخول امرأة شابة أرملة إلى بيت رجل أعزب في طرف القرية من شكوك وإشاعات ثم فضيحة، إلا أنها لم ترد أن تطرح عليه الأمر أمام الناس، وهم الذين أبعدوها يوم الدفن عنوة وعنفوا أميرة السمينة معها. وبما أن عبدالله كافكا يجلس في المقهى أغلب الوقت، من أول فتحه مع طلوع الشمس، أحياناً، ولا يغادره حتى يغلق بابه بعد منتصف الليل، فالخيار الوحيد هو أن تتوجه إليه فجراً. لم يكن سهلاً عليها أخذ قرار/ مغامر كهذا، إلا أن اتخاذ هذا الموقف الصعب ليس الأول من نوعه في حياتها.

أمضت ليالي مريرة بنوم متقطع، يتناوب عليها الدمع المسكوب حزناً على والدها والتقلب في التفكير بالذي تود فعله وعزمت عليه. ولا تدري لماذا حملت طفلها معها، على الرغم من أنه كان غاطساً في نومه. تضجّر، لكنه واصل نومه وهي تلقي برأسه على كتفها، كأنها تدفع بطرف شالها. ربما خطر لها أن حملها له معها، سيزيح الشكوك فيما لو صادف وأن رآها أحد، أو أنها أرادت الاحتماء به بشكل ما، أو ربما فكرت أن عبدالله حين يرى الطفل سيكون أكثر تعاطفاً معها، وإن كانت على علم بسخطه من اسم الطفل الذي أراد له والده البغدادي أن يحمل اسم الرئيس. ترى هل سيوافق على رفقتها إلى بغداد المشتعلة للبحث عن جثة وسط آلاف الجثث وهو الذي لم يحرك ساكناً عن مقعده في المقهى كي يحضر الدفن!؟ هل سيحدثها عما تريد معرفته أكثر عن

والدها وهو الصامت أغلب الوقت؟ كانت تقلب هذين السؤالين في رأسها وتتقلب في الفراش، مستعيدة كل ما تذكره عن والدها وشعور بالذنب لأنها خالفته وفارقته أعواما على الرغم من أنها ابنته الوحيدة، كما يدفعها نوع من التحدي كي تثبت للآخرين أن البنت أيضاً يمكنها أن تحمل اسم أبيها بجدارة وتدافع عنه وعن ذكراه، وأن ليس الولد الذكر هو فقط من يحمل اسم أبيه ويواصل نسله كما يُقال. وهي تدرك، الآن أكثر من أي وقت مضى، مقدار ما عاناه والدها من أجل والديه وأخوته ومن أجلها هي وبسببها. تشعر بذلك أكثر كونها صارت أم وأرملة، مثله حين كان أباً وأرملَ رافضاً الزواج بعد وفاة أمها، وجنبها وجود زوجة أب تزعجها.. ومن أجل السر أيضاً. كان نزقها الشاب وتوقها لتكون لها حياة أخرى كآخرين وانشغالها الأناني بذاتها وحسب، يحول بين سَمعها وحافظة الذاكرة. لم تكن تريد لذاكرتها أن تصبح مستودعاً لمخلفات ذاكرته، وخاصة أعوام تواجدها ودراستها وزواجها في بغداد. كانت تريد إلغاء طفولتها في هذه القرية وتناسي حقيقة قروية والديها وبساطتهما وفقرهما. فيما لم يكن له هو من عزاء آخر سوى التمني بأن يحكي لها هي، ابنته الوحيدة، فإن لم تكن هي امتداداً لذاكرته وذكراه سوف يؤول كل هذا، الذي يمثله هو، إلى العدم والنسيان، ولا شيء يخيف ابن آدم أكثر من ذلك. كان يود استثمار أية فرصة كي يقص عليها ويعيد القص ويفصل أحياناً، بل ويبكي تارةً أو يضحك أخرى كأنه يعيشها. هذا التوق الحذر الصادق في عينيه قد ترك عنوة في ذاكرتها جزءً من ذاكرته، وإن كان على شكل أجزاء متناثرة، راحت، مع مسحة من شعور بالندم، تحاول، بعد موته، أن تعيد تجميعها، أن تستعيدها وتستمع إليها من ذاكرتها هي هذه المرة وتقصها على نفسها. تدرك أن ثمة الكثير من الثغرات مازالت بحاجة لملئها من آخرين كي تكوّن سيرة أبيها وصورته، وفي أعماقها أيضاً قررت أن تحدث ابنها حين

يكبر عن جده. إنها تراه الآن بطلاً، وإن لم يعد للبطولة من وجه في هذا البلد، الذي تشابكت فيه البطولات بالخيانات، الإنساني بالوحشي، التضحية بالاستغلال.. واختلط كل شيء وسط دخان المعارك والفوضى والدم والخراب. البطولة الحقيقية تكمن في نكران الذات، وهذا جل ما فعله والدها طوال حياته بصبر واستسلام عجيبين، كانت تمقتهما فبحثت عن نقيضه ليكون زوجاً لها، إلا أنها الآن، وقد بلغت وصارت أماً وأرملة وعادت إلى القرية، أخذت تعيد فهمها للأشياء بشكل آخر وتقول لجارتها أميرة: إن الحياة بصدماتها، تُعلم الواحد منا كيف يعرف معنى الحياة أفضل.

طرقت عليه الباب، فجراً، بهدوء، فانفتح الباب. ما كانت تتوقع بأنه سيسمع طرقاتها الأولى، لم تر على وجهه علامات استغراب ولا ما يدل على أنه كان نائماً، لكنه أكد لها بأنه كان نائماً، إلا أن طبعه الصحو دفعة واحدة، ما أن يفتح عينيه حتى يكون بكامل يقظته، اعتاد على ذلك من أعوام الأسر.

سَد الباب. جلست في الصالون والطفل نائمٌ في حجرها. سألها إن كانت تريد أن يعد لها الشاي والإفطار فقالت: لا.. اِجلس.

وجلس أمامها يدخن، ثم ابتعد أكثر حين رأى دخانه قريباً من أنف الطفل. ابتدأت هي بتمهيد طويل مقدمته بالاعتذار عن مجيئها على هذا النحو، في هذه الساعة وبلا موعد سابق. وأنها مصرة على البحث عن جثة أبيها مهما كلفها الأمر، وارتأت فيه أفضل من سيرافقها في هذه المهمة وأن والدها كان يثق به ويحبه أكثر من أي شخص آخر، لكن عبدالله غمغم بكلمات وهز رأسه رافضاً. قالت له: أرجوك. فكَّر، ثم هز رأسه بالنفي دون غمغمة، وسألته: لماذا؟ فقال بأنه لايهتم لهذه الأمور ولا تعنيه هذه الأشياء أو سواها، لذا فهو لا يصلح لها. كررت الإلحاح عليه، فكرر، أنه لا ينفعها في هذه المهمة لأنه لم ير بغداد

منذ أعوام طويلة، وحتماً قد تغيرت فيها أشياء كثيرة.. أو كلها، إنه لا يعرف فيها شيئاً، ولا يعرف حتى كيفية التصرف مع الناس بهكذا شؤون. قالت له بأنها هي تعرف بغداد جيداً وهي التي ستقوم بكل شيء، وجل ما تطلبه منه أن يكون رفيقاً لها في الرحلة، أن يرافقها رجل ثقة في هذه الظروف الفوضى، وهو الأنسب، لأنه بلا أية التزامات ويستطيع مرافقتها كل الوقت اللازم للبحث مهما طال. قال لها إن أي رجل آخر سيكون أنفع لها منه في هذه المهمة وأكثر عوناً. لكنها عاودت التأكيد بأنه الأفضل، فعدا مسألة تحرره من أية التزامات، الجميع هنا يحترمونه ويعرفون طبيعة علاقته بوالدها، لذا لن يتقول أي أحد بأي سوء عنها أو عنه، بل سيرون الأمر على أنه عين الصواب وسيثمنون موقفه.

ازداد تدخين عبدالله، ففتح الباب. ازداد إلحاح قسمة وازداد رفضه، بل حاول ثنيها عن قرارها قائلاً لها بأن الذي تنوي القيام به لا معنى له، ولن يغير من الأمر شيئاً مادام إبراهيم قد انتهى، مات.

فأكدت له أن هذا يعني لها الكثير، ويعني لوالدها الكثير أيضاً، وأنه يستحق هذا التكريم البسيط والأخير على الأقل، وهو الذي أمضى أعواماً يحرص على جمع أطراف الجثث مع بعضها ويسويها ليدفنها بما يليق بالآدمي، غامر بحياته واحتمل رعباً مُضنياً من أجل أن يدل الناس على جثامين ذويهم، وعليه فإنه يستحق أن تُعامل جثته بهذا الشكل الذي عامل به جثث آلاف البشر.

فقال لها، لا فائدة من كل ذلك، ولا معنى له فكل شيء قد انتهى.. وإبراهيم انتهى.

فنهضت غاضبة وصاحت به: إبراهيم لم ينته ولن ينتهي. إبراهيم موجود وسيبقى موجوداً فيّ أنا، أنا إبراهيم، إبني هذا إبراهيم، العراق إبراهيم، وإبراهيم سيبقى في ذاكرة الناس الذين عرفوه والذين مد لهم يد العون دائماً. فنهض أمامها مرتبكاً، فاجأه غضبها وقوة نبرتها، كأنه

صحى اللحظة. هزته حيويتها، مستسلماً بشكل ما لانفجارها الهادر هذا، وواصلت هي انقيادها لهذا التفريغ قائلة: إذا كنت أنت قد انتهيت أو تدعي الانتهاء، فهذا شأنك أنت وما تريد، أما إبراهيم فلن ينتهي، إبراهيم فينا جميعاً وفيك أنت، لكنك تتعمد النكران واللامعنى كسلاً وخوفاً وقنوطاً، كان يفكر بك دائماً في غيابك وفي حضورك، أما أنت فأناني لا تفكر إلا بنفسك، ولهذا لا ترى معنى لأحد ولا لشيء. إن كانت الأشياء بلا معنى فعلينا نحن أن نخلق لها معنى، وعندك الذهب مثالاً، وإذا لم يكن للحياة معنى فعلينا أن نوجد لها معنى ولو وهماً، أوليس اللامعنى وهم آخر!؟ أعرفك من خلال أبي وحتى أعرف جوابك وكلمتك المفضلة؛ على أن كل شيء "خراء"... وبالمناسبة، فهذه الكلمة يكثر من استخدامها أولئك المتبطرون والذين هم نقيضك، أولئك الأغنياء والأغبياء والذين بيدهم سلطة، الذين أوصلوك إلى ما أنت فيه. إبراهيم كان يحرص على أن يكون نافعاً بشكل ما أينما كان، وفي كل ما فكر وقال وفعل، وهذا ما يجب أن يكون، لأن لكل كائن بل ولكل شيء دوراً ومنفعة معينة في هذا الكون، وبالمناسبة، فحتى "الخراء" له منافعه.. يا.. كافكا.

وصمتت ملتقطة أنفاسها ناظرة في عينيه بحدة وهو ينظر في عينيها، برهة... وضحكا معاً. تنهدت، استراحت ثم قالت له:

- ها.. والآن؟

هز رأسه رافضاً، عندها خرجت غاضبة، صافقة بابه خلفها بقوة، فناداها من خلل النافذة وتوقفت دون أن تلتفت إليه. قال: كلمي طارق، فهو الأصلح لهذه المهمة، وإن رفض فبلغيني وسأعرف كيف أقنعه.

لم تجبه ولم تلتفت. ابتعدت وهي تزم طفلها على صدرها. وظل ينظر إليها حتى اختفت وهو يشعر بحالة [illegible]دة، شيء يتململ في أعماقه، لقد هزته هذه المرأة، أيقظت فيه أحاسيس اعتبرها قد ماتت.

كأنها وضعت على عينيه نظارات أعادته إلى إمكانية رؤية الأشياء بشكل مختلف أو أفضل، ليس لمنطقها بالطبع.. وإنما هذه النبرة الواثقة، لقد أعجبته فعلاً، وبقي واقفاً في النافذة لوقت طويل مدخناً ومنقاداً لتوالد افتراضات متخيلة في نفسه، قائلاً ربما لو أنه عاش مع هذه المرأة لتغيرت حياته، ربما لوجد وَهْمَ معنًى ما للحياة، أو ما يلهيه عن عدم الشعور بمعناها إلى أن تنقضي، ربما حرص أو اضطر أن يكون نافعاً، واسترسل، لو تزوجها مثلاً سوف يسعى لتزويج خاله إسماعيل أيضاً، وأن يأتي به للعيش معه بقية حياته تعويضاً عن الظلم الذي أوقعوه عليه، ولو أنها تزوجته مثلاً سوف... ثم قال لنفسه: هذا مستحيل. هذا هراء. أغلق النافذة وعاد إلى السرير.

قبيل الظهر، ذهبت قسمة إلى دار طارق، فوجدته في الصالون يلعب مع طفلتين له، سُر بقدومها ورحب كثيراً بصدق متناولاً طفلها من بين ذراعيها وضاماً إياه على صدره، قبله ومد الطفل كفه إلى لحيته فانحنى له، وما أن جلسا وعرف أنها قادمة إليه بموضوع حتى طرد طفلتيه: إذهبا للعب في الحديقة. خرجتا، وأخبرته قسمة بما جاءت من أجله، فظل طارق صامتاً للحظات ناظراً إليها ويفكر، ممشطاً أطراف لحيته بأطراف أصابعه، معتبراً أن هذه فرصة لم تكن لتخطر له على بال، بل أنها معجزة يسرها الله له، هدية من رب السماء، فهو ومنذ قدومها أرملة إلى القرية وهو يفكر مع نفسه؛ أنها امرأة كنز للزواج ولو لم يكن ولداه الكبيران؛ إبراهيم وعبدالله متزوجين لأقنع أحدهما بالزواج منها، بل فكر بمحاولة إقناع أي منهما لأخذها كزوجة ثانية لكنه عدل عن ذلك لأنه يعرف ولديه جيداً، يختلفان عنه وعن أبيه، مستسلمان لزوجتيهما محبين لهما وطائعين يخشيان زعلهما. أما الولد الآخر فلا زال صغيراً.. ففكر في تلك اللحظة بنفسه، لو أنها ترضى الزواج به سيكون هذا على المرام تماماً، فهي مثله تعرف العيش في

القريـة والمدينـة ولهـا علاقـات مـع أنـاس مهميـن في العاصمة، سـمع سـابقاً أنهـا تزوجـت رجـلاً مهماً، ومن عائلة معروفـة وغنية، وأن لديها بيتاً فخماً وسط بغداد.. لكنه ركن كل هذا التفكير جانباً فيما بعد حين وجد بأنه لمن المستحيل أن يتم ذلك أو ترضى به زوجاً فهو في عمر أبيها، وصديق أبيها، بل إنه بمثابة أب لها، فماذا سيقول الناس!؟ ولكن رحمة الله واسـعة ويرزقكم من حيث لا تحتسـبون، هكذا فكر منتشـياً وركز تفكيره ليعرف كيف يحاول تجريب انتهاز هذه الفرصة. إن مجرد المحاولة ذاتها تغريه للالتذاذ بموهبته بالكلام، فقال حريصا على تكرار كلمة "أنتِ" لمعرفته بوقعها في النفوس:

- أنتِ ووالدك مني وأنا منكم، وأنت تعرفين ذلك جيداً، لذا فأهلاً وسهلاً بك دائماً، أنت لا تطلبين وإنما تأمرين وأنا على استعداد لفعل كل ما تطلبينه مني مهما غَلا ثمنه، وتأكدي بأنني على استعداد للتضحية بأي شيء لإرضائك وإسعادك.

لاحظ وقع كلامه الإيجابي عليها، ففي تصوره أن عبارات من هذا النوع، مهما تكن عمومية وتقليدية ومكررة، فإنها تؤثر في المرأة وكأنها كلمـات جديـدة، تسـعدها الكلمـات بحد ذاتها بغـض النظر عن إمكانية تطبيقهـا واقعيـاً. المـرأة تحس وتقيم وتتأثر بالكلمـات أكثر من الرجل، بـل هـي تجـد لها تأويلات أخرى مختلفة عـن الرجل، تتذوق الكلمات كما لو كانت قطع حلوى.

قـال: ومـن أجـل أن نقوم بهذه المهمة، التـي أحيلك على التفكير بهـا، ولـي الشـرف أنك اخترتيني لمشـاركتك إياها، علينـا، أنت وأنا أن نفكر بالصيغة للقيام بها بحيث لا تجلب لنا المشـاكل أكثر مما تجلب لنا راحة الضمير.

فاستفـسرت عما يقصده، وراح يطيل الشرح لها مستنفراً كل خزينه اللغـوي وخبرتـه فـي انتقـاء التعابير كي يقنعها بأنـه لابد من إيجاد صفة

اجتماعية لرفقتهما، صفة لا تترك أي مجال للشك أو لأقاويل الناس، وخاصة أنه معلم وإمام جامع، إنه رجل محترم وابن رجل محترم وسمعته هي أغلى ما يملك، وبما أن المهمة قد تطول فهذا يعني أنهما سيضطران للمبيت ليالي عديدة بعيداً عن بيتيهما، وأنهما سيبيتان في بيتها في بغداد وعندها فلابد أن الناس ستغمز وتلمز وتطلق الأقاويل، وهو رجل تهمه سمعتها هي أيضاً بقدر حرصه على سمعته، وهو رجل واضح يحب أن تكون أفعاله واضحة كالنهار.

أدركت هي ما يرمي إليه، وهو وإن لم يكن ليخطر لها على بال، لكنها لم تشعر بصدمة أو رفض لمنطقه أو لشخصه، وهو بخبرته أحس بذلك فسعى لاستثمار رد فعلها المشجع وراح يكرر عليها تثمينه العالي لفكرة البحث عن جثة والدها صابغاً الأمر بقدسية ما، ومعبراً عن سروره وتشرفه باختيارها له هو بالذات لشراكتها في هذه المهمة وأنه يريد القيام بها معها من كل قلبه وعقله. بعدها دخل في الموضوع أكثر، مطمئناً إياها بأنه لو حصل النصيب فسيضعها في عينيه، سيرعاها وسيترك لها حرية أن تعيش هنا في القرية أو في بيتها في بغداد أو متنقلة للعيش في كليهما، ويمكنها أن تعمل معه معلمة في مدرسة القرية أو في بغداد أو حتى لا تعمل، فالخير متوفر والحمدلله، وبأنه سيكون أفضل أب لطفلها ووووو... لابد من فعل هذا، ولو على الورق فقط أو شفهياً وشرعياً أمام الناس، وقالت له: دعني أفكر. ثم نهضت. حاول استبقاءَها لتناول الغداء لكنها اعتذرت وانصرفت شاكرة، فيما بقي هو في الصالة وحيداً يمسد لحيته، يفرك راحتيه ويبتسم بقلب راقص.

- 28 -

أبناء شق الأرض

في تلك الليلة.. بالكاد نام أي من الثلاثة؛ عبدالله كافكا، طارق المندهش وقسمة إبراهيم، كل منهم كان يفكر منعزلاً في بيته. كل منهم يفكر بنفسه وبالآخر في الوقت نفسه. وليس لأي منهم شخصٌ جوارَه، شديد الحميمية والمعرفة ويتفهم الذي يدور في رأسه كي يستشيره، كما أن الثلاثة، عموماً، قد اعتادوا على الثقة بطرق تفكيرهم وبقناعاتهم المفردة.

وجدت قسمة في نفسها أن مبررات القبول أكثر من أسباب الرفض، فهي وإن لم تكن تفكر سابقاً فيما إذا كانت ستتزوج مرة أخرى أم لا، ومتى وأين وكيف؟ إلا أن انتهاءها مبكراً من هذه المسألة وفي هذه الظروف سيكون أفضل من التعويل على انتظار نموذج الشخص الذي قد لا تجده، الذي يتلائم مع وضعها كأرملة وأم ونصفها في القرية والآخر في المدينة وزوجها السابق نصف بطل ونصف خائن، وفق ما يراه البعض عما يراه البعض الآخر. كما أن طارق يعرفها وتعرفه وثمة أواصر ثقة تكاد تكون عائلية، وهي لاتجد في نفسها رغبة لهدر وقت طويل لتُعرف نفسها بآخر والتَعرف عليه بتفاصيله الحياتية والذاكرة وما إلى ذلك. طارق يكاد يشبهها بالكثير، وليس من فروق كبيرة سوى فرق العمر، فهو مثلها؛ ابن هذه القرية ويحب المدينة، تجذبه المظاهر وكثرة العلاقات الاجتماعية ومتع الحياة وانتهاز الفرص. شهادته الدراسية تعادل شهادتها. من خلاله ستشعر بالأمان والأبوة التي حرمت نفسها منها حين باعدت بينها وبين والدها مبكراً ولم تدرك عظمة هذه العلاقة

إلا بعد أن صارت أمًّا، من خلال طارق ستعرف المزيد عن أبيها، ستعيد ترميمه في ذاكرتها وروحها، ستجد صيغة معينة لمعالجة شعورها بالندم على قسوتها تجاهه، وهو ما أدركته متأخراً. تخيلت أن روح والدها أيضاً ستكون مطمئنة عليها أكثر وهي بين يدي طارق، إلى جانب ما خلفه لها من بيت وحقول وذكريات، وهي لا تشك بأن طارق سيحترمها، وسيشاركها رغبتها في إدامة ذكرى والدها. أما عما يمكن اعتبارها أسباباً للرفض فهي لا تبدو كذلك في مجتمعنا عموماً وفي القرية خصوصاً، أي فرق العمر وكونه متزوجاً، فعلى العكس، تلك ستكون نقاط قوة لصالحها في علاقتها معه ونقاط ضعف في جانبه.. وظلت قسمة تداول الأمر على هذا النحو مستعيدة تلك الذكرى البعيدة في طفولتها، حين رأت ابنه، الذي بعمرها، يجلس في حجره، يداعبه بحنان. ضحكاته وطرائفه وعطره النفاذ، الذي لم يغيره أبداً، بحيث أنها شمته صباح هذا اليوم عندما قابلته. تلك الذكرى التي طالما استعادتها في لحظات كثيرة، لأنها شكلت منعطفاً في حياتها حين قارنت بينه وبين والدها وتمنته، أو حتى يمكن القول أنها اشتهته ومن حينها شعرت بأنوثتها وباستقلالها...
قررت الموافقة إذاً، فتخيلت نفسها زوجته، وابتسمت حين ربطت هذا بذكرى الطفولة تلك. بعد كل هذه الأعوام ستتحقق رغبتها الطفولية القديمة بالجلوس في حضنه، قالت في نفسها: سبحان الله!. ومع أول الصباح اقتربت قسمة من جارتها السمينة أميرة التي كانت تخبز في تنورها الملتصق بجدار الطين الوطئ بين منزليهما، وأميرة هي أكثر من تعاملت معها قسمة في القرية. هي التي أعادت تعليمها رعاية البقرتين وحلبهما وكيفية الخبز على تنور الطين الأحمر، ومنها تستقي كل أخبار القرية. تعتبرها صديقة لها، إلى حد ما، وهي شريكتها في مصيبة رؤوس الأعزاء، والمتفقة معها على فكرة ضرورة البحث عن الجثث، بل إن أميرة كانت أكثر تطرفاً في فكرتها حين أرادت حفظ رأس زوجها في

الثلاجة أو مُملحاً، لكنهم منعوها بحزم.

طلبت من أميرة أن تبعث بأحد أولادها الصغار إلى بيت الشيخ طارق ليقول له أن يأتي، لأن قسمة تريد التحدث معه بموضوع مهم. فجاء طارق بعد أقل من ساعة في كامل أناقته وعطره الفواح يسبقه. قادته إلى الصالون وأعدت له الشاي، جاهدت للتصرف كأية امرأة قروية طيبة ومضيافة كريمة، مهذبة وطائعة. بدت بالغة الليونة حتى بالنسبة لنفسها. تحدثا عن كل أطراف الموضوع تقريباً وكلاهما كان موافقاً على طلبات وشروط الآخر بسلاسة. اتفقا على إعلان خطوبتهما وعقد قرانهما هذا المساء بحضور أبرز أقارب الطرفين. إلا أنهما لن يتزوجا إلا بعد مرور ثلاثة أو أربعة أشهر، أو أنهما سيختاران الموعد لاحقاً على ألا يقيما حفلة عرس كبيرة ويكتفيان بوليمة عشاء وأكواب عصير وشاي لبضعة أشخاص من المقربين لكليهما. اتفقا بعدها على البدء برحلتهما للبحث عن جثة إبراهيم منذ الغد وأن هذه الرحلة ستكون مناسبة أيضاً لمزيد من التعارف ومناقشة بقية التفاصيل، أو ما سيتذكرانه لاحقاً من جوانب أخرى.

خرج طارق منتشياً من عندها، بل سعيداً، شاعراً بأنه صار أكثر شباباً. ودعها بأعذب ابتسامة ونظرة لديه، ضاغطاً على كفها، بخصوصية، لحظة مصافحتها. وما أن غادر حتى دخلت أميرة إلى جارتها فأخبرتها قسمة بكل شيء، وكان من الطبيعي أن ينتشر الخبر في القرية من أقصاها إلى أقصاها قبل أن تغرب الشمس فجاء لعشاء عقد القران أناس لم تتم دعوتهم. هنا، كما في كل القرى، يحدث هذا طبيعياً؛ أن يدعو الناس أنفسهم إلى بيت من شاؤوا وما على صاحب البيت إلا الترحيب.

في صباح اليوم التالي كان طارق يقف بسيارته في باحة دارها، أنيقاً، مشذب اللحية، معطراً وجاهزاً للرحلة، بعد أن تزين وأمر صغاره بتنظيف السيارة وتزويدها بكل ما يلزم. رش داخلها بالعطر الذي لديه

منه قنينة في كل مكان، في غرفة النوم، في الصالون، في مكتبه في المدرسة، في محرابه في المسجد وفي دُرج صدر سيارته.

وما أن استدار بالسيارة خارجاً من دارها إلى أول درب الزقاق وقسمة وابنها في المقعد الخلفي وانعكاس وجهها أمامه في المرآة، حتى أوقفته أميرة السمينة أمام بوابة حوشها المجاور وهي تحمل بيدها حقيبة كبيرة وبالأخرى كتاباً سميكاً. قالت لهما أنها تريد الذهاب معهما للبحث عن جثة زوجها أيضا، وبعد أن هضم طارق المفاجأة بروية، قال لها بأن الرحلة قد تطول أياما أو أسابيعَ، وستكون صعبة، حيث التنقل بين المستشفيات ومراكز الشرطة والجمعيات التطوعية والدوائر الحكومية وحتى المقابر الحديثة، وهي لديها بيت وكومة عيال يحتاجون رعايتها، ثم إنه، مادام زوجها قد قتل مع إبراهيم في الحادث واليوم نفسه، فهما سيقومان بالتحري عنه وعن بقية أبناء القرية، وبالتأكيد، إن العثور على أحدهم سيعني العثور على الجميع.

صفنت أميرة قليلاً ثم ابتعدت عن السيارة مقتنعة أو مفكرة، وتحرك إبراهيم قبل سماع إجابتها، فلم يبق لها إلا أن ودعتهم بالأدعية. إلا أنهما، وحال انعطاف السيارة من درب الزقاق وسيرها في الشارع الرئيسي وصولاً إلى منتصفه في منتصف القرية، أمام المقهى، أبصرا عبدالله كافكا يمد ذراعه أمامهما للإيقاف، فتوقفا. أطل برأسه إليهما من النافذة الأمامية على يمين طارق وقال: أريد الذهاب معكما.

نظرا إلى بعضهما باستغراب، ثم نظرت إليه قسمة باستغراب أكبر، فقال لها:

- أريد أن أكون مفيداً بشكل ما، حتى ولو بالعناية بالطفل.

ابتسمت له، مدركة أنه يقصد ما قاله في تلك المحاورة الغاضبة في بيته، فيما رد طارق بالقول:

- بل أنك ستكون مضراً لا مفيداً.

- لماذا؟

- معنا طفل، وأنت مِدخَنة، لا تستطيع إسقاط السيجارة من يدك أبداً.

- آه، صح، ولكن لن أدخن في السيارة، أوقفوها لي دقيقتين كل ساعة أو نصف ساعة مثلاً كي أدخن خارجها.

صمت طارق للحظة، ثم نظر إلى الطفل ووجه قسمة التي أومأت له بالموافقة، فقال: هيا، توكل على الله.

فألقى عبدالله السيجارة التي كانت بين أصبعيه وصعد ليجلس جوار طارق في المقدمة.

كان إحساس الثلاثة جميلاً، شعرا باجتماعهما معاً مرة أخرى، ولشدة انفعالها، بكت قسمة بصمت، وسألها طارق الذي رأى دمعها في المرآة، فقالت: ليت أبي هو الذي معكما الآن، ليكتمل ثلاثيكم الدائم، أبناء شق الأرض، مثلما كان دائماً ومثلما عرفه كل الناس. ثم نشجت وأضافت: سأكون مكان أبي، اعتبروني أنا هو، لا أحب أن أرى مثلثكم ناقصاً. أريد أن تحدثوني كما تحدثونه، أريد أن تحدثوني عنه كل شيء.. كل شيء. وهنا وجدوا أنفسهم ينطقون بلغة مصبوغة بالحكمة وتشي بفارق نضجهما في كل مرحلة جديدة من تقدم العمر. ومما قالوه:

إنها البديهيات، مثل: أن نكون مجتمعين أفضل من أن نكون متفرقين، اليد الواحدة لا تصفق، أربع عيون ترى أفضل من اثنين، مرض عضو في الجسد سيؤلم ويعطل الجسد كله، لنرتكز على البديهات التي هي نتاج تجربة وحكمة أجيال البشرية، لنعمل ونستمتع بما متاح، لنبدأ بالممكن، لنبدأ بالأقرب ولنأخذ ما هو صغير بجدية أكبر وما هو كبير بجدية أقل.

إن السعي للملمة أطراف الجسد، رمز للسعي للملمة الجراح،

لملمة البلد، لملمة الإنسان.. نوع من الترميم، للانسجام، للتواصل ومحاولة الوصول، في نهاية الأمر، إلى السلام الذي ننشده جميعاً أمواتاً وأحياءً، ومثلما يحتاج تجميع الأطراف إلى جهد، واندمال الجراح إلى صبر فلابد أن نبذل جهداً وصبراً كي ننال السلام.

وإن لم يكن السلام هو الغاية الأخيرة، فعلى الأقل، ليكن محطة راسخة لنا نتمكن فيها من التفكير بغاياتنا الأبعد، ومن محطة السلام هذه سننطلق نحو تلك الغاية الأبعد، ثم الأبعد.. وهكذا انطلاقاً من محطة كانت غاية إلى محطة أخرى صارت غاية جديدة وصولاً إلى الهدف أو المعنى الأخير، أو ربما مواصلة البحث، فعلى الأقل نكون قد ضمنّا محطة سلامنا الأولى التي سنعود إليها كلما أعيانا البحث أو أخطأناه، أو لمجرد أن نستريح. نعم.. السلام.

أشار عبدالله لطارق أن يقف على الرغم من أنهم لم يخرجوا حتى الآن من القرية. فهبط مسرعاً، أشعل سيجارة على عجل وطارق يزجره بمرح.

- قلت كل ساعة أو كل نصف ساعة يا رجل!

وتمتم عبدالله وهو يشفط دخان سيجارته بنهم: لا بأس، لا بأس، كن متسامحاً معي قليلاً يا رجل.

عب ما استطاع من دخانها على عجل، ثم ألقى السيجارة وهي محترقة حتى النصف، وصعد.

ساروا بضعة دقائق أخرى، خرجوا خلالها من وسط القرية إلى أطرافها، فقال طارق:

- أنا متأكد بأن مهمتنا ستتكلل بالنجاح.

وحين لم يسمع رداً، أضاف: لدي مفاجأة لكما هناك في بغداد.

حدق في وجه قسمة في المرآة كي يقرأ وقع قوله ثم إلى عبدالله بجانبه، وحين وجدهما ينظران إليه بانتظار بقية قوله، واصل:

- أعرفُ شخصية مهمة في الحكومة الجديدة.

كان يقطع سرده، على هذا النحو، ملتذاً باستشعاره أنه يشوقهما وبنظراتهما المتجهة إليه بانتظار.

- وكيل في وزارة الأمن القومي ومسؤول الجانب الأمني في هيئة النزاهة.

قالت قسمة:ـ بالفعل، شخص كهذا بإمكانه أن يختصر لنا الكثير من عناء البحث. هذا إذا وافق أن يساعدنا حقاً!

فعاجلها طارق بالجواب مزهواً وبصوت أعلى:

- بالتأكيد سيساعدنا، إنه ليس مجرد معرفة سطحية وإنما واحد من أبناء قريتنا، وهنا تكمن المفاجأة لكما.

- مَن هو؟!

- إنه جلال ابن المختار المرحوم. جلال الذي سمعنا من أهلنا عن حكاية سفره إلى الخارج، قبل ولادتنا، وانقطعت أخباره.

لأول مرة يشعر عبدالله بصعقة حقيقية في جسده وروحه كرد فعل على كلمات سمعها. في لحظة واحدة أحس بنفسه متشنجاً ملموماً كحصاة وقلبه يكاد يتوقف عن النبض لشدة تسارعه وعسر في التنفس حد الاختناق، فيما واصل طارق حديثه بنشوة:

- لقد غير اسمه إلى جلال الدين، السيد جلال الدين، ولكنني استطعت معرفته بمهاراتي وعلاقاتي الخاصة، بل والتقيت به وتوافقنا على التواصل وإحياء علاقة الصداقة الحميمة التي كانت تربط بين والدينا.

أصبحوا بمحاذاة المقبرة، وقال عبدالله: توقف، توقف، أريد أن أدخن، معك حق، سأكون ضاراً أكثر من أن أكون نافعاً، وعلى هذا النحو ستطول رحلتنا وكأننا ذاهبون إلى الصين وليس إلى بغداد. فضحكوا.

- لا أستطيع.. لا أستطيع.

وترجل، مضيفاً بجدية أكبر ونبرة حزينة.. حنونة:

- أنا سأبقى هنا، مع رأسه.. وأنتما توليا البحث عن بقيته.

ثم أغلق الباب، أشعل سيجارة واتجه صاعداً سفح تل المقبرة، دون أن يلتفت.

لأن الصدمة، القلق، الكلام والأسئلة راحت تغلي في داخله ممتزجة ومتفجرة كبركان مدمر. وجد نفسه يحدث نفسه بصوت مسموع وكفاه يحاوران بعضهما بحركة ذاتية. ها هو مُغتصب أمي يعود سيداً لاغتصاب القرية والبلد. ها هم عائدون مرة أخرى، ها هو تحالف القتلة المجرمين يكرر نفسه، التاريخ يكرر نفسه، الخراء يكرر نفسه... ما العمل؟ ماذا أفعل؟ لابد أن أفعل شيئاً!

رأى في الأسفل، في قعر الوادي، جمع كلاب تتقاتل على فطيسة. بصق نحوها وواصل صعوده والأسئلة.

بقيا ينظران إليه لبرهة صامتين وهو يبتعد. هما يبتعدان، جفاف في حلق طارق ودمع في عيني قسمة.

قالت له في الطريق، لاحقاً،إن عبدالله طيب جداً، مسكين وظُلم كثيراً، إنه يشبه أباها إلى أقصى حد، وهي تحبه لقوة حب أبيها له، متشابهان في الصمت والتحمل والطيبة وبظروف الحياة التي لم تتح لهما التقاط أنفاسهما بحرية ولا اختيار أي من مراحل حياتهما.

علق طارق: كلنا نتشابه، يشبه بعضنا البعض، وكلنا نختلف عن بعضنا في الوقت نفسه، والحل هو أن نتشابه في تقبلنا لاختلافنا.

قالت قسمة: إنها تفكر به كثيراً وتريد فعل شيء من أجله كي يعيش بقية حياته بشكل أفضل، كي يتذوق متعة أو سعادة ما. إنها تفكر بتزويجه مثلاً، وعليك أن تساعدني بإقناعه، عندها، أخبرها طارق بقصة حب عبدالله لشقيقته سميحة، واعترف لها بتفاصيل لم يذكرها

لهـا والدهـا. قـال لهـا: سـأعترف لك وحدك ولأول مـرة أذكر فيها هذا الأمـر بصـوت مسـموع على الرغم مـن أنه ظل يرن في داخلي ويخزني دائمـاً، يشـعرني بالمـرارة وبالذنب تجـاه عبدالله وتجاه أختي سـميحة. أنـا الـذي أقنعـت والدي برفض زواجهما، نعم أنا، ولا تـسـأليني لماذا.. كنت صغيراً، كنت طفلاً جاهلاً. ولـم يخبرها، بالطبع، عن دافعه النفسي حينها، والذي لم ينسه أبداً بسبب ما قاده لارتكاب ما ارتكب.

سَـرهما أنهمـا متفقـان تمامـاً على فكرة أو قـرار أن يكون هدفهما الأول، حـال العـودة مـن بغـداد، هو العمـل على تزويجهمـا لبعضـهما، بل وأضـاف طارق اقتراحه بأن يقيما عرسـاً كبيراً مشـتركاً لهم الأربعة. ألفيا نفسيهما أكثر اتقاداً وإقبالاً على التفكير المشترك، متوافقان بأغلب الآراء، ومن بين ما قالاه:

نعم، لابد للحياة أن تستمر، أن يتم ترتيق الفتوق، رأب الصدوع، جمع المتفرق، وترتيب المبعثر قدر الإمكان، فلا بد للحياة أن تسـتمر. وضمن أحاديثهما التي طالت في الطريق وفي محطات البنزين ومطاعم المسـافرين ونقـاط سـيطرات التفتيش، أخبرت قسـمة طـارق بأمر آخر، عزمت عليه في نفسها، وطلبت منه أن يرافقها للقيام به خلال تواجدهما في بغداد. قالت:

- أريد تغيير اسم ابني.

- وماذا ستسـمينه؟

- إبراهيم.

صمت، كأنه يشرب ماء، ثم علق بارتياح هائل.. وتجلي:

- يـا إلهـي..!.. علـى الرغم مـن كل الحرائق والحروب.. كم من إبراهيم مشى وسيمشي على أرض الرافدين منذ أن مشاها أبونا إبراهيم!.

علـى نحـو مـا، أقلقت روح قسـمة هـذه الإيجابية المتفائلـة دائماً فـي شـخص طـارق وتفكيـره، كأنه لا يحس بما تحـس، ولا يرى الذي

تراه. هذا الخراب الشامل على امتداد جانبي الطريق، هياكل سيارات وآليات عسكرية محطمة، المباني والبيوت المنهارة، هذه السيطرات العسكرية الكئيبة التي تقطع الطريق كل نصف ساعة بأكياس الرمل وكتل الكونكريت وزنكوها الصدئ، وجوه الشرطة والجنود غير المغسولة، مزيج الخوف والتسلط في عيونهم، ملابسهم العريضة المثيرة للشفقة وقد تحولوا إلى شماعات متحركة تتدلى منها البنادق والمسدسات والحراب، الأرتال العسكرية الأمريكية التي تصوب أسلحتها على سيارات المدنيين آمرة إياهم بالابتعاد، الحقول المهملة المنطوية على عطشها والذبول الكئيب على الجهتين وأعمدة الدخان المتصاعدة في كل الجهات... لا ترى في الخارج إلا الخراب، وإذا ما حوّلت نظرها إلى داخلها لا تعثر سوى على خراب لا يقل عما هو عليه خارجها... ألا يرى طارق كل هذا؟! ألا يشعر به؟! وكيف بإمكانه تجيير كل شيء لفائدة، لفائدته؟! أمر يقلقها، يزعزع فيها ثقة ما وهي العائدة، في نفسها، لمحبة نموذج أبيها الطيب المُضحي الضحية إبراهيم!

تتحسس رأس طفلها النائم في حجرها فتقرع طبول الأسئلة في رأسها: تُرى من أية نطفة هو؟ ترى مثل مَن سيكون؟ مثل أبيه زوجها؟ مثل الرئيس المخلوع؟ مثلها هي؟ مثل أبيها؟ أم مثل هذا الطارق الذي سيترعرع هذا الصغير في كنفه؟

كانا في منتصف الطريق، حين شعرت بكل هذا يتحول إلى خليط غير متجانس، مزيج من ملوحة وحموضة وحلاوة ومرارة، أحجار تتطاحن وسط مرجل قيح يغلي في جوفها، غبار ودم ودخان، يضبب رؤيتها ويضيق من تنفسها حد الدنو من الإغماء، يثير الغثيان في أحشائها وتحس برغبة عارمة بالتقيؤ، التقيؤ... فوجدت نفسها تقول:

- تَوَقف، تَوَقف أريد النزول.

حدائق الرئيس

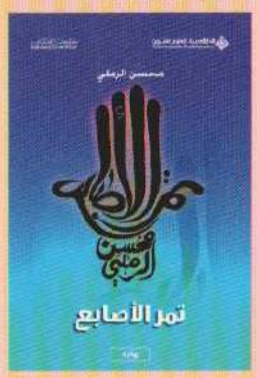
رواية

محسن الرملي



• روائي وكاتب من العراق

• صدر للمؤلف أيضاً:



عبدالله كافكا، طارق المُندهِش وإبراهيم قِسمة. ولِد الثلاثة في أشهُر مُتتالية، ومنذ حَبوهم ولعبهم عُراة في التراب قرب أمهاتهم المتجمعات بجوار التنانير أو أمام أبواب بيوتهن، في المساءات، لتبادل الثرثرة وأخبار الناس التي يُسمينها (عُلوم)، صاروا أصدقاء لا يفترقون إلا للنوم. معاً أُصيبوا بمرض الحصبة ومعاً شُفوا منه، معاً تعلموا المشي والسباحة وصيد العصافير، تربية الحمام، سرقة البطيخ والرمان وألعاب الرماية والاختباء وكرة القدم.

تسرد هذه الرواية سيرتهم ومن خلالها جانباً من تاريخ العراق على مدى نصف قرن، وكيف انعكست أحداثه على حياة الناس البسطاء. الحروب، الحصار، الدكتاتورية، المقابر الجماعية وفوضى الاحتلال التي يضيع فيها دم إبراهيم، كرمز للدم العراقي، بين فلول نظام سابق وأتباع نظام تلاه، فتُيسر لقارئها فهم تعقيد التاريخ العراقي الحديث بمآسيه المتلاحقة عبر قَص شيق في 28 فصلاً، من بين عناوينها: أبناء شَق الأرض، سَفر بقَدم واحدة، عَودة كافكا من الأَسر، شَوكة البحر، سِرّ الفضيحة التي لم تُفضَح، طفولة في صندوق عسكري، الرئيس يقتل الموسيقي، جثث ودفاتر، عرس نَسمة، آكلو الورد، لقاءات الأحياء والأموات وزواج مُكرّر.

محسن الرملي، وبعد نجاح روايتيه «الفتيت المُبعثَر» و«تَمر الأصابع» ونشرهما بالإنكليزية والإسبانية، قد وعد قُرّاءه بهذا العمل «حدائق الرئيس» في لقاءات صحفية وبرامج تلفزيونية منها تحقيق أعدته عنه القناة الرسمية الإسبانية، مكرراً تنبيهه ورفضه لاعتبار الضحايا مجرد أرقام، كما تَنكُر الصحافة، وإنما هم أناس لهم تاريخ وعوائل وأحلام وتفاصيل. كل شخص هو عالَم قائم بذاته.. ومن بين مهام الأدب تبيان ذلك.







...446-27-9
...6279

لوحة الغلاف: فاتح المدرس - تصميم الغلاف: سامح خلف